

النص الكامل
الطبعة الأولى سنة ١٤٢٥ هـ

أغلاش كريتي



الأصبع المتحرك



الأجبال
للمطبوعات والنشر
AJTB Publishers

دار الأثر الجامعية
Dar Al-Athar
Souvenir Book House

Agatha Christie



The Moving Finger



الاصبع المتحرك

الموت يقرب بصمت...

"أذكر أن الرسالة وصلت عند الإفطار. كانت رسالة شقية طبعاً العنوان فيها على الألة الكاتبة. فتحتها قبل الرسائل الأخرى، وفي الداخل كانت كلمات وأحرف مطبوعة قد قصت ونصقت على ورقة. حدثتني الكلمات للحظات دون أن أمتوغيها، ثم شققت...".

في البداية لم نسبب الرسائل المخافة الفهم إلا الرعب، ولكنها أدت -من بعد- إلى حيلة قتل. والسؤال هو: من سيكون الضحية التالية؟

رواية جديدة من روايات الكاتبة العالقة التي تعتبر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ. وهي -هلا جدال- أشهر من كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد ترجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية. وقارب عدد ما طبع منها ألفي مليون نسخة!

Chassey

www.liilas.com



الأجيال
للترجمة والنشر
AJAL Publishers

دار الوراق الجامدة
DAR AL-URUQ
www.liilas.com

المؤلفة في سطور

تُعتبر أغاثا كريستي أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي - بلا جدال - أشهر من كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد ترجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية. وقارب ما صُبع منها بليني (ألفي مليون) نسخة!

وُلدت أغاثا كريستي في بلدة توركي بحنوب إنكلترا عام ١٨٩٠ وتوفيت عام ١٩٧٦ وعمرها نحو خمسة وثمانين عاماً. لم تذهب أغاثا قط إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها في البيت على يد أمها التي دفعنها إلى الكتابة وشجعنها عليها في وقت مبكر من حياتها، كما تحيرنا هي نفسها! فحينما كانت نزيلة فراشها تتعافى من مرض ألم بها سألتها أمها: "لماذا لا تكتبين قصة؟". أجابت فوراً: "ولكنني لا أظنني قادرة على ذلك"، فقالت الأم: "بلى، نستطيعين. جرّبي وستري". عندئذ كتبت أغاثا أول رواية لها وعنوانها «ثلوج على الصحراء»، وهي رواية رفضها الناشر فلم تُنشر قط. أما الرواية الثانية «القضية الغامضة في ستابلز»، التي ظهر فيها بوارو للمرة الأولى، فقد أدخلتها إلى عالم

الكتابة الرحيب، وذلك حين نُشرت -أخيراً- بعدما رفضها ستة من الناشرين!

عاشت أغاثا طفولة سعيدة، إذ كانت صغرى ثلاثة أولاد لأسر مريحٍ مُحِبٍّ للحياة، ولم ذكيةً فموحة، وقد ظُلتُ -حتى آخر حياتها- تذكر بيتها الذي وُلدت ونشأت فيه بكثير من الشوق والحنين، ولكن هذه السعادة لم تدم؛ فقد توفي والدها وهي في الحادية عشرة مخلعاً لأسرته مشكلات مادية لم تلبث أن أدخلت أغاثا في عالم المسؤولية والظروف الصعبة.

وحينما قامت الحرب العالمية الأولى تطوعت أغاثا للعمل في أحد المستشفيات ممرضةً تساعد جرحى الحرب، وفي هذا المستشفى عملت بتحضير وتركيب الأدوية وتعرفت إلى السموم وتراكيبها مما كان له أثر بالغ الفائدة في كتاباتها اللاحقة عن الجرائم.

وفي تلك الفترة تزوجت طبيباً شاباً اسمه آرشيالد كريستي، في عام ١٩١٤، ولكنها انفصلت عنه عام ١٩٢٨ بعد موت والدتها بقليل. ولم تلبث أن تزوجت -مرة أخرى- عام ١٩٣٠ عالم الآثار الشهير السير ماكس مالون، وهو الذي أمضت برفقته سنوات من عمرها في المشرق (في العراق وسوريا ومصر) فحادث أحداث عدد من رواياتها لثقت في هذه البلاد، مثل: «موت على التل» و«جاؤوا إلى بغداد»، و«جريمة في العراق». وحينما سافرتُ على متن قطار الشرق السريع خرجت بوحدة من أشهر رواياتها: «جريمة في قطار الشرق السريع».

تحدثت أغاثا كريستي عن نفسها فقالت: "لم سُئلت عن ميولي

لأجبت بأنني أحب كل طعام جيد، وأكره الكحول وكل ما يدخل في صنعه الكحول. حاولت التدخين فوجدته بغضاً ولم أجد ما يعرني بالتعلق به. أحب الأزهار، وأعشق البحر، وأهوى السفر ولا سيما في بلدان الشرق الأدنى. أحب المسرح وأكره الأفلام الناطقة إذ أعجز عن متابعتها، وأكره الإذاعة وضوضاءها، وأبغض المدن وأزدحامها".

أما قصصها فتتميز بدقة حكيكها وترابط أحداثها ومنطقية تسلسلها. تغور فيها في أعماق النفوس البشرية محللةً كواسمها باحثة عن دوافعها بعقريّة فذة وبصيرة نافذة. وهي قصص "نظيفة" بريئة من إثارة المشاعر والغرائز وليس فيها ما يُحجّل أو يُسوء. وقد حرصت على أن تقول لنا فيها دائماً: "لا بد أن ينتصر الخير"، و"الجريمة لا تغيب".

أشهر أبطالها هيركيول (هرقل) بوارو، والأنسة ماريل. أما بوارو فقد «وُلد» في قصتها المنشورة الأولى «القضية الغامضة في ستاينز» في عام ١٩٢٠، واستمرّ بالظهور في روايات لاحقة لمدة خمس وخمسين سنة حتى «قتل» أخيراً في عام ١٩٧٥ في روايتها «السنارة». وهو محقق بلجيكي وشرطي متقاعد أهم ما يميّزه ذكائه الحارق (الناجم عن «الخلايا الرمادية الصغيرة» في دماغه!) وشاربه العظيومان اللذان ليس لهما مثيل في الدنيا! وغالباً ما يرافقه -في تحقيقاته- صاحبه الشهير، الضابط المتقاعد، الكابتن هيسنغز، الذي يتميز بطبيعته الطيبة وذكائه المتواضع بحبه الكبير لبوارو.

وأما الأنسة ماريل فهي عانس عجوز ذات ذكاء بالغ وإدراك عظيم، وتتمتع بقدرة فذة على الملاحظة والتحليل وفهم عميق للنفس

البشرية بحيث تكشف أسرار الجرائم مستفيدة من شحنة واسعة من
الأصدقاء والمعارف والعلاقات الاجتماعية الناجحة.

كُتبت أغثا كريسستي من روايات وفصوص الجريمة سباعاً ومثين
رواية طويلة وعشرات من القصص القصيرة التي نُشرت في ثلاث
عشرة مجموعة، وبذلك يكون عدد ما نُشر لها من الأعمال البوليسية
ثمانين كتاباً. كما كُتبت ست روايات طويلة رومانسية باسم مستعار
هو «ماري ويستماكوث»، وست عشرة مسرحية أشهرها «مضيدة
الفران» التي تُعتبر أطول المسرحيات عرضاً في التاريخ؛ إذ ما زالت
تُعرض في لندن (دون انقطاع تقريباً) منذ عام ١٩٣٠، أي لنحو سبعين
عاماً! أما سيرة حياتها، التي كُتبت قبل وفاتها، فقد نُشرت بعد موتها
بعام واحد، وسوف نقدم ترجمتها إلى قرائنا (مع كتاب ذكرياتها الآخر
«تعالى أخبريني كيف تعيشين» الذي نشرته عام ١٩٤٦ وسردت فيه
ذكرياتها عن رحلاتها مع زوجها)، حيث ستكون هذه هي المرة الأولى
التي يُترجم فيها هذان الكتابان إلى اللغة العربية.

* * *

الفصل الأول

أخرجني الأطباء - أخيراً - من لقائف الحص بعد ما عانيت منها ما عانيت، وجاءتني الممرضات يحاولن حملي بكلامهن المعسول على تحريك أطرافني بحذر. وفيما أنا مستاء من حديثهن معي وكأنتي طفل رضيع أخبرني ماركوس كنتُ بأن عليّ الذهاب للعيش في الريف قائلًا: هواء نقي وحياة هادئة دون أي عمل... هذه هي الوصفة التي أقدمها لك. ستولي شقيقتك رعايتك هناك. كُل، ونم، وفلذ أفراد مملكة النبات فلز الإمكان.

لم أسأله إن كان باستطاعتي الطيران من جديد؛ فمن الأسئلة ما لا يستطيع المرء طرحه لخشيته من الإجابة. وللمسبب ذاته فإني لم أسأله - خلال الأشهر الخمسة الأخيرة - إن كان سيحكم عليّ بأن أبقى مستلقياً على ظهري طيلة حياتي. كنت خائفاً من تطمين متملق للمرضى تقول لي: "كف عن ذلك، ما هذا السؤال! نحن لا نسمح لمرضاينا بأن يتحدثوا بهذه الطريقة".

ولذلك لم أسأل... وقد مضى الأمر على ما يرام وتبين أنني لن أكون مُقعداً عاجزاً؛ فقد استطعت تحريك ساقي والوقوف عليهما،

ثم استطعتُ أخيراً المشي بضع خطوات. ولكن كنت أشعر وكأنني طفل جَسور يتعلم التَّرحُّج برِكتين مرعشتين وقدمين ملقوفتين بالقطن، فإن ذلك لم يكن سوى ضعفي لن يلبث أن ينتهي.

وقد أجباني ماركوس كنت (وهو طبيب قدير) عن السؤال الذي لم أسأله، إذ قال: سوف تتعافى تماماً. لم تكن متأكدين حتى يوم الثلاثاء الماضي عندما أجبنا لك ذلك الفحص النهائي، أما الآن فاستطيع إبلاغك بكل ثقة. ولكن... سيكون الطريق طويلاً، وربما يبعث على السأم. فعندما يتعلق الأمر بشفاء الأعصاب والعضلات فإن على الدماغ مساعدة الجسد، وقد يؤدي أي استعجال إلى الإلتكاس. نستطيع فعل كل شيء، شريطة ألا تتعجل الشفاة. إذ إن أي تصرف كهذا سيُعيدك إلى المستشفى مرة أخرى! عليك أن تسأحد الأمور بمنهل وبارتياح، فالإيقاع هنا بطيء تماماً. ليس جسّدك وحده هو الذي ينبغي أن يشفي، فأعصابك قد ضعفت بسبب اضطرابنا لإبلاغك خاضعاً للأدوية لفترة طويلة. ولذلك أقول لك: اذهب إلى الريف فاستأجر بيتاً هناك، واهتم بالسياسة المحلية للقرية وبفضالها وبالقبل والغال فيها واهتم بجيرانك كما ينبغي. بل لو كان لي أن أنصحك لأشرتُ عليك بأن تذهب إلى مكان ليس لك فيه أصغاء أصلاً.

أومأت برأسي وقلت: لقد فكرت في هذا الأمر فعلاً.

لا شيء أشدّ خطراً على المرأة من اندفاع أصدقاله لزيارتها متظاهرين بالشفقة عليه فيما هم منشغلون بشؤونهم الخاصة، فلا يلبث الواحد منهم أن يبدأ بالحديث: ولكنك تبدو رائعاً يا جيري.. ما

وأبكم أنتم؟ أوه، بالتأكيد. لا بد أن أخبرك يا جيسي.. ماذا نحسب باسתר قد فعل الآن؟

كلا، لا أطيق شيئاً من ذلك.. حتى الكلاب أكثر حكمة؛ فهي ترحف مبتعدة إلى زاوية هادئة وتلتق جراحها ولا تعود إلى عالمها إلا بعد أن تبرأ من علتها.

وهكذا قمتُ وحوانا -بعد بحث محمود في سجلات وكلاء العقارات عن بيت في الجزر البريطانية- باختيار البيت المسمى "ليتل فيرز" في لايمستوك كأحد الاختيارات لمعابنته، وكان السبب الرئيس لاختيارنا هذا أننا لم نُرْ لايمستوك أبداً من قبل، ولم نكن نعرف أحداً في تلك المنطقة.

وعندما رأيت حوانا "ليتل فيرز" قررتُ على الفور أن هذا هو البيت الذي نريده. وكان يقع على بعد نصف ميل تقريباً خارج لايمستوك على الطريق المؤدي إلى منطقة السباح. وهو بيت أبيض أبيض له شرفة مائلة من الطراز الفيكتوري مطلية باللون الأخضر الفاتح، وبُشرف على منظر جميل فوق أرض منحدرة مغطاة بالنباتات، وإلى الأسفل يرتفع برج كنيسة لايمستوك من الناحية اليسرى.

كان البيت ملكاً لأخوات عوانس من عائلة بارتن لم يبقَ منهن على قيد الحياة إلا واحدة هي الصغرى، واسمها الآنسة إميلي. وكانت الآنسة إميلي بارتن امرأة مسنة رابعة صغيرة الحجم، ذات شكل يوحى بالتسحاح لا يُصدّق مع بيتها. وقد شرحتُ لحوانا بصوت ناعم فيه نبرة اعتذار بأنها لم تُؤجر بيتها من قبل أبداً، وأنها في الحقيقة ما كانت لتفكر بفعل ذلك... ولكن الأمور -كما ترين-

يا عزيزتي- قد تغيرت كثيراً هذه الأيام... الطربال بالطلع، ثم إن هناك أسهمي التي كنت أظنها دوماً مستعمراً مأموناً، والحقيقة هي أن مدير البنك نفسه قد أشار عليّ ببعضها، ولكن يبدو أنها لا تريح شيئاً هذه الأيام. وهي أسهم أجنبية بالطلع! وهذه الحال تجعل الأمر صعباً للغاية. أنا واقفة من أنك ستفهميني يا عزيزتي؛ فأنت تبدين لطيفة جداً ولن تغناظي لما سأقوله: إن المرة لا يحسب فكرة تأجير بيته للغرباء... ولكن يجب عمل شيء، كما أنني -بعد أن رأيتك- سأكون سعيدة لوجودك هنا... فاليوم يحتاج إلى حياة شابة، ولكن لا بد أن أعترف بأنني لا أجد فكرة وجود رجال هنا".

عند هذه النقطة كان على جوانا أن تخبرها عني، وقد تماكنت الآنسة إميلي نفسها بشكل جيد وقالت: يا عزيزتي، فهمت... ياله من أمر محزن! حادث طائرة؟ هؤلاء الشباب شجعان جداً. وعلى هذا فيسكون أخوك -عملياً- رجلاً مُقعداً...

بدا أن تلك الفكرة قد هذأت السيدة اللطيفة الصغيرة؛ إذ يفترض ألا تنغمس في مثل تلك الأنشطة الذكورية الخشنة التي تحشاشها إميلي بارتون. وحين استفسرت بحياء إن كنت أدخن فالتت جوانا: يدخن كمدخنة، وأنا الأخرى كذلك!

- بالطلع، بالطلع. هذا غباء مني.. أتحشى أنني لم أغير مع الزمن! كانت أخواتي جميعهن أكبر مني سناً وأمي العزيزة عاشت حتى بلغت السابعة والتسعين... تصوري! وكانت شديدة التمسك بالانضباط. نعم، نعم، الكل يدخن الآن... الشيء الوحيد هو أنه لا توجد في المنزل منافض للفائف التبغ.

قالت جوانا إننا سنحضر معنا الكثير من المنافض، وأضافت مبتسمة: لن نضع أعقاب لفائف التبغ على أثاثك الجميل، هذا وعد مني لك! قلنا لا شيء يبقطني أكثر من رؤية الناس يفعلون ذلك.

وهكذا تمت تسوية المسألة، واستأجرنا لينل فيسيز لمدة ستة أشهر مع خيار التمديد لثلاثة أشهر أخرى، وأوصحت إميلي بارتون لجوانا بأنها شخصياً ستكون مرتاحة جداً لأنها ستعيش في شقة تابعة للخادمة "فلورنس المخلصة" التي كانت تعمل لدى إميلي ثم تزوجت "بعد أن عاشت معنا خمسة عشر عاماً". قالت: إنها فتاة لطيفة وزوجها يعمل في مهنة العفارات. لديها بيت جميل في الشارع العام للبلدة، وغرفتان جميلتان في الطابق العلوي. سأكون مرتاحة تماماً هناك وستكون فلورنس سعيدة جداً لوجودي عندها.

وهكذا بدأ كل شيء مرضياً، وتم توقيع العقد، وانتقلت مع جوانا إلى البيت. وبما أن بارتريدج، خادمة الآنسة إميلي، قد وافقت على البقاء، فقد كنا موضع رعاية جيدة، وذلك بمساعدة "فتاة" كانت تأتي كل صباح، وكانت تبدو نصف بلهاء رغم أنها ودودة.

كانت بارتريدج امرأة متحجمة شديدة عنيدة في أواسط عمرها، وكانت ماهرة في الطهي. ورغم أنها استاءت من مسألة التأخر في العشاء (إذ كانت عادة الآنسة إميلي أن تناول عشاء خفيفاً من البيض المسلوق) إلا أنها كُتبت نفسها مع أسلوبنا وذهبت أبعد من ذلك إذ اعترفت بأنني أحتاج لتقوية جسدي وتغذيته.

وعندما استقرت أمورنا ومضى أسبوع على وجودنا في البيت، جاءت الآنسة بارتون باحتشام وتركزت لنا ببطاقات تهنئة. وقد حدثت

حذوها كل من السيدة سيمغتن زوجة المحامي، والأنتسة غريفيث شقيقة الطبيب، والسيدة كاثروب زوجة الكاهن، والسيد باي من مؤسسة برايورز إيند. وقد تأثرت جوانا كثيراً لهذه اللقطة وقالت بصوت منهج: لا أكاد أصدق أن أولئك الناس قد زارونا حقاً... وببطاقات تهتة!

قالت: هذا لأنك يا عزيزتي لا تعرفين شيئاً عن الريف.

- هراء. لقد أقمت مع الناس في الريف كثيراً في العديد من العطل الأسبوعية.

- هذا لا يستوي أبداً مع العيش في الريف.

أنا أكبر من جوانا بخمسة سنوات، وإني - حين أتذكر البيت الأبيض الكبير القديم الذي كنا نعيش فيه والحقول التي تمتد أسفل منه حتى نصل إلى النهر - لأتذكر كيف كنت أزعج تحت شباك العليق دون أن يراني البستاني، ورائحة القبار الأبيض في الأسطبل، وصوت حوافر الحصان وهي تضرب الأرض في داخل الأسطبلات.

ولكن عندما صرت في السابعة وصارت جوانا في الثانية من عمرها فحينما نعيش في لندن مع إحدى العمات، ومنذ ذلك الحين أصبحنا نقضي الأعياد هناك في حضور المسرحيات والتزده في حدائق كيتسينغتن في القوارب، ثم اعتدنا لاحقاً الذهاب إلى صالات التزلج، وفي شهر آب كنا نذهب وتقيم في أحد الفنادق الساحلية.

قلت لجوانا وأنا أتأمل كل هذه الذكريات وأشعر بوخز الضمير لإحساسي أنني أصبحت مريضاً أنانياً: ستكون حياة الريف

هذه معيقة بالنسبة لك... ستفتقدن كل شيء؛ فأنت تحبين الحياة الاجتماعية مما لا يتصور وجوده في هذا الريف الهادئ.

ضحكت جوانا وقالت إنها لا تهتم لذلك على الإطلاق، ثم أضافت: بل إنني في الواقع مسرورة جداً للهروب من ذلك كله. لقد سئمت حقاً الأماكن المزدحمة، ورغم أنك لن تكون متعاطفاً معي، إلا أنني أقول لك بأن قلبي قد انكسر على فراق بول، وسأحتاج فترة طويلة حتى أنقلب على ذلك.

كنت مرتاباً في كلامها هذا؛ فسيمة جوانا في علاقتها بالشباب تسير دائماً على نفس النمط. كانت تقع عادة في حب محنون لشاب ضعيف الشخصية تماماً، واثماً ما يكون ذلك الشاب "عقرياً" لم يفهمه أحد. وهي تنفق الوقت في الإصغاء لشكاواه وتعمل كل ما في وسعها حتى تحصل له على الاعتراف العام بقدراته. وبعد ذلك... عندما يصبح ناكراً للحميل، تصاب بحرج في الصميم وتقول إن قلبها قد انكسر... إلى أن يأتي الشاب الكتيب الذي يليه، ويكون ذلك عادة بعد ثلاثة أسابيع من الشاب الذي قبله؛ ولذلك لم أحمل مسألة قلب جوانا الكسير على محمل الجد، ولكنني أدركت بأن الحياة في الريف كانت مثل لعبة جديدة بالنسبة لشفتيتي الحذابة.

قالت: على أية حال فإني أبدو على ما يرام، اليس كذلك؟

أعنت النظر فيها أنفحصها ولم أستطع موافقتها على ما تقول. كانت جوانا تلبس ملابس رياضية، وهذا يعني أنها كانت تلبس ثوباً ذات مربعات أبعاد ما تكون عن الذوق، أما نصفها العلوي فقد غطته

بكنة مسخفة وصغيرة ذات أكمام قصيرة. وكانت تلبس حواري من الحرير، وحذاء رياضياً جديداً لا عيب فيه.

قلت: كلا، كلك خطأ. كان يجب أن ترتدي تنورة صوفية من التويد، وبفضل أن تكون حضراء داكنة أو بنية باهتة. وبمكنتك أن تلبسي فوقها كترة كشير جميلة، وربما مترة من الصوف وقبة من اللباد وحواري سميكه وحذاء قديماً. وعندها... وعندها فقط... ستجدين نفسك منسجمة مع المحيط هنا في الشارع العام لبلدة لايمستوك، ولن تكوني نشازاً كما أنت الآن.

ثم قلت مضيقاً: كما أن وجهك كله خطأ أيضاً.

- وما العيب فيه؟ لقد وضعتُ عليه أفضل مسحوق للتجميل.

- بالضبط. لو سبق لك العيش في لايمستوك لعلمتِ أن الأفضل أن تضعي قليلاً من البودرة حتى لا يلمع أنفك، وربما أثراً من أحمر الشفاه، دون مبالغة فيه، وتبقي على حاجبيك كما هما بدلاً من اختصارهما إلى الربع.

فهقمت جواتا وبدت مسرورة جداً وقالت: أنظنهم سيرونني فظلية الشكل؟

- كلا، سيرونك غريبة الشكل فقط!

عادت جواتا تتفحص البطاقات التي تركها زوارنا. زوجة الكاهن وحدها هي التي كانت محفوظة (أو العكس!) في العنور على جواتا في البيت. قالت جواتا بحماسة: أعتقد أن هذا المكان رائع فعلاً يا جيري! جميل وممتع وينتمي للعالم القديم... لا يمكن للمرء أن

يتصور حدوث شيء بغيض هنا، أليس كذلك؟

ورغم علمي أن ما قالته كان هراء، إلا أنني وافقتها؛ ففي بلدة مثل لايمستوك لا يمكن أن يحدث شيء سيء... ولعلنه من الغريب أننا تلقينا بعد أسبوع واحد فقط من ذلك الرسالة الأولى!

* * *

أرى أنني قد بدأت بداية سيئة... فانا لم أعط أي وصف لقرية لايمستوك، وبدون فهم لطبيعة لايمستوك يستحيل فهم قصتي.

في البداية أقول إن لهذه البلدة الصغيرة جذوراً تمتد في الماضي. كانت لايمستوك في زمن الفتح النورماندي بلدة ذات أهمية، وكانت أهميتها هذه دينية بالدرجة الأولى. كان في لايمستوك دير للرهبان، وقد خرج هذا الدير سلسلة طويلة من الرهبان الطموحين ذوي النفوذ. وكان لوردات وبارونات المناطق الريفية المحيطة بتقريبون من الكتيبة عن طريق منح الدير جزءاً من أراضيهم. وهكذا أصبح دير الرهبان في لايمستوك غنياً ومهماً وصاحب نفوذ في المنطقة لعدة قرون، ومع ذلك فقد جاء الؤست الذي جعله الملك هنري الثامن يناسم أقرانه من الأديرة نفس المصير. ومنذ ذلك الحين أصبحت إحدى القلاع هي التي تسيطر على البلدة، فيما بقي للدير بعض الأهمية بما له من ثروة وحقوق امتيازات.

وبعد ذلك تراجع - في القرن الثامن عشر - المد الحضاري للبلدة فانهارت الفلعة، ولم تمر بالقرب من البلدة أي من خطوط السكك الحديدية أو الطرق السريعة، وتحولت إلى بلدة ريفية صغيرة غير هامة، تمتد الأرض المنبسجة من ورائها، وتحيط بها

كان يقام فيها سوق مرة كل أسبوع، وفي ذلك اليوم كان المرء عرضة لمصادفة الماشية في الأزقة والطرفات. وكان يقام فيها سباق خيل صغير مرتين في كل عام لا يشارك فيه من الخيول إلا كل مغفور لم يسمع به أحد، وكان فيها شارع عام وحيد جميل تحف به بيوت فخمة يخرب تناسفها وجود واجهات المحلات في طولها الأرضية وهي تعرض الكعك أو الخضار أو الفواكه. وكان في الشارع العام محل كبير للأحواض، ومحل كبير مهيب للأدوات المعدنية، ومكتب بريد مبهرج، وصف من المحلات المتناثرة التي لا هوية لها، ومحلان متنافسان لبيع اللحوم، و"محاوون دولية". كما كان في الشارع طبيب ومكتب محاماة، وكنيسة جميلة ضخمة جداً شيد بنائها عام ألف وأربعمئة وعشرين وفيها بعض الآثار السكسونية. وكان في القرية -بالإضافة لذلك كله- مدرسة جديدة سيئة التصميم، وحائتان.

هكذا كانت لايمستوك. وتشجيع من إيملي بارتن فقد جاء لزيارتنا كل من هب ودب في القرية، وكان على جونا أن ترد -بعد ذلك- على كل تلك الزيارات بعد أن اشترت فغازين وأخذت تلبس قبة من المخمل ليس لمة أموا منها.

بالنسبة لنا، كان ذلك كله حديثاً ومسلماً فتحن لن نعيش هناك إلى الأبد. كانت -بالنسبة لنا- مجرد فترة استراحة، ولذلك أعددت نفسي للالتزام بتعليمات الطبيب والاهتمام بحيراتي. وقد وجدنا -أنا وجوانا- في ذلك متعة عظيمة.

تذكرت تعليمات طبيبي ماركوس كنت في الاستمتاع بالقضائح المحلية، وإن كنت لم أضمن كيف سنصل تلك القضائح إلى مسامعي. ولكن الغريب في الأمر أن الرسالة -عندما وصلتنا- سلطنا أكثر من أي شيء آخر. أذكر أنها وصلت وقت الإفطار. قُلتها بنكاسل كما يفعل المرء حين يمر الوقت بطيئاً فيجد لذة في إطالة كل حدث إلى أبعد مدى له. وحدثها رسالة محلية تحمل عنواناً مطبوعاً على الآلة الطابعة، ففتحتها قبل الرسالتين اللتين كانتا تحملان اهتمام بريد لندن، وكانت إحدهما فاتورة غير مهمة والثانية من أحد أقاربي المضجرين.

كانت الرسالة مشككة من كلمات وحروف مطبوعة تم قصها ثم إلصاقها على ورقة. نظرت إلى كلماتها بعض الوقت دون فهمها، ثم شقيقت. وقد عبرت الرسالة -التي استخدمت فيها عبارات بديعة جداً- عن رأي كاتبها بأننا، أنا وجوانا، لسنا أشقاء.

كانت جونا تغييس وهي تنظر إلى بعض الفواتير، فرفعت بصرها وقالت: هاه، ماذا في الأمر؟ تبدو مصعوقاً تماماً. قلت: إنها رسالة مغفلة من التوقيع وقطرة جداً.

كنت ما أزال أعاني من الصدمة؛ إذ لم يكن للمرء أن يتوقع مثل هذه الأمور في لايمستوك الهادئة.

أظهرت جونا اهتماماً شديداً على الفور: حقاً؟ ماذا تقول؟

كنت قد لاحظت في الروايات أن الرسائل المغفلة من التوقيع، والتي تكون ذات طبيعة سيئة مقززة، يتم تجنب عرضها على النساء

قدر الإمكان. ويعني هذا ضمناً ضرورة حماية النساء - مهما كلف الأمر - من الصدمة التي يمكن لتلك الرسائل أن تتركها على أجهزتهن العصبية الحساسة. ويوسفني القول أن عدم عرض الرسالة على جوانا لم يخطر ببال أي أهدأ؟ فقد سلمتها لها على الفور، ولكنها برهنت على صحة إيماني بصلاحتها بعدم إظهارها لأي انفعال غير السرور.

- يا لها من رسالة قذرة فظيعة! سمعت كثيراً عن الرسائل المحهولة، ولكني لم أر واحدة من قبل. أهي دائماً هكذا؟

- لا يمكنني أن أخبرك... إنها أول تجربة لي أنا الآخر.

بدأت جوانا نقهقه ثم قالت: لا بد أنك مصيب بخصوص المساحيق التي أضعتها على وجهي يا جيري... أحسبهم يبرول في فتاة هجرها أهلها!

- نعم، ومما يشجع على هذه النظرة أن أباها كان رجلاً طويل القامة ذاكن البشرة ذافلاً طويل يشارف، وكانت أمها شقراء الشعر زرقاء العينين وصغيرة الجسم، وأنا أشبهه وأنت تشبهينها.

أومأت جوانا برأسها متأملة: نعم، نحن لا نتشابه أبداً. ليس من شأن أحد أن يفتننا أخوين.

- هناك شخص لم يرنا كذلك بالتأكيد.

قالت جوانا إنها ترى هذا الأمر ممتعاً جداً. أمسكت بالرسالة من طرفها وسألت عما ستفعله بها. قلت: أعتمد أن الإجراء الصحيح هو إلغاؤها في النار باشمئزاز. ثم قممت بتطبيق ذلك، فصفت جوانا باستحسان قائلة: لقد فعلت ذلك بطريقة جميلة! كان يحب أن

تكون مبتلاً. من حسن حظنا أن النار ما زالت متقدة، أليس كذلك؟ وافقتها قائلاً: من شأن سلة المهملات أن تكون حلاً أقل درامية. كان يوسعي طبعاً إشعال النار فيها يعود تقاب ومراقبتها وهي تحترق ببطء.

- إن الأشياء لا تحترق عندما تريدها أن تحترق، بل هي تنطفئ، وربما توجب عليك إشعال العديد من أعواد التقاب.

نهضت وذهبت صوب النافذة، ثم التفتت بجدة وهي تقف هناك وقالت: ترى من الذي كتبها؟

- لا يبدو محتملاً أبداً أن نعرفه.

- نعم... أظن أننا لن نعرفه.

سكنت لحظة ثم قالت: عندما أفكر في هذا الأمر فإنني لا أراه مستعجلاً. لقد ظننت أنهم... أنهم قد أخبونا هنا.

- إنهم كذلك... هذا مجرد شخص معته غير سوي.

- أظن ذلك. إنه عمل بغيض... يثير الاشمئزاز!

بعد أن خرجت إلى ضوء الشمس فكرت في كلامها فوجدتها مصيبة فيه تماماً! كان عملاً قفراً. لقد كره أحدهم مجيئنا إلى هنا... كره أحدهم ما تمتع به جوانا من جمال فتني ناضر صيغته المدنية... أراد أحدهم الإيذاء. ربما كانت أفضل طريقة للتعامل مع هذا الأمر هي الضحك منه، ولكني شعرت في أعماقي بأنه لم يكن مضحكاً!

كلاماً منفتحاً مهذباً لم يرد في الرسالة.

احمرّ وجهه الأسمر غضباً وقال: نأ لهذا الأسلوب! أرحبو ألا تكون أنتك قد تضايقت؟

- إن جوانا تبدو رقيقة كالملاك، ولكنها فثاة عصرية وصلبة إلى حد بعيد. وجدت الرسالة مسلية جداً، فهي لم تصادف مثل هذه الأمور في حياتها من قبل!

قال غريفيث بحماسة: وكنت أمل ألا تصادفها.

قلت بصلافة: وعلى أية حال فلاني أرى أن هذه هي أفضل طريقة للتعامل مع الأمر... التعامل معه باعتباره أمراً سخيفاً تماماً.

- نعم. إنما...

- بالضبط. المشكلة تكمن في "إنما" هذه!

- المشكلة أن مثل هذه الأشياء ما أن تبدأ حتى تتطور.

- هذا ما أظنه.

- إنها حالة مرضية بالطبع.

أومات موافقاً ثم سأله: أتوجد أية فكرة عمّن ينفذ حلف ذلك؟

- كلا، لستني أعرف. إن جرثومة الرسائل المجهولة تنشأ عن أحد سببين. فهي قد تكون محددة.. موجهة لشخص معين أو مجموعة من الأشخاص، وهذا يعني أنها ذات دافع، ويشعر صاحبها بضغينة أو ظلم (أو هكذا يظن) ويختار طريقة سرية ماهرة لتنفيذها.

جاء الدكتور أوين غريفيث ذلك الصباح. كان من دأبه أن يقوم بعمل كشف أسبوعي شامل عليّ، وقد أحسست أنني أحببت ذلك الطبيب. كان أسمر رث الهيئة، ذا أسلوب غريب في الحركة، وكانت يده ماهرتين ناعمتين. أما كلامه فكان متردداً منقطعاً خجولاً بعض الشيء.

أبلغني أن صحتي تتقدم بشكل مشجع، ثم أضاف: يجب أن تكون على ما يرام، أليس كذلك؟ هل أنا متوهم أم أنك حقاً معك المزاج هذا الصباح؟

- كلا. وصلنتني رسالة شديدة البذاءة مغلفة من التوقيع مع قهوة الصباح، وقد تركت شيئاً من المراورة في فهي.

ألقي حقيقته على الأرض، وانفعل وجهه الأسمر النحيل وهو يقول: هل تريد القول إنك تلقيت أنت أيضاً واحدة منها؟

أثار ذلك اهتمامي فقلت: فقد انتشر الكثير منها إذن؟

- نعم، منذ بعض الوقت.

- فهمت... كان انطباعي أن كوننا غريباً هنا لا يلقى ترحيباً.

- كلا، ليس لهذا علاقة بالأمر. إنه مجرد...

سكت قليلاً ثم سأل: ماذا كانت تقول؟

ثم احمرّ وجهه وقال بارتباك: ربما ما كان لي أن أسألك؟

- سأخبرك بكل سرور. كانت تقول إن الفثاة الرائعة التي أحضرتها معي ليست أخوتي... ولا نكاد تقرّني! وأنا أستعبدُ -هنا-

وهي طريقة وضیعة مفرقة، ولكنها ليست -بالضرورة- ضرباً من الجنون، وفي هذه الحالة یسهل تتبع من كتبها... فتجده إما عادماً صرف من العمل أو امرأة غیورة... وهكذا. ولكن إن كانت عامة وليست محددة فإنها تصبح أكثر خطورة. تُرسل الرسائل دون تمييز، وهي تؤدي هدفاً یتمثل في التنفیس عن إحباط كاتبها. وكما قلت: فإن ذلك مرض بلا ریب. ویزداد الجنون، وفي نهاية الأمر تتعقب الشخص القاعل لتجد أنه -غالباً- شخص أبعد ما یكون عن الشكوك، ویتبني الأمر. لقد انتشرت مثل هذه الظاهرة بشكل قاطع في الحانب الآخر من الإقليم العام الماضي... وظهر في النهاية أنها رئيسة قسم القبعات في مؤسسة كبيرة للملبوسات. كانت امرأة هادئة ومهذبة... وكانت تعمل في المؤسسة منذ سنوات. وأتذكر شيئاً مشابهاً حدث أثناء عملي في الشمال، ولكن ظهر أن ذلك كان ناتجاً عن حقد شخصي بحت. ومع ذلك، فقد رأيتُ أموراً كهذه، وهي -بصراحة- عمل یخيفني!

- هل تُرسل منذ زمن بعيد؟

- لا أظن ذلك. یصعب الحزم بالطبع، لأن من یلقون هذه الرسائل لا یخرجون للإعلان عنها، بل هم یلقون بها في النار.

سكت قليلاً ثم قال: لقد تلقيتُ أنا واحدة، وتلقى المحامي سیمنغن واحدة، ومريضان من مرضاي المساكين أخیرائي عنها.

- أهي كلها متشابهة؟

- نعم. إنه عزف واضح على موضوع الجنس... هذه خاصة مشتركة فيها.

اتسم الطییب ثم أضاف: رسالة سیمنغن اتهمته بعلاقات غير شرعية مع الموظفة التي تعمل عنده... أي الأنسة غیث المسكينة، التي تجاوزت سن الأربعين، وتلبس نظارة، ولها أسنان كأستان الأرنب. وقد أخذ سیمنغن الرسالة إلى الشرطة مباشرة. أما رسالتي فتهمني بمخالقة آداب المهنة مع مرضاي من النساء... كلها رسائل سخيفة وصیوانية، لكنها رسائل حاقدة إلى حد مخيف.

تجهم وجهه وقال: ومع ذلك فأنا خائف؛ فهذه الأشياء قد تكون عطرة.

- أظن ذلك.

- رغم أنه تصرف صیواني مأكف وبذيء فإن إحدى هذه الرسائل ستصيب هدفها عاجلاً أم آجلاً. وعندها: الله -وحده- یعلم ماذا سيجد! إنني خائف أيضاً من تأثيرها على العقول البطیئة الشكاكة غير المتعلمة، فإذا ما رأى هؤلاء شيئاً مكتوباً فأنهم یعتقدون بصدقه. قد تظهر جميع أنواع التعقيدات.

قلت متأملاً: لقد كانت رسالة تدل على الأکمة، بل أظنها كتبت -بالفعل- على يد أمي.

قال أوبن: "خافاً"، ثم ذهب.

عندما فكرت لاحقاً في کلمته تلك وجدتها تثير القلق.

* * *

وتهذيباً من أن تشير إليها بشكل أكثر مباشرة. قلت لها إنسي أسف لذلك، وأرجو أن تتحسن حالتها عما قريب.

قالت بارتريدج: إن الفتاة تتمتع بصحة ممتازة يا سيدي. إنها متضايقة في مشاعرها.

قلت بارتنياب: أوه!

أكملت بارتريدج: بسبب رسالة تلقيتها... وفهمت أن الرسالة تُعرض بها.

وقد جعلني وجه بارتريدج المكفهر، وما وضعته من تركيز على كلمة التعريض... جعلني ذلك كله أحسني أن يكون لذلك التعريض علاقة بي أنا. وحيث أنني لم أكن معنياً أبداً بتلك الفتاة بياتريس، إلى درجة تجعلني لا أميزها إذا ما صادفتها في البلدة... فإني أحسست بانزعاج طبعي مرور. إذ أن رجلاً مريضاً مثلي يتهدى في مشيته على عكازين لا يمكن أن يقوم بدور المخادع لفتيات القرية. قلت غاضباً: أي هراء هذا!

قالت بارتريدج: هذا بالضبط ما قلته لوالدة الفتاة يا سيدي. فقد قلت لها: "لم تحدث أبداً أشياء من هذا النوع في هذا البيت، ولن تحدث أبداً ما دمت مسؤولة هنا". كما قلت لها: "قيماً يخص بياتريس، فإن الفتيات مختلفات هذه الأيام، وبالنسبة لما يدور في الأماكن الأخرى فلا أستطيع أن أقول شيئاً". ولكن الحقيقة يا سيدي إن صديق بياتريس الذي تخرج معه ويعمل في المُربأ قد تلقى واحدة من هذه الرسائل البغيضة أيضاً، وهو لا يتصرف بعقلانية أبداً.

قلت غاضباً: لم أسمع في حياتي أسخف من هذا الأمر أبداً!

الفصل الثاني

لن أزعج أن وصول رسالتنا المُغلقة لم يترك أثراً سيئاً عليّ؛ فالواقع أنها فعلت، ولكن -في الوقت ذاته- سرعان ما غاب الموضوع عن ذهني، ذلك أنني لم آخذ الرسالة -في ذلك الوقت- على محمل الجد. أذكر أنني كنت أحدث نفسي وأقول إن هذه الأمور ربما تحدث كثيراً في القرى النائية. ربما كانت تقف خلف هذا الأمر امرأة هستيرية المزعة تعمل إلى جعل نفسها موضوعاً مثيراً. وعلى أية حال فإن كانت الرسائل بمثل تلك الصيائية والسخف كذلك التي تلقيناها فإنها لا يمكن أن تؤذي كثيراً.

وقعت الحادثة التالية -إن صح التعبير- بعد حوالي أسبوع عندما أبلغتني بارتريدج وهي ترم شفيتها بأن بياتريس (الخادمة التي تأتي للمساعدة نهائياً) لن تأتي في ذلك اليوم.

قالت بارتريدج: لقد فهمت يا سيدي أن الفتاة متضايقة.

لم أكن متأكدًا مما كانت بارتريدج تألمح إليه، ولكنني فلتنت، مخطفًا أن في الأمر ألماً معوية كانت بارتريدج أكثر رقة

- أرى يا سيدي أن من الأفضل أن تتخلص منها. رأيي أنها ما كانت لتظهر كل هذا الضيق لو لم يوجد شيء لم تُرد له أن يُكشف.
لا دخان بلا نار... هذا ما أقوله!

ولم أكن أعرف كم ستعني تلك العبارة المحددة.

* * *

كنت قد قررت في ذلك الصباح أن أمشي نزولاً إلى القرية من باب المغامرة (وكنّا أنا وجوانا نسميها القرية رغم أننا كنّا مخطئين من الناحية الفنية، وكان من شأن أهل لايمستوك أن ينزعجوا لو سمعونا نقول ذلك).

كانت الشمس مشرقة والهواء بارداً ومنعشاً فيه حلاوة الربيع. ركبت عكازي واطلقت، واضطاً بقوة السماح لجوانا بمرافقتي، قائلاً: لا، لن آخذ معي ملاكاً يرعاني ويتعامل بحياتي ويسمعني كلمات الشجع. تذكرني المثل القائل إن من يسافر وحيداً يسافر بشكل أسرع، وأنا لذي الكثير من الأعمال؛ سأذهب إلى غالبريث في مكتب غالبريث وسيعتقن للمحاماة الأوقع على تحويل الأسهم، وسوف أذهب إلى الخباز وأشكو له من رغيف الزبيب، وسوف أعيد الكتاب الذي استعرتاه. كما أن عليّ الذهاب إلى المصرف أيضاً. أتركيتي أذهب إليها المرأة، فالصباح قصير جداً.

كان الترتيب بغضبي بأن نمرّ بي جوانا وتأخذني في السيارة وتعيدني عندما تحين ساعة الغداء. قالت: هذا سيعطيك محلاً لفضاء النهار مع الجميع في لايمستوك.

- ليس عندي شك بأنني سأكون قد رأيت كل من يستحق الرؤية حتى ذلك الوقت؛ ذلك أن الصباح في الشارع العام للبلدة يكون ملتقى للمتسوقين حيث يتم تبادل الأخبار.

ومع ذلك لم أذهب إلى البلدة شيئاً دون مرافق، فما أن سرت مسافة مفتي متر حتى سمعت جرس دراجة هوائية ورأيت، ثم صوت الكواح، ثم صوت ميغان هتتر وقد كسادت تقع عن دراجتها عند قدمي. قالت لاهثة وهي تنهض وتنفض الغبار عن ملابسها: مرحباً.

كنت أحب ميغان وأشعر دوماً بأسف غريب عليها. كانت ابنة زوجة سيمنتن المحامي، أي ابنة السيدة سيمنتن من زواجها الأول. لم يكن أحد يتحدث كثيراً عن السيد (أو الكابتن) هنتر، وقد فهمت بأن الرأي السائد هو أن من الأفضل نسيانه؛ إذ يقال إنه كان يعامل السيدة سيمنتن معاملة سيئة جداً، وقد افترقا بالطلاق بعد ستة أو سنتين من زواجهما تقريباً. كانت امرأة تمتلك أموالاً خاصة بها، وقد استقرت مع ابنتها الصغيرة في لايمستوك "لكني نسي"، ثم تزوجت في النهاية الأعزب الوحيد الموهل في القرية، ريتشارد سيمنتن. وقد نتج عن الزواج الحديد ولدان تعلق بهما أبوهما أيهما تعلق، وأنصوّر أن ميغان كانت تشعر أحياناً بأنها الشخص المختلف في البيت. ومن المؤكد أنها لم تكن تشبه والدتها التي كانت امرأة صغيرة الجسم شاحبة ذات نوع من الجمال الباهت، وكانت تتكلم بصوت رفيع حزين عن مشاكل الحدم وعن صحتها.

أما ميغان فكانت فتاة طويلة القامة مهلهلة الشكل، ورغم أنها في العشرين من عمرها إلا أنها تبدو أقبه بثلثمائة مدرسة في السادسة عشرة. كان شعرها بنياً غير مرتب، وعيناها عسليتين خضراوين،

وكانت ذات وجه رفيع تبرز عظامه، وابسامة جانبية جميلة إلى حدٍ غير متوقع. وهي عادة ما ترتدي ملابس باهتة الألوان غير جذابة، وجوارب قطنية ناعمة تملؤها الثقوب. وقد رأيتها ذلك الصباح أشبه بالحصان منها بالإنسان، والحقيقة أنه كانت ممكناً -بالقليل من التشذيب والعناية- أن تكون قرساً جميلة.

تكلمت كمعادتها بانديفاغ لاهث: كنت في المزرعة... مزرعة لاشر، لأرى إن كان عندهم بيض بط. إن لديهم الكثير من الخراف الصغيرة الجميلة! هل تحب الخراف؟ أنا أحب حتى رائحتها. حسناً، آتت ذهاب إلى البلدة مشياً؟ رأيتك تمشي وحيداً فأجبت أن أقف وأصبر معك، إلا أن وقتي جاءت فحافية!

- لقد مرقت جواربك.

نظرت ميغان إلى سابقها المعنى بشيء من الحزن وقالت: نعم. ولكن كان بها ثقبان من قبل، ولذلك فلا يهم الأمر كثيراً.

- ألا تقومين بإصلاح جواربك أبداً يا ميغان؟

- إلى حدٍ ما... عندما تكتشف والذي أمرى. ولكنها لا تلاحظ كثيراً ما أفعله؛ وهذا من حسن حظي نوعاً ما، أليس كذلك؟

- يبدو أنك لا تدرين أنك فتاة ناضجة.

- أتعني أنني يجب أن أكون مثل أختك... متأنقة؟

كرهت -إلى حدٍ ما- وصف جوانا بهذا الوصف، ولكني قلت: إنها تبدو نظيفة ومرتبطة بسر البانظر إليها.

- إنها جميلة جداً. ولكنها لا تشبهك أبداً، لماذا؟

- الإخوة والأخوات لا يتشابهون دائماً.

- نعم، بالطبع. إنني لا أشبه برايان أو كولين كثيراً... كما أن برايان وكولين لا يشبه أحدهما الآخر.

سكنت قليلاً ثم قالت: أليس هذا غريباً؟

.. ما هو الغريب؟

رأيت ميغان باختصار: العائلات.

قلت متأملاً: أظن ذلك.

تساعت عما بدور في ذهنها بالضبط، ثم مشينا في صمت بعض الوقت إلى أن قالت ميغان بصوت فيه نبرة خجل: أنت ضيق، أليس كذلك؟

- نعم.

- وهل هذا هو السبب في إصابتك؟

- نعم، تحطمت طائرتي.

- لا أحد هنا يظفر.

- لا، لا أظن ذلك. هل تحبين الطيران يا ميغان؟

بدت مندهشة وقالت: أنا؟ يا إلهي! كلا... ربما أصابني ذلك بالدوار. إنني أصاب بالدوار حتى في القطار!

سكنت، ثم سألتني بتلك المباشرة التي لا يظهرها عادة سوى الطفل: هل ستتغافى تماماً وتعود للطيران من جديد أم أنك ستبقى عاجزاً إلى الأبد؟

- يقول طيبي إنني سأكون على ما يرام.

- نعم، ولكن هل هو من النوع الذي يكذب؟

- لا أظن ذلك. بل إنني واثق من هذا في الواقع؛ فأنا أنق فيه.

- إذن لا بأس بهذا... ولكن كثيراً من الناس يكذبون.

فبُلت هذه الحقيقة - التي لا يمكن إنكارها - بصمت.

قالت ميغان وكأنها تُصدر حكماً محاييداً: بسعدتني ذلك.

كنت أحيي أن يكون السبب فيما يبدو عليك من مزاج سيء أنك ستكون مقعداً دوماً... ولكن إن كان ذلك مجرد طبع فالأمر مختلف.

قلت ببرود: لست سيء المزاج.

- أنت إذن سريع الغضب.

- أنا أغضب لأنني أمتعجل استرداد لياقتي من جديد... وهذه الأمور لا يمكن استعجالها.

- فقيم - إذن - الفلق والاحتجاج؟

بدأت بالضحك، ثم قلت: يا عزيزتي، ألا تستعجلين حدوث أية أمور؟

فكرت ميغان في السؤال ثم قالت: كلا، ولمساذا أمتعجل؟ لا شيء يدعو للعجلة؛ فلا يحدث شيء أبداً.

لفت انتباهي شيء كتيب يائس في كلماتها فقلت بلطف: ماذا تفعلين بنفسك هنا؟

رفعت كتيبها غير مبالية وقالت: وماذا لدي لأفعله؟

- أليس لديك أية هوايات؟ هل تمارسين الألعاب؟ معناه هل لديك أصدقاء هنا؟

- أنا فاشلة في الألعاب، كما أنني لا أحبها كثيراً. أما الفتيات في هذه البلدة فقليات، وأنا لا أحيهن، كما أنهن يروني قذيفة.

- هراء... لماذا يرونك كذلك؟

هزت ميغان رأسها، فسألتها: ألم تذهبي إلى المدرسة؟

- نعم، وعدت منها قبل عام.

- هل أحببت المدرسة؟

- لم تكن سيئة... مع أنهم يعلمون المعرة الأشياء بطريقة سخيفة جداً.

- ماذا تعنين؟

- أعني... مجرد نغف صغيرة من هنا وهناك. يحزنون ويبتلون من موضوع لآخر. كانت مدرسة رخيصة، كما أن المدرسين لم يكونوا جيدين؛ لم يكن يوسعهم الإحابة عن الأسئلة بطريقة صحيحة.

- القليل جداً من المدرسين يستطيعون ذلك.

- ولماذا لا يستطيعون؟ هذا واجبهـم.

وافقتها، فقالت: إنني غبية بالطبع، والكثير من المواد تبدو لي
ثقافة. التاريخ على سبيل المثال... إنه يختلف باختلاف المراجع!

- هذا ممكن المتعة فيه.

- والقواعد، والإنشاء السخيف، وكل هذه الحماقات التي
كتبها شيلي وهو يلغو بكل ذلك الكلام عن قُبْرَة، وذلك الآخر
وروسورث الذي ذهب عقله على بعض أزهار الترحس السخيفة.
وشكسبير...

سألتهـا باهتمام: ما العيب في شكسبير؟

- إنه يعصر نفسه ليقول أموراً بأسلوب صعب بحيث لا تفهم
ما يعنيه. ومع ذلك فإنني أحب بعض ما كتبه شكسبير.

- أنا واثق أن من شأنه أن يُسرّ لو علم بذلك.

لم تشك ميغان بوجود أية سحرية في عبارتي، وقالت وقد
أشرق وجهها: أحب على سبيل المثال شخصيتي جونزيريل وريغان.

- لماذا هاتان بالذات؟

- أوه، لا أعرف. إنهما مُقْبِعَتان إلى حد ما. لماذا تظنهما
كانا كذلك؟

- كذلك ماذا؟

- كما كانا. أقصد أن شيئاً قد جعلهما هكذا دون شك.

وتعجبت لأول مرة. كنت قد تقبلت - دائماً - ابنتي الملك لير
الكبيرتين باعتبارهما امرأتين بغضبتين بلا تفكير، ولكن سؤال ميغان
عن السبب أثار اهتمامي، فقلت لها: سأفكر في هذا الأمر.

- إنه لا يهم... كنت أنساءل فقط. على أية حال فإنه الأدب
الإنكليزي فقط، أليس كذلك؟

- تماماً، تماماً. ألم نحتي أية مادة أخرى؟

- الرياضيات فقط.

قلت مندهشاً: الرياضيات؟

أشرق وجه ميغان وقالت: لقد أحببت الرياضيات، ولكنها لم
تُدْرَس بشكل جيد. كان بودي لو أتعلم الرياضيات بطريقة جيدة...
إنها رائعة. على أية حال فإنني أعتقد بوجود شيء رائع في الأرقام،
أليس كذلك؟

قلت صادقاً: لم أشعر بمثل هذا أبداً.

كنا ندخل الآن الشارع العام في البلدة. قالت ميغان بحدة: ها
هي الآنسة غريفيث... امرأة بغضبة.

- ألا تحببها؟

- بل أنا أمقتها؛ فهي تلاحقني دائماً كي أنضم إلى جماعتها
من فتيات الكشافة الكريهات، وأنا أكره فتيات الكشافة. لماذا يلبسن

زيهن الخاص ويخرجن في مجموعات ويضعن الشارات من أجل شيء لم يتعلمن عمله بطريقة صحيحة؟ أفلهن أمراً نافعاً.

كنت أميل إجمالاً للاتفاق مع ميغان، ولكن الأنسة غريفيث نزلت علينا قبل أن أتمكن من التعبير عن موافقتي لتلك.

كان لأخت الطبيب - وندعى إيمي - من الثقة الوطيدة بنفسها ما لا يملكه شقيقها، وكانت وسامتها من النوع الرجولي الذي سقته الشمس والأنواء، ولها صوت عميق محبب. صاحبت بنا: مرحباً أنتما الاثنين. أليس هذا صباحاً رائعاً؟ أنت يا ميغان الإنسانية التي أردت رؤيتها؛ أريد مساعدتك في عنوان الرسائل إلى جمعية المحافظين.

تعمدت ميغان بعبارة مراوغة، ثم أسندت دراحتها على حافة الطريق ودخلت "المخازن الدولية" بطريقة مقصودة.

قالت الأنسة غريفيث وهي تنظر إليها: طفلة غريبة... كومة عظام كسولة تقضي وقتها متسكعة هنا وهناك... لا بد أنها محنة كبيرة للسيدة سينغتن المسكينة. أعرف أن والدتها حاولت أكثر من مرة أن تحملها على تعلم مهنة ما... الطباخة بالاختزال أو الطبخ أو غريبة الأراتب. إنها بحاجة لاهتمام في الحياة.

أحسست أن ذلك ربما كان صحيحاً، ولكنني شعرت بأنني - لو كنت مكان ميغان - لعارضت بقوة أي اقتراح للأنسة غريفيث لسبب بسيط هو أن شخصيتها العدوانية من شأنها أن تذيبني الأمرين.

أكملت الأنسة غريفيث: أنا لا أحب الكسل، وخاصة لدى

الشباب. وميغان ليست بتلك الفتاة الحميلة أو العذابية، بل إنني لأظنها معتوهة في بعض الأحيان... إنها غبية أمل كبيرة لأمرها. ثم خفضت صوتها قليلاً وقالت: كان أبوها بالتأكيد رجلاً سيء السلوك. أخشى أن نرت الفتاة صفاته، وهو أمر مؤلم لأمرها. على أية حال... إن عمران الدنيا يتطلب وجود مختلف أصناف البشر، هذا ما أقوله.

أخبتها: وذلك من حسن الحفظ.

ضحكت إيمي غريفيث بمرح وقالت: نعم، ما كنا لنفلح لو خلقنا جميعاً من نمط واحد. ولكني لا أحب رؤية أحد لا يأخذ كل ما يمكنه من هذه الحياة. أنا - شخصياً - أستمتع بحياتي، وأريد لكل امرئ أن يستمتع بها أيضاً. يقول لي الناس إنني أشعر - دون شك - بالملل المقاتل من الحياة في الريف طيلة العام، وأحبهم بأن ذلك غير صحيح إطلاقاً؛ فأنا مشغولة دائماً، وسعيدة دائماً هناك دائماً أمور تحري في الريف. إن وقتي مُستنفذ كله، بسبب الكشافة والمعهد واللجان المتعددة، ناهيك عن العناية بأخي أوين.

في تلك اللحظة رأت الأنسة غريفيث إحدى صاحباتها علي الجانب الآخر من الطريق فنادتها محبة ثم ذهبت إليها وتركنتي حراً لمتابعة طريقتي إلى المصرف.

كنت أرى في الأنسة غريفيث شخصية ذات تأثير طاع لا يترك للمرء متفضلاً، رغم أنني كنت معجباً بنشاطها وحيويتها. وكان أمراً حزيناً أن نرى عليها علامات الرضى المتهيج بحظها في الحياة، ذلك الرضى الذي كانت تبديه دائماً على التقيض تماماً من

نعمتات الشكوى الخافتة التي تطلقها كثير من النساء.

بعدما أنهيت عملي في المصرف بشكلٍ مُرضٍ ذهبت إلى مكتب محاماة غاليريت وسيمغتن. لا أعرف إن كان أحد من عائلة غاليريت باقٍ على قيد الحياة أم لا؛ فأنا لم أر أحداً منهم أبداً. أرشدوني إلى مكتب ريتشارد سيمغتن الداخلي الذي كان فيه من القديم ما يوحى بمكتب محاماة عريق، وقد حفل بالعديد من عزائين الوثائق الكثيرة التي كُتبت على ملفاتها أسماء مثل الليدي هوب، السير إيفرارد كاره، الراحل وليام هوريس... السخ، وكان ذلك كله يعطي الجو المطلوب، المعبر عن عائلات الريف الإقطاعية وعن مكتب محاماة عريق مستقر.

وعندما تفحصت السيد سيمغتن وهو مكتب على الوثائق التي أحضرتها له أدركت أن السيدة سيمغتن - إن كانت قد لاقت مصيبة في زواجها الأول - فإنها قد أحسنت الاختيار بالتأكد في زواجها الثاني. كان ريتشارد سيمغتن مثلاً للاحترام الرزين، من ذلك النوع من الرجال الذين لا يسيبون لزوجاتهم لحظة واحدة من القلق. كان ذا عتق طويل وحجر بارزة ووجه شاحب وأنف طويل رفيع. ما من شك أنه كان زوجاً صالحاً وأباً جيداً، ولكنه لم يكن ممن يجعلون النضات تتلاحق بحنون.

وسرعان ما بدأ السيد سيمغتن حديثه. كان يتكلم ببطء ووضوح مُظهراً الكثير من الفهم والهداء. سويتا المسألة التي كانت أمامنا ونهضت للمغادرة وأنا أقول: لقد تمشيت عبر التلة مع ابنة زوجتك.

بدأ السيد سيمغتن لأول وهلة وكأنه لا يعرف من هي ابنة

زوجته، ثم اتسم وقال: أوه، نعم. بالطبع، ميغان. لقد... لقد عادت من مدرستها منذ فترة. إننا نفكر في البحث عن شيء تعله... نعم، تعله. ولكنها ما تزال صغيرة جداً بالطبع. كما أنها متخللة بالنسبة لعمرها، هكذا يقولون. نعم، هكذا أخبروني.

نهضت مغادراً وفي المكتب الخارجي رأيت رجلاً طاعناً في السن يجلس على كرسي ويكتب ببطء وجهه، بالإضافة إلى ولد صغير مبتلى الخدين، وامرأة في أواسط عمرها جعداء الشعر تلبس نظارة، وكانت تطبع على الآلة الكاتبة بسرعة. ولئن كانت هذه هي الأتسة غينش فإني أتفق مع أوبن غريفيت بأن وجود غراميات بينها وبين رئيسها مسألة أبعد ما تكون عن الاحتمال.

ذهبت إلى الحياز وأدليت بالمتعلقة برغيف الزبيب. وقد تلقى الحياز انتقادي بما تقتضيه المناسبة من عبارات الاستهجان وعدم التصديق، ثم دفع إليّ برغيف زبيب جديد بدلاً منه "خرج لثوه من القرن"... وقد أثبتت سخونة الرغيف اللاذعة على صدري صحة كلامه.

خرجت من المحبز ونظرت إلى جانبي الطريق أملاً رؤية جوانا قادمة بالسيارة؛ فقد آتيتني المشي كثيراً، وكان من المربك تماماً المضي في المشي مع تدير أمر العكازين ورغيف الزبيب... ولكن لم يكن من أثر لجوانا بعد. وفجأة تسمرت عيناها دهشة؛ فقد أنتت نهادى على الرصيف باتحاي فتاة كالملاك. لا توجد - حقاً - كلمة أخرى لوصفها: الملامح الكاملة، والشعر الذهبي المتموج، والحجم الطويل المنتاسق! وكانت تمشي الهوينى كالمملوك كأنها

تسبح مقترية مني أكثر وأكثر. فتاة رائعة، مثالقة، تأمر الألياب!

وفي غمرة انفعالي العارم كان لا بد لشيء ما أن يقع، وكان رغيف الزبيب هو الذي وقع؛ فقد انزلق من قبضتي، وانحيت لأخذه فوفعت عصاي التي طفقت على الرصيف، وانزلت أنا وكدت أقع على الأرض. وكانت يد الفتاة القوية هي التي أمسكت بي وثبتتني، وقد بدأت أتلعثم: شـ... شكراً لك كثيراً، إنني آسف جداً.

أحدثت رغيف الزبيب عن الأرض وأعطينته مع العكاز، ثم ابتسمت بلطف وقالت: لا شكر على واجب، على الرحب والسعة. ودلاشي السحر تماماً أمام الصوت الغائر الرسمي؛ فقد انقلبت الصورة الساحرة إلى مجرد فتاة لطيفة مبهوطة القوام، لا أكثر.

بدأت أفكر فيما كان سيحدث لو أن اليد قد منح هيلين طرودة نفس تلك النبرات الباردة. كم هو غريب أن تستطيع فتاة بادرة ووحك من الأعماق ظالمها هي صامتة، وأن يلاشي كل ذلك السحر كأنه لم يكن في اللحظة التي تتكلم بها. ومع ذلك فإنني أعلم أن العكس يحدث أيضاً؛ فقد رأيت امرأة قبيحة المنظر ما كان أحد لينظر إليها مرتين، ثم فتحت فمها تحدثت فإذا بها تندفق حيوية وسحراً فجأة وكأن كليوباترا قد بعثت من جديد.

وصلت جوانا وأوقفت السيارة بجانبني عند الرصيف دون أن ألحظ وصولها. سألتني إن كان في الأمر شيء، فقلت وأنا أتمالك نفسي: لا شيء، كنت أفكر بهيلين طرودة وغيرها.

- ياله من مكان غريب تفكر فيه بذلك! كنت تبدو غريباً جداً

وأنت تقف هنا ممسكاً برغيف الزبيب فاغراً فمك على انسااع.

- لقد تعرضت لصدمة، فقد رُوعت لبرهة في طرودة ثم عدت ثانية. ثم قلت وأنا أشير إلى تلك الفتاة التي كانت تمضي متبعدة: أتعرفين من تكون هذه؟

قالت جوانا وهي تنظر إلى الفتاة إنها مربية أطفال سيمينغتن، ثم سألتني: أهذه هي التي أربكتك على هذا النحو؟ إنها جميلة لكنها فتاة سخيفة.

أعرف. إنها مجرد فتاة لطيفة، وأنا الذي كنت أرى فيها أفروديت.

فتحت جوانا باب السيارة فدخلتها. قالت: ليس هذا غريباً؟ ترى بعض الناس في غاية الجمال، دون أن تكون لديهم أية جاذبية، وهذه الفتاة من هذا النوع. وهو ما يبدو أمراً مؤسفاً.

قلت: إن كانت مربية أطفال فرمما كان ذلك أفضل لها.

* * *

التقشف والزهد بحيث لا ترى للحياة من ضرورات إلا مذبذبا
وحماماً وسريراً وحدرائاً تحيط بذلك كله، فإن السيد باي لم يكن
ليأس من إرشادك إلى خيارات أفضل.

ارتفعت يده الصغيرتان الممثلتان وهو يصف لنا كوزه، وارتفع
صوته وهو يروي لنا الظروف المشيرة التي أحضر فيها سريره الإيطالي
من فيرونا. ولما كنا -أنا وحوانا- من الذين يحبون التحف والأثاث
الأثري فقد تحدثنا معه.

- إنها في الحقيقة متعة... متعة كبيرة... أن ندخل مثل هذه
الممتلكات الثمينة لمجتمعنا الصغير. إن أهالي البلدة الأعزاء هنا ذوو
أذواق فلاحية رعية... كي لا نصفهم بالأجلاف. إنهم لا يعرفون
شيئاً... متخلفون، متخلفون جداً وإذا رأيت -يا سيدي- منازلهم
من الداخل فستبكين إشفافاً عليهم، تؤكد لك أن من شأن منازلهم
أن تبيك. وربما أبكتك بالفعل، أليس كذلك؟

ردت عليه جوانا بأن الأمور لم تصل بها إلى تلك الدرجة.

- لكنك تفهمين ما أعنيه؟ إنهم يخلطون الأشياء بشكل فظيع!
لقد رأيت بأم عيني قطعة أثاث من طراز شيراتون... قطعة دفيقة
كاملة الجمال، من تلك التي يغطيها هواء التحف... وإلى جانبها
طائفة عادية من الطراز القيصري، أو ربما خزانة كتب دوارة من
خشب البلوط المُدخن... نعم، إلى هنا وصلت الأمور... خشب
البلوط المُدخن!

ارتعد للتفكرة... ثم نتم شاكياً: لماذا الناس عبيان هكذا؟

الفصل الثالث

ذهبتا بعد ظهر ذلك اليوم لنشرب الشاي عند السيد باي. كان
السيد باي رجلاً صغير الجسم بديناً يشبه النساء إلى حد كبير، مولعاً
بكراسيه المنحذة وتماثيله الصغيرة ومجموعة تحفاته. وكان يعيش
في البيت المسمى برايور لودج، وهو البيت الذي تقع في أراضيه
أطلال دير الرهبان القديم.

كان برايور لودج بيتاً رائعاً جداً، ونتيجة لعناية السيد باي فقد
كان في أفضل حالاته؛ فكل قطعة أثاث فيه ملمعة وموضوعة في
مكانها المناسب تماماً. وكانت الستائر والفرش فاخرة وحملة
الألوان ومن الحرير الثمين جداً.

لم يكن البيت يكون مسكناً لرجل، وقد خطر لي بأن العيش
فيه يشبه السكن في غرفة أثرية في أحد المتاحف. وكانت متعة
السيد باي الرئيسية في هذه الحياة هي أخذ الناس في جولة حول
بيته، وما كان يفلت من شغفه هذا حتى أولئك الزوار الذين لا
يأبهون أبداً لما حولهم من سكن أو يقة، وحتى لو كنت من

إنك توافقيني... أنا متأكد أنك توافقيني على أن الجمال هو الشيء الوحيد الذي يستحق أن يحيا المرء من أجله.

قالت جوانا وقد وقعت تحت التأثير المغناطيسي لحديثه: نعم، هذا صحيح.

- إذن لماذا يحبط الناس أنفسهم بالقيح؟

قالت جوانا إن ذلك غريب جداً.

- غريب؟ إنه جريمة! هكذا أسميه... جريمة! ويا للأعذار التي يقدمونهن! يقولون إن الشيء الفلائي مريح، أو إنه غريب الشكل. غريب الشكل! يا له من وصف بدائي.

ثم أكمل السيد باي: ذلك البيت الذي استأجرتموه، بيت الأنسة إيميلي باوتن... إنه بيت ساحر، ولديها بعض القطع الجميلة، الحميلة للغاية، وبعضها من الدرجة الأولى. وهي صاحبة ذوق أيضاً... رغم أنني لست وأنا تماماً الآن من ذلك كما كنت في الماضي. أتصور أحياناً بأن ذوقها لا يعلم أن يكون مجرد عواطف ماذجة. إنها تحب إبقاء الأشياء في مكانها، ولكن ليس بسبب دافع جيد... ليس بسبب الانسجام الناتج عن ذلك؛ بل لأن أمها كانت تضعها هكذا.

ثم حول انتباهه نحوي وقد تغير صوته... تغير من صوت الفنان الغارق في فنه، إلى صوت زئير نَمَام بالفطرة.

- أنت لم تعرف العائلة إطلاقاً، أليس كذلك؟ أه... لم تعرفها، نعم. استأجرته من خلال وكلاء البيت. ولكن، أيها العزيزان، كان يجب أن تعرفا تلك العائلة! عندما جئت إلى هذه البلدة كانت

الأم المحزوز على قيد الحياة. كانت امرأة لا تُصدّق... فقلعة تماماً! كانت وحشاً، وحشاً أكيداً. وحشاً من المهذّب الفيكتوري القديم تلتهم صغارها، نعم، إلى هذا الحد وصنّت غرائبها. كانت ذات جسم هائل، ولا ريب أنها كانت تزن أكثر من مئة وعشرين كيلوغراماً، وكانت يديها الخمس يمدن حولها جميعاً. "البئات"... هكذا كانت دائماً تسميهم. البئات! مع أن أكبرهن ممّاً كانت تتجاوز الستين من عمرها في ذلك الوقت. كانت تقول عنهن أحياناً: "هؤلاء البئات الغبيطات". كنّ كالإماء السوداوات يذهبن ويحسّن ويعملن ويحسّسن ويوافقنهن الرأي. وعندما تجبن الساعة العاشرة عليهن الذهاب إلى النوم، ولم تكن تسمح لهن بإشعال نار التدفئة في غرفة نومهن. أما بالنسبة لدعوة صديقاتهن إلى البيت فذلك ما لم يكن ممكناً أبداً! كانت تزدرين بسبب عدم زواجهن، ومع ذلك كانت ترتب لهن حياتهن بشكل يصبح من المستحيل معه أن يلتقين بأحد. وأظن أن إيميلي - أو ربما كانت الأخرى أغتسب - قد أقامت علاقة عاطفية في وقت ما، ولكن والدتها أنهت تلك العلاقة!

قالت جوانا: تبدو قصصهن أشبه بالروايات.

- نعم يا عزيزتي، كانت فعلاً كذلك. ثم ماتت المرأة المحزوز الحقيقية، ولكن الوقت كان قد فات كثيراً وقتها، فقد واصلت حياتهن هناك ومضين في أحاديثهن الخافتة عما كانت أمهن المسكينة مستمناه في كل شأن. بل إنهن شعرن بأن وضع ورق حدران جديد في غرفتها سيكون انتهاكاً لفضيلة ذكراهن. ومع ذلك بقين يستمتعن في المجتمع الصغير هنا بطريقة هادئة، ولكن أيا منهن لم تكن ذات قدرة على الاحتمال. ولذلك توفين واحدة بعد الأخرى... ماتت

إبديت من الأتقلوناء، وميتي أحرت عملية لم تُشفَ منها، والمسكينة مابل أصيبت بالسكتة، وكانت إميلي تقوم على رعايتها والمهر عليها بكل تفان. والحق أن إميلي المسكينة لم تكن تفعل شيئاً خلال السنوات العشر الأخيرة سوى رعاية المريضات من أخواتها. إنها مخلوقة رائعة، أليس كذلك؟ أشبه بقطعة جميلة من الخزف الصيني الرقيق. من المحزن جداً أن تتعرض لمتاعب مالية... ولكن جميع الاستثمارات قد انخفضت قيمتها في البلاد.

قالت جوانا: إننا نشعر بشيء من الحرج لوجودنا في بيتها.

- كلا، كلا يا عزيزتي... يجب ألا تشعرني بمثل ذلك. إن خادماتها فلورنس الطيبة مخلصه لها وقد أعبرتني بنفسها كم هي سعيدة بوجود مستأجرين لطفاء مثلكم.

وهنا اتحتي السيد باي انحناء صغيرة وأضاف: أخبرتني بأن السيدة ترى نفسها محفولة جداً.

قلت: البيت ذو جو مهدي يوحى بالطمأنينة.

نظر السيد باي إليّ نظرة سريفة وقال: حقاً أنتشع بهذا؟ هنا مثير للاهتمام. لقد كنت أتساءل... نعم، كنت أتساءل.

سألته جوانا: ماذا تعني يا سيد باي؟

يسيطر السيد باي يديه الممثلتين وقال: لا شيء... لا شيء. إن المرأة يتساءل، وهذا كل ما في الأمر. إنني أؤمن فعلاً بمسألة الجو العام. إنها أفكار الناس ومشاعرهم، يُسقطونها على الحدود والأثاث.

لم أتكلم لبعض الوقت. كنت أنظر حولي وأتساءل كيف يمكنني وصف جو براير لودج. بدا لي أن الشيء الغريب هو انتشار هذا البيت لأيّ جو خاص به! وكان ذلك أمراً ملفئاً للنظر. فكرت في هذه النقطة طويلاً بحيث لم أسمع شيئاً من الحديث الذي كان دائراً بين جوانا ومضيفها، ومع ذلك فقد تنهيت إلى نفسي عندما سمعت جوانا وهي تنطق بمقدمات الوداع، فخرجت من أحلامي وأدليت بدلوي من عبارات الوداع.

خرجنا إلى الصالة جميعاً. وبينما نحن نلحظ إلى الباب الأمامي جاءت رسالة من خلال فتحة الرسائل في الباب ووقعت على السحادة.

تتمتع السيد باي وهو يرفعها: يريد العصر... لا بد أن تأتي ثانية لزيارتي، أليس كذلك؟ إنه لمن الممتع أن تلقى أناساً ذوي عقول متفتحة. أقصد أناساً يقدرّون الفن. إن الأهالي الطيبين هنا متخلفون عن الآخرين بمقدار خمسين عاماً. يا لإنكلترا من بلد رائع! إن بها جيوباً، ولايستوك واحدة من هذه الجيوب. وهي مثيرة للاهتمام من وجهة نظر جامعي الآثار... أشعر دائماً أنني وضعت نفسي مختاراً في عزلة تامة هنا. إنه المكان الهادئ المنعزل الذي لا يحدث فيه شيء أبداً.

بعد أن صافحتنا للمرة الثانية ساعدني في ركوب السيارة بعناية مبالغ بها، وتولت جوانا القيادة. حركت السيارة بحذر لتستدير متجاوزة منطقة عشبية منحدرّة، فلما تم لها ذلك وأصبح الطريق منبسّطاً أمامنا رفعت يدها لتودع مضيفنا الذي كان واقفاً عند عتبة البيت، ومِلّت أنا إلى الأمام لأفعل الشيء ذاته.

- ولكن من يكتب هذه الأشياء يا جيرى؟

رفعتُ كتفي حيرة وقلت: وكيف لي أن أعرف يا عزيزتي؟
أحسبه أحد محائين القربة أو معترهيهما.

- ولكن لماذا؟ يبدو عملاً أحمق.

- يجب أن تقرري لفرويد وبيونج وأمثالهما حتى تعرفي... أو
اسألني الدكتور أوبن.

هزتُ جوانا رأسها وقالت: الدكتور أوبن لا يحتمي.

- ولكنه لم يكذب يراك.

- يبدو أنه رأى مني ما يكفي لجعله يعبر إلى الطرف الآخر
من الشارع عندما رأي في الشارع العام للبلدة.

قلت متعاطفاً: إنه رد فعل غير طبيعي أبداً، وهو أمر نعتاده.

كانت جوانا تعيش ثمانية: حقيقة يا جيرى، لماذا يكتب الناس
رسائل مقفلة من التوقيع؟

- كما قلت، نتيجة مس من جنون. أظن أن هذا يشيع عند
كاتبها حاجة مجهولة ملحة؛ فالمرء إذا أحس بالاحباط أو بالازدراء
الأخبرين له أو تحالهم إياه وكانت حياته رتيبة وفارغة فأظن أنه
يحصل على إحساس بالقوة عندما يقطع في الظلام أناساً سعداء
يستمتعون بحياتهم.

ارتجفت جوانا وقالت: هذا ليس جميلاً.

لكن ثلويحانا الوداعية ذهبت دون أن يلتفت إليها. كان السيد
باي قد فتح رسالته، وكان يقف محديقاً بالورقة المفتوحة في يده
لفقد وصفته جوانا ذات مرة بأنه أشبه بطفل بريء سمين متورّد
الوجه. وكان ما يزال سميناً في هذه اللحظة، ولكنه لم يعد يبدو
طفلاً متورّد الوجه. كان وجهه محتقناً بلون غامق وقد تلوّث قسماً
من الغضب والمفاجأة.

وفي تلك اللحظة أدركت أنني قد رأيت شيئاً مألوفاً في عطف
الرسالة، ولم أكن قد أدركت ذلك عندما نظرت إليها في حينه...
كان ذلك في الواقع واحداً من تلك الأشياء التي يلحظها المرء
لا شعورياً دون أن يعرف أنه قد لاحظها.

قالت جوانا: يا إلهي، ما الذي أصاب ذلك المسكين المدلل؟

قلت: أتصور أنها اليد الخفية مرة أخرى.

التفتت إليّ ذاهلة فانهرفت بنا السيارة. قلت: احذري يا بنت.

ركزت جوانا انتباهها على الطريق مرة أخرى وقد عبس
وجهها وقالت: أتعني أنها رسالة كاثي تلقيتها؟

- هذا تخميني.

- ما هذا المكان؟ إنه يبدو - في الظاهر - أكثر مناطق الريف
الإنكليزي هدوءاً وبراءة وأماناً...

قاطعتها: ولا يحدث فيه شيء أبداً، إذا ما استشهدنا بكلام السيدة
باي. لقد احتار وقتاً غير مناسب ليقول ذلك، فقد حدث شيء فعلاً

- نعم، ليس جديلاً. أتصور أن كثيراً من الناس في هذه المناطق
الريفية تناج لزواج الأقارب، ولذلك ترين عدداً كبيراً من المعتوهين.
- أحسبه شخصاً غير مثقف أبداً، وعاجزاً عن التعبير عن نفسه،
قلو كان شخصاً متعلماً...

لم تكمل جوانا حملتها ولم أقل أنا شيئاً، فأنا لم أستطيع أبداً
قبول الاعتقاد السهل القائل إن التعليم دواء لجميع العلل.

وعندما كنا نسير في السيارة داخل البلدة قبل أن نصعد طرقت
الثلة، نظرتُ بفضول إلى الأشخاص القليلين الذين كانوا يسرون في
الشارع العام، أيمكن أن تكون واحدة من هؤلاء القرويات القويات
تمشي وتنتقل وقد أخذت وراء مظهرها الهادئ حملاً من الحقد
والضغينة، وتحطط ربما ل طرح المزيد من الأحقاد المدمرة؟

ولكني لم أكن -بعد- قد أخذت الأمر على محمل الجد.

بعد ذلك يومين ذهبتُ إلى تجمع للعب الورق في بيت سيمينغن.
كان ذلك عصر يوم السبت، وكان من عادة عائلة سيمينغن إقامة
تجمعات كهذه أيام السبت لأن مكتبه كان يغلق في ذلك اليوم.

كانت توجد طاولتان، وكان اللاعبون هم سيمينغن وزوجته
وأنا وجوانا والأنسة غريفيث والسيد باي والأنسة بارتن وكولونيل
يدعى أبلتون. لم تلق به من قبل كان يعيش في قرية تدعى كومبيكر
تبعد نحواً من سبعة أميال. كان نموذجاً مثالياً للولاء الأعشى

للمؤسسات الحاكمة، في الستين من عمره تقريباً، وكان يحب لعب
ما يسميه "اللعبة الحريئة"، وهي فرع من لعبة اليريدج العادية، وقد
اهتم بحوانا اهتماماً جعله لا يحول نظره عنها طيلة المساء.

وقد أجبرت على الاعتراف بأن أختي ربما كانت أكثر
الفتيات اللاتي شوهدن في لايمستوك جاذبية منذ فترة طويلة.

عندما وصلنا كانت إبلسي هولاند، مربية الأطفال، تبحث عن
فشات للعب في أدراج مكتب مرعوف، وقد تهافتت في الغرفة وهي
تحملها بنفس تلك الطريقة الملفتة للانتظار التي رأيتها فيها أول مرة،
ولكن بعبادة سحرها لم تعد تعمل. لاحظت الآن بوضوح شديد
أسنانها البيضاء الكبيرة جداً كشواهد القبور، والطريقة التي تظهر بها
لثتها عندما تضحك. كانت -لسوء الحظ- مجرد فتاة ثائرة أخرى!

- أهله هي الفشات التي تردينها يا سيدة سيمينغن؟ كنت
غنية جداً عندما لم أذكر أين وضعناها آخر مرة... إنها غلطتي أنا.
كنت أحملها في يدي ثم صاح برانياً بأن خاطره قد توقفت، فخرجت
مسرعة، وبسبب العديد من الاهتمامات لا بد أنني وضعتها في مكان
ما دون انتباه، إنها ليست الفشات المطلوبة فهي ذات حواف صفراء.
هل أخبر أغنيس بأن نجهز الشاي الساعة الخامسة؟ سأخذ الأطفال
إلى لونغ بارو حتى لا يبقى هنا أي ضجيج.

فتاة لطيفة وذكية. رأيت جوانا تنظر إلي وهي تضحك. نظرتُ
إليها بفتور... كانت جوانا تعرف دائماً ما يحول بخاطري، نبأ لها!
جلسنا للعبة اليريدج، وسرعان ما عرفت على نحو دقيق مهارة
جميع من في لايمستوك في لعب اليريدج. كانت السيدة سيمينغن

لاعبة بريدج ممتازة، وكانت مولعة باللعبة كثيراً، وهي -كغيرها من النساء الكثيرات اللاتي لا ثقافة رفيعة لديهن- ذات ذكاء فطري، فيما كان زوجها لاعباً جيداً ذا منطق سليم، مع ميل قليل إلى الحذر. أما السيد باي فقد كان أفضل ما يوصف به أنه لاعب ذكي. كانت عنده حاسة تمييز غير عادية للمزايدة التي تكون لأغراض نفسية في اللعبة. وبما أن التجمع كان على شرفنا أنا وجوانا، فقد لعبنا على طاولة السيدة سيمنتن والسيد باي. كانت مهمة سيمنتن هي تهديد الأجواء إذا اشتد الخلاف بين اللاعبين واستخدام لياقته في مضالحة اللاعبين الآخرين على طاولته. وكما قلت كان الكولونيل أبلتون مغرماً ببعيته "الحرية". وكانت الأنسة يارتون دون شك أسوأ لاعبة رأيتها ولكنها كانت تستمتع باللعب كثيراً. كانت تعمل على اتباع الآخرين في اللعب ولكنها لم تكن تعرف قوة الأوراق التي بيدها، ولم تكن تعرف أسلوب تسجيل النقاط أبداً، وكانت تلقى -باستمرار- بالأوراق الخاطئة، ولم تكن قادرة على عد الأوراق الراجعة، ونسى كثيراً حقيقة هذه الأوراق. أما لعب إيمي غريفيث فيمكن تلخيصه بكلماتها هي: "أحب لعبة بريدج جيدة دون أي صياح وضجيج... ولا أمارس أياً من تلك الطرق السخيفة في تمرير المعلومات للشريلك، وما أقوله أعنيه. كما لا أحب تلك التحليلات بعد انقضاء اللعبة؛ فهي في نهاية الأمر مجرد لعبة".

وهكذا ترى أن مهمة المضيف ليست سهلة كثيراً. ومع ذلك بدأ اللعب بانسجام تام مع نسيان الكولونيل أبلتون لدوره بين الغينة والأخرى وهو يحدق في جوانا. ثم وُضع الشاي في غرفة الطعام على طاولة كبيرة.

وعندما أوشكنا على النهاية اندفع ولدان صغيران هاتجان إلى الغرفة وقدمًا إلينا، وكانت السيدة سيمنتن بتقسيم متفاجرة وكذلك كان أروها. ثم -وفيما نحن نتأهب للانسحاب- حُجب الضوء عن الصحن أعامي فالتفت برأسي لأجد ميغان واقفة بالباب الزجاجي المفضي إلى الحديقة. قالت أمها: أوه، ها هي ميغان.

كان في صوتها أثر بسيط من الدهشة، وكأنها قد نسبت وجود ميغان. دخلت الفتاة وصافحتنا بطريقة عرقاء ودون أية لباقة نسوية.

قالت السيدة سيمنتن: أعشى أن أكون قد نسيت إحضار الشاي لك يا عزيزتي؟ فقد أخذت الأنسة هولاند والأولاد الشاي الخاص بهم معهم، ولم يعد هناك شاي خاص بالصغار اليوم. نسيت أنك لم تخرجي معهم.

أومأت ميغان برأسها وقالت: لا بأس... سأذهب إلى المطبخ.

خرجت من الغرفة متكاملة. كانت ملابسها غير مرتبة كالعادة، وكان هناك ثوب في كلا جورييها عند الكعبين.

قالت السيدة سيمنتن وهي تضحك ضحكة اعتذارية: يا لميغان المسكينة! إنها في تلك السن الحرجة، سن المراهقة. إذ دائماً ما تكون الفتيات عجولاً مرتبات عندما يتركن المدرسة وقبل أن يتضحن فتوحاً صحيحاً.

رأيت جوانا وهي ترفع رأسها الأشقر إلى الورا بإشارة كنت أعرف أنها هجومية. قالت: ولكن ميغان في العشرين من عمرها، ليس كذلك؟

- أوه، نعم... نعم، إنها في العشرين. ولكنها أصغر كثيراً من عمرها الحقيقي، فهي ما تزال طفلة. أظن أن من الحميل جداً ألا تكبر الفتيات بسرعة؟

ضحكت مرة أخرى وقالت: أحسب أن جميع الأمهات يردن بقاء أطفالهن في سن الرضاعة.

قالت جوانا: لا أرى سبباً لذلك، إذ سيكون محرّجاً بعض الشيء أن يكون للمرء طفل بقي عمره ست سنوات من الناحية العقلية بينما يتم جسده ويكبر.

- أوه، يحب ألا تفهمي الأمور حرفياً يا آنسة بيرتن.

ظهر لي في تلك اللحظة أنني لا أحب السيدة سيمنتن كثيراً. أحسست أن ذلك الجمال الشاحب المتلاشي اللامبالي يخفي وراءه طبيعة أنانية جشعة. قالت لتزيد كراهيتي لها قليلاً: مسكينة ميغان... إنها طفلة صعبة بعض الشيء. كنت أبحث لها عن شيء تعمله... أظن أن المرء يمكن أن يتعلم أشياء بالمراسلة، كالتصميم وتفصيل الملابس... أو ربما حاولت تعلم الطبخة والاختزال.

كان الوميض الأحمر باقياً في عين جوانا. قالت بعد أن جلسنا حول طاولة البريدج مرة أخرى: أظن أنها بلغت سنّاً تؤهلها للمشاركة في النشاطات الاجتماعية. ألا تفكرين بإقامة حفلة على شرفها بهذه المناسبة؟

بدت السيدة سيمنتن متفاجئة مسرورة وقالت: حفلة؟ أوه، كلا. إننا لا نفعل أشياء كهذه هنا.

- فهمت... لا تقيمون إلا مباريات تنس وأشياء كهذه.

- لم يلعب أحد في ملعب التنس هنا منذ سنوات، فلا ريشارد ولا أنا نلعب. أظن أنه عندما يكبر أولادي مستقبلاً... أوه، ستجد ميغان الكثير مما يمكن أن تفعله. إنها سعيدة تماماً بالتسكع في المنطقة. هل وزعت الورق؟

عندما كنا عائدتين بالسيارة إلى البيت فالت جوانا وهي تضغط على دواسة البنزين بقوة مما ضاعف سرعة السيارة: إنني أشعر بالأسف الشديد على تلك الفتاة.

- ميغان؟

- نعم، فأما لا تحبها.

- أوه، لا تبالغين يا جوانا... الأمر ليس بهذا السوء.

- بل هو كذلك. كثير من الأمهات لا يحبن أطفالهن، وبخيل لي أن وجود ميغان في البيت مسألة فظيعة مريكة بسبب طبيعتها الموحجة. إنها تترك النمط السائد... تعطى عائلة سيمنتن. العائلة بلونها وحدة متكاملة... وهو من أشد المشاعر بؤساً بالنسبة لأية مخلوقة حساسة... وهي حساسة بالفعل.

- نعم، أظنها حساسة.

صمت لبعض الوقت. وفجأة ضحكت جوانا ضحكة مناكفة وقالت: ولكن حظك سيء بالنسبة لمرئية الأطفال.

قلت لها: لا أعرف ماذا تعنين.

- هراء. كان الحقن الذكورى يبدو على وجهك كلما نظرت إليها. إنني متفقة معك... حرام أن يضع جماليها بهذا الشكل!

- لا أعرف عمّ نتحدثين.

- لكني مع ذلك مسرورة. إنها أول إشارة على استعادة الحياة من جديد. كنت قلقة عليك في المصحة؛ فانت لم تكن تنظر إلى الممرضة الجميلة جداً التي كانت تقوم على رعايتك، رغم أنها كانت فتاة جذابة تماماً.

- إنني أجد حديثك سوقياً تماماً يا جوانا!

أكملت شقيقتي حديثها دون أدنى التفات لملاحظاتني: ولذلك ارتحت كثيراً عندما رأيت أنك ما تزال تتحدث إلى فتاة جميلة. إنها جميلة المظهر، ومن الغريب ألا تكون لديها جاذبية أيداً. هذا غريب يا حيري! ما هو ذلك الشيء الذي تملكه بعض النساء ولا تملكه غيرهن؟ ما الذي يوجد عند امرأة معينة حتى إذا ما قالت عبارة عادية مثل: "الجز لطيف" رأيت الرجال يهرعون إليها للحديث معها حول الطقس؟ هكذا الخلق أحياناً. ترى واحدة لها جسم ووجه أفروديت، ولكنها باردة ليس فيها أية حاذية، وترى الحاذية والسحر يذهبان أحياناً إلى وجه ليس فيه من الحسن الكثير. وعندها يُحن جنون كل النساء الأخريات ويقولن: لا نعرف ما الذي يراه الرجال فيها... إنها غير جميلة على الإطلاق!

- هل انتهيت تماماً يا جوانا؟

- أنت توافقني الرأي، أليس كذلك؟

ابتسمت وقالت: أعترف بشيء من حبيبة الأمل.

- ولا أرى هنا واحدة غيرها لك... سوف تضطر للحوء إلى إيمي غريفيث!

- لا سمح الله.

- يبدو أنها تستمتع بحياتها تماماً. إنها حيوية ودودة قوية إلى حد يكاد يُقرب، أليس كذلك؟ لن أندش إطلاقاً إن علمت أنها تأخذ حماماً بارداً كل صباح.

سألتها: وماذا ستفعلن أنت بنفسك؟

قالت جوانا بأسلوب غير متقن: لن أستطيع أن أنسى بول!

- لن أنساه أنا بأسرع مما تنسينه أنت... سوف تقولين بعد عشرة أيام: بول؟ من بول هذا؟ لم أعرف شخصاً يدعى بول أبداً.

- أنت تحسني منقبلة جداً.

- يسعدني كثيراً أن تكوني كذلك عندما تعلق الأمر بأشخاص مثل بول.

- إنك لم تحبه أبداً... ولكنه كان فعلاً عبقرياً بعض الشيء.

- ربما، مع أنني أشك في ذلك. وعلى كل حال، فمن كل ما سمعته، يُقال إن العاقرة أناس ينبغي أن يكرههم المرء كراهية عميقة. ينبغي أن أقول إنك لن تجدي أي عبقري هنا.

فكرت جوانا بعض الوقت ورأسها يميل إلى أحد الجانبين، ثم

قالت بأسى: نعم، هذا ما أخشاه.

- على أية حال، فإن أوبن غريفث هو الرجل الأعزب الوحيد في القرية الذي يمكن أن تفكري به، باستثناء الكولونيل أبلتون العجوز الذي كان ينظر إليك كالكلب الجائع طيلة المساء.

ضحكت جوانا وقالت: كان يديم النظر، أليس كذلك؟ كان ذلك محرراً تماماً.

- لا تتظاهري بذلك؛ فأنت لا تُحرجين أهداً.

مضت جوانا بالسيارة عبر البوابة بصمت. ثم قالت: قد يكون في فكرتك تلك بعض الصحة.

- أية فكرة؟

- لا أفهم سبباً يجعل أي رجل يقطع الشارع عامداً كي يتحسني. هذا تصرف وقح بعيداً عن أي اعتبار آخر.

- فهمت... تريدان صيد الرجل يدم يارد.

- لا أحب أن يتحسني أحد.

خرجت من السيارة ببطء وحذر ووازنت عكازي، ثم قدمت لشقيقتي نصيحة: دعيني أخبرك بهذا يا فتاتي... ليس أوبن غريفث واحداً من أصحابك الغنائين المنتحبين الخائعين، وما لم تحذري فسوف تتبرين عشراً للزناهير قرب أذنك. يمكن لذلك الرجل أن يكون خطراً.

سالت جوانا وفي صوتها كل أثر للاستمتاع بهذا الاحتمال: أوه،

أعتقد ذلك؟

قلت بإصرار: اتركي الرجل المسكين وحده.

- كيف يجرؤ على قطع الشارع وهو يراني قادمة؟

- أتنن - معشر النساء - متشابهات؛ إنكن تضربن على وتر واحد. متحدين أخيه إليمي تلاحقك إن لم أكن مخطئاً.

- إنها - أصلاً - تكرهني.

تكلمت بشيء من التأمل، ولكن بفناعة تامة. قلت جازماً: لقد جئنا إلى هذا المكان للهدوء والراحة، واعتزم الحصول عليهما.

لكن الهدوء والراحة كانا آخر ما قلر لنا أن نحصل عليه!

* * *

بالعبث بعواطف بياتريس، ولعنت -فني سري- تلك الأعمال
الخييطة لكتاب الرسائل المحجولة، في نفس الوقت الذي طلبت فيه
من بارتريدج إحضار والدته بياتريس لرؤيتي.

كانت السيدة بيكر امرأة ضخمة، عريضة المنكيس، مسفوعة
الوجه، سريعة في كلامها. وقد شعرت بالارتياح عندما لم ألحظ أيأ
من علامات الغضب أو الانتهام عليها.

قالت وقد بدأت حديثها فوراً بعدما أغلقت بارتريدج الباب
وراعها: أرجو يا سيدي أن تعذرنني إذ سمحت لنفسي أن آتي بهذه
طريقة لرؤيتك، ولكني رأيت أنك ربما تكون الشخص المناسب
الذي ينبغي أن آتي إليه، وسأكون شاكراً لك لو رأيت طريقة
لإرشادي لما ينبغي عليّ عمله في مثل هذه الظروف، لأنني أرى أن
من الواجب عمل شيء، لكنني لم أكن أبداً من النوع الذي يعمى
ويتألم على القدي، فأنا لا أرى فائدة في التواضع بل المطلوب هو
التواضع والمساعدة للفعل كما سمحت في إحدى الخطب.

شعرت ببعض الحيرة وكأنني أضعت شيئاً أساسياً في الحديث،
ولذلك قلت: بالتأكيد... ألا... ألا تجلسين يا سيدة بيكر؟ سأكون
مسروراً بالتأكيد إن استطعت... مساعدتك بأية طريقة ممكنة.

سكتُ على أمل أن نتحدث، فجلستُ على حافة الكرسي
وقالت: أشكرك يا سيدي، هذا جميل منك... وأنا مسرورة لأنني
جئت إليك. وقد قلت لبياتريس وهي تبكي وتنتحب في سريرها إن
السيد بيرتن سيعرف ما ينبغي فعله وهو القادم من لندن. ويجب أن
تعمل شيئاً، فهؤلاء الشباب منهورون سريعو الغضب لا يستمعون

الفصل الرابع

بعد أسبوع واحد -فيما أذكر- أبلغتني بارتريدج بأن السيدة
بيكر تود التحدث معي لبعض الوقت.
لم يعن لي اسم السيدة بيكر أي شيء على الإطلاق، ولذلك
قلت متحيراً: من هي السيدة بيكر؟ ألا يمكنها رؤية الأتسة جوانا؟

ولكن بدا أنني أنا الشخص الذي كانت ترغب الحديث معه،
كما تبين أن السيدة بيكر هي والدته الثاء بياتريس. وكنت قد كنت
بياتريس، وآخر عهد لي بها قبل أسبوعين، فلم ألحظ غيابها إلا حين
انتهت لامرأة في وسط العمر لحق الشيب ببعض خصصات شعرها
وهي تنحني على ركبتيها تمسح أرضية الحمام والدرج والممرات،
وأفنتي عرفت وقتها أنها خادمتنا الجديدة التي نعمل في النهار.
وفيما عدا ذلك كان أمر بياتريس قد تلاشى تماماً من ذهني.

لم أستطع التعرف من رؤية والدته بياتريس، خاصة وقد عرفت
أن جوانا كانت خارج البيت، ولكن يجب أن أعترف بأنني كنت
عصبي المزاج قليلاً من هذه المقابلة. كنت أرجو مخلصاً ألا تتهمني

إلى لغة العقل ولا إلى كلمة واحدة مما نقوله الفتاة، وعلى أية حال فقد قلت لبياتريس أنني لو كنت مكانها لرددت له الصاع صاعين، إذ ماذا عن تلك الفتاة الموجودة في الطاحونة هناك؟

أحسست بالحيرة أكثر فأكثر، وقلت: إتني أسف، فأنا لا أفهمك تماماً. ما الذي حدث؟

- إنها الرسائل يا سيدي. رسائل شريرة... وبذينة جداً أيضاً، تستخدم كلمات أسوأ من أي شيء قرأته في حياتي.

تغاضيت عن تلك الحملة الاعترافية المنيرة وقلت: يا لاساً! هل نقلت أبنتك مزبداً من الرسائل؟

- ليس هي يا سيدي. لقد نقلت رسالة واحدة فقط، وهي التي جعلتها تترك العمل عندهم.

بدأت القول: "لسم يكن هناك على الإطلاق أي سبب..."، ولكن السيدة بيكر قاطعتني بقوة: لا حاجة لأن تخبرني يا سيدي أن ما ورد في الرسالة كان محض افتراء شرير. تكفيني شهادة الأنسة بارتريدج بهذا الشأن... وقد كان من شأني أن أعرف ذلك بنفسي أصلاً؛ فأنت لست من ذلك النوع من الرجال، هذا ما أعرفه جيداً، كما أنك مُعَد. كانت الافتراءات كاذبة، ولكن منع ذلك فقد قلت لبياتريس إن من الأفضل لها أن تترك العمل لأنك تعرف الإشاعات يا سيدي، فالتاس يقولون: "لا دخان بلا نار"، كما أن الفتاة شعرت بالخل مما كان مكتوباً في الرسالة، ولذلك قلت لبياتريس عندما قالت إنها لن تأتي إلى هنا ثانية: "عيس الصواب". رغم أننا شعرنا بالأسف على ما سببه ذلك من إرباك جعلكم...

سحبت السيدة بيكر نفساً عميقاً وقد عجزت عن إكمال هذه الحملة، ثم أكملت: وكنت أرجو أن يضع ذلك حداً للإشاعات المغرضة. ولكن جورج، الذي يعمل في المرأب والذي نخرج بياتريس معه، تلقى واحدة من هذه الرسائل. وهي تقول أشياء فيبيحة عن ابنتنا بياتريس، وكيف أنها على علاقة مع توم إيسن فريديديتر... وأؤكد لك يا سيدي أن تصرف الفتاة لم يخرج عن دائرة التهذيب أبداً.

أخذ رأسي الآن يدور مع ظهور التعقيد الجديد لتوم ليدبيتر هذا، فقلت: دعيني أفهم الأمر بشكل صحيح، فقد تلقى صديق بياتريس رسالة مُغللة التوقيع تنهجهما بعلاقة مع شاب آخر، أليس كذلك؟

- هذا صحيح يا سيدي... ولم تكن الرسالة محتشمة، فقد استخدمت كلمات بذينة، مما جعل جورج يستنبط غضباً كالمجنون، وجاء ليخبر بياتريس بأنه لن يحتمل هذا العمل منها وأنه لن يسمح لها بأن تخرج مع رجال غيره من وراء ظهره... وقد أخبرته بأن ذلك كذب كله، فقال لها: "لا دخان بلا نار"، وخرج من البيت كالمنصور، وظهر الحزن على بياتريس المسكين. ثم قلت لها إتني سألِس قبعني وآتي إليك مباشرة يا سيدي.

سكنت السيدة بيكر ونظرت إلي متوقعة مني الرد كالكلب ينتظر جائزة بعد أداء حركة ذكية. سألتها: ولكن لماذا جئت إلي بالتعديد؟

- لقد فهمت يا سيدي أنك تلقيت واحدة من هذه الرسائل الشريرة، وقد فكرت أنك تعرف -وأنت القادم من لندن- ما الذي

يتغير عمله حيال هذا الأمر.

- لو كنت مكانك لذهبت إلى الشرطة؛ إذ يجب وضع حدٍ لمثل هذا الأمر.

بدت السيدة بيكر مضطربة تماماً وقالت: أوه، كلا يا سيدي، لا يمكنني الذهاب إلى الشرطة.

- ولم لا؟

- لم يسبق لي التورط مع الشرطة أبداً يا سيدي... ولم يتورط أحد منا مع الشرطة أبداً.

- صحيح، ولكن الشرطة هم وحدهم الذين يمكنهم التعامل مع مثل هذا الأمر، فهذا عملهم.

- أأذهب إلى بيرت راندل؟

كانت أعرف أن بيرت راندل هو الشرطي. قلت: لا بد أن هناك رقيباً أو مفتشاً في مركز الشرطة.

- أنا أذهب إلى مركز الشرطة؟

كانت نبهة التأنيب والذهشة فاعارة في صوت السيدة بيكر، وبدأت أشعر بالضيق فقلت: هذا كل ما يمكنني تقديمه من نصيحة.

سكت السيدة بيكر وبدا واضحاً أنها لم تكن مقتنعة. قالت بحزن وحذية: يجب وقف هذه الرسائل يا سيدي، يجب وقفها فعلاً. سيحدث منها أذى عاجلاً أم آجلاً؟

- يبدو لي أن الأذى قد وقع بالفعل.

- لقد قصدتُ العصف يا سيدي. هؤلاء الشباب الصغار يتفعلون بعنف... وكذلك الكبار.

- وهل تصل كثير من هذه الرسائل إلى الناس؟

أومات السيدة بيكر برأسها: الأمر يزداد سوءاً يوماً بعد يوم يا سيدي. السيد بيدل وزوجته في فندق بلو بور كانوا سعيدين دائماً... والآن جعلته هذه الرسائل يفكر بأشياء... أشياء غير صحيحة.

ملت إلى الأمام وقلت: سيدة بيكر، هل لديك أية فكرة، أية فكرة مهما كانت، عنّ يكب هذه الرسائل المغيبة؟

ولشدة دهشتي أومات برأسها بالإيجاب وقالت: لدينا فكرة معينة عن ذلك يا سيدي. نعم، لدينا جميعاً فكرة واضحة عن ذلك.

- من هو؟

غلب لي أنها قد تردده في ذكر اسم معين، ولكنها ردت عليّ الغور: إنها السيدة كليت... هذا ما تعتقده جميعاً يا سيدي. إنها السيدة كليت بالتأكيد.

لقد سمعت كثيراً من الأسماء هذا الصباح ممّا جعلني شديد الحيرة. سألتها: من هي السيدة كليت؟

واكتشفت أن السيدة كليت هي زوجة بستاني كهل وكانت تعيش في بيت على الطريق المؤدي إلى الطاحونة. ثم تلقيت أجوبة غير مرضية عن أسئلتني الأخرى، عندما سألت السيدة بيكر عن

السبب الذي يدعو السيدة كليث لكتابة هذه الرسائل قالت بغموض
إن "من شأن هذا أن ينسجم مع شخصيتها".

وفي نهاية الأمر تركتها تذهب، مكرراً مرة أخرى نصيحتي لها
بأن تذهب إلى الشرطة، وهي نصيحة عرفت أن السيدة يكره
تأخذ بها. وقد تركتني وأنا أشعر بأنني قد خيبت أمليها.

قلبت تفكيري فيما قائلته لي. ورغم غموض ما ساقته من دليل،
إلا أنني قررت أن الأمر قد يكون صحيحاً إن كان جميع أهل القرية
يرون أن السيدة كليث هي المتهمّة. قررت الذهاب واستشارة
غريفيث بخصوص الأمر كله. إذ أن من شأنه - كما يفترض - أن
يعرف السيدة كليث هذه، وإذا رأى أن من المصواب الذهاب إلى
الشرطة فيمكن أن أعمد أنا أو هو إلى الإيحاء للشرطة بأنها هي التي
تقف وراء هذا العمل المزعج.

وقدّ ساعة وصولي في تلك اللحظة التي تصورت أن غريفيث
سيكون قد أنهى فيها عمله في عيادته، وعندما غادر العيادة أصر
مريض دخلت إليه. قال: مرحباً، هذا أنت يا بيرترن؟

شرحت له باختصار حديثي مع السيدة بيكر وأخبرت بالالتزام
القاتل إن السيدة كليث هي المسؤولة، ولخيبة أمني فقد هز غريفيث
رأسه بالنفي وقال: ليس الأمر بهذه البساطة.

- ألا تظن أن السيدة كليث هذه هي التي تقف وراء هذا الأمر؟
- ربما، ولكن هذا أبعد ما يكون عن الاحتمال فيما أظن.

- إذن لماذا يظنون جميعاً بأنها هي؟

اتسم وقال: أوه، أنت لا تعرف.. السيدة كليث هي الساحرة
المحلية هنا.

صحت: يا إلهي!

- نعم، يبدو الأمر غريباً هذه الأيام، ومع ذلك فهذا هو الوضع.
إن شعوراً يبقى في أذهان الناس بأنه من غير الحكمة تحدي بعض
الناس أو العائلات أو الإساءة إليهم. والسيدة كليث قد تحذرت من
عائلة من "النساء الحكيمات"، وأحسب أنها قد بذلت جهداً كبيراً
لتطوير هذه الخرافة وتشجيع هذا الاعتقاد. إنها امرأة غريبة الأطوار
تتمتع بروح نكتة مريرة لاذعة، وقد كان من السهل كثيراً عليها - إذا
ما جرح طفل أصبعه أو وقع وقعة عنيفة أو أصيب بالكاف - أن تومئ
برأسها وتقول: "نعم، لقد سرق نقاحاتي الأسبوع الماضي"، أو "شدّ
فظني من ذيليها". وسرعان ما تأخذ النساء أطفالهن بعيداً، وتحضر
أخريات الغسل أو الكعك للسيدة كليث حتى يتحسّن شرها وحتى
لا "تدعو عليهن". إنه اعتقاد خرافي سخيف، ولكنه يحدث...
ولذلك فمن الطبيعي أن يعتقدن الآن أنها تقف وراء هذا الأمر.

- ولكن هل هي فعلاً وراءه؟

- أوه، كلا. ليست من هذا النوع... ليس الأمر بهذه البساطة.

نظرت إليه نظرة فضولية وقلت: هل لديك أية فكرة معينة؟

هز رأسه بالنفي، ولكن عينيه كانتا شاردتين وهو يقول: لا، لا
أعرف شيئاً. ولكنني غير مرتاح لهذا الأمر... سينتج عن ذلك أذى.

* * *

عندما عدت إلى البيت وجدت ميغان جالسة على الدرج المؤدي إلى الشرفة وقد أسندت ذقنها على ركبتيها. حينئذ يطرقها التي تنقر للحفاوة وقالت: مرحباً. هل تظن أن بإمكانني القدوم لتناول الغداء؟

قلت: بالتأكيد.

صاحت ميغان وهي تنطلق لإختيار بارترديج بوجود ثلاثة أشخاص على الغداء: إن كان الطعام شرائح لحم أو شيئاً عسيراً كهذا، أو كان الطعام لا يكفي فأخبرني.

بخيل إلي أن بارترديج قد استطاعت -دون أن تبس بكلمة واحدة- أن تظهر استخفافها بميغان حين أخبرتها بالأمر. وحين عدت إلى الشرفة سألتني ميغان بلهفة: هل الأمر على ما يرام؟

- نعم، تفضلني بالجلوس.

قدمت الكرسي لميغان فقالت: هذا لطف منك.

- ألن تجلسي؟

- كلا، لا أظن ذلك، ولكن جميل منك أن تدعوني... تماماً كما لو كنت شخصاً حقيقياً.

قلت ضاحكاً: أليس شخصاً حقيقياً؟

هزت ميغان رأسها بالنفي، ثم مدت لي ساقها الطويلة المغبرة وقالت مقتخرة بهدف تغيير الموضوع: لقد رنقت جواربي.

لست خبيراً في رنق الجوارب، ولكن ظهر لي أن الخيوط الصوفية المتعاكسة دون إنقار لم تكن تدل على نجاح أكيد.

قالت ميغان: ولكن حاله هكذا مزعج أكثر من وجود الثقوب. وافقتها قائلاً: يبدو وكأن ذلك ممكن.

- هل ترنق أحتك بشكل جيد؟

حاولت أن أتذكر إن كنت قد لاحظت أباً من إنجازات جوانا في هذا المجال، ولكنني اضطررت أخيراً للاعتراف قائلاً: لا أعرف.

- ماذا تفعل عندما تجد ثقباً في جوربها؟

قلت بتردد: أظن أنها ترميه وتشتري زوجاً آخر.

- هذا عين العقل، ولكني لا أستطيع فعل ذلك. إنني ألتقي رانياً الآن... أربعين جنيه في السنة. لا يمكنك شراء الكثير بهذا المبلغ.

وافقتها على ذلك، فقالت بأسى: لو كنت أليس جوارب سوداء لأمكن أن أضع خيراً على ساقَي مكان الثقوب... هذا ما كنت أفعله دائماً في المدرسة. كانت الأنسة باتويني هي المعلمة التي تشرف على تعليمنا رنق الثياب، ولكنها كانت أكثر عني من الخفاش. كان ذلك الموضوع مفيداً جداً لنا.

- لا بد أنه كان كذلك.

ثم ساد الصمت بيننا وأنا أدهن غليوني... وكان صمتاً أنيساً، وفجأة قطعت ميغان الصمت قائلة بعنف: أظنك ترائني فطيرة كما

يفعل الجميع؟

قلتُ إلى جدي جعل غليونني يسقط من قمبي. كان غليوناً جميل الألوان مصنوعاً من مادة الميرشوم التي تشبه الزجاج، وقد انكسر. قلت لميغان غاضباً: انظري إلى ما فعلت.

وكطفل يصعب التنبؤ برود أفعاله، لم تنزعج؟ بل ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت: أنت -فعلاً- تعجيني.

كانت ملاحظة دافئة جداً. إنها الملاحظة التي يُحيل للمرء أن كله يمكن أن يقولها لو أمكنه الكلام... وبدأ لي أن ميغان ذات مزاج يشبه أمزجة الكلاب بدلاً من أن يشبه أمزجة البشر! سألتها وأنا أجمع بحذر شظايا غليونني المكسور: ما الذي فعله قبل هذه المأساة؟

- قلت إنني أظنك ترائي بغيبة.

قالت تلك الجملة، ولكنها لم تقلها بنفس النبرة التي قالتها بها من قبل على الإطلاق.

- ولماذا أراك كذلك؟

قالت ميغان يتحهم: لأنني كذلك.

قلت محتداً: لا تكوني غبية.

هزت ميغان رأسها قائلة: هذه هي النقطة تماماً... فأنا لست غبية فعلاً، ولكن الناس يظنونني كذلك. إنهم لا يعرفون أنني -في داخلي- أعرف حقيقتهم، وأني أكرههم طيلة الوقت.

- تكرهينهم؟

- نعم.

حدثتُ إليّ بعينين كئيبين غير طفوليتين لم تطرفا. كانت نظيرة طفولة حزينة، ثم قلت: لو كنت مثلي لكرهت الناس... إن كانوا لا يريدونك.

- ألا تعتقدين أنك سوداوية النظرة؟

- نعم. هذا ما يقوله لك الناس دائماً عندما تقبل الحقيقة... وهي حقيقة. إذ أن أحداً لا يريدني، وأنا أعرف السبب تماماً. أمي لا تحبني البتة. أحسب أنني أذكرها بالوالدي الذي كان يقسو عليها وكان مرعياً جداً حسيماً كنت أسمع. ولكن الأمهات لا يمكنهن التصريح بأنهن لا يردن أولادهن، ولا يستعلن طردهن من البيت أو أكلفهم! القطط تأكل ما لا تحب من أولادها الصغار، وأحسب أن تلك طريقة عقلانية جداً... فلا حاجة لتبديد العواطف وإنساعة المشاكلي! أما الأمهات من البشر فهن مضطرات للمحافظة على أطفالهن والاعتناء بهم. لم يكن الأمر على هذه الدرجة من السوء عندما كان بالإمكان إرسالها بعيداً إلى المدرسة... ولكن ما ترغب به أمي حقاً هو أن تكون بمفردها مع زوجها والولدين.

قلت ببطء: ما زلت أرى أنك سوداوية النظرة يا ميغان، ولكن -على فرض صحة بعض ما تقولينه- فلماذا لا تتركين هذه العائلة وتعيشين حياة مستقلة؟

ابتسمت لي ابتسامة غير طفولية وقالت: تقصد أن أحد عملاً، وأكسب رزقي؟

- نعم.

- لماذا أعمل؟

- يمكن أن تتدربي على عمل معين، طباعة واختزال... مسك الدفاتر.

- لا أعتقد أن باستطاعتي ذلك، إنني غبية فسي عمل الأشياء، وفوق ذلك...

- ماذا؟

كانت قد أشاحت بوجهها بعيداً ولكنها أعادته الآن ببطء وقد غدا قرمزيًا وزفت من عينيها الدموع، ثم تكلمت بصوت مغمم بصيرات الطفولة: لماذا أرحل؟ أو يحملونني على الرحيل؟ إنهم لا يريدونني، لكنني سأبقى. سأبقى وأجعل الجميع نادمين... سأجعلهم يأسفون جميعاً. خنازير كريهة! إنني أكره الجميع هنا فسي لا يستوك. إنهم جميعاً يريدونني غبية وفيحبة. سأريهم... سأريهم... سأريهم...

كان غضباً طقوليًا مشيراً للشفقة إلى حد غريب. وسمعت وقع أقدام على الحضي عند زاوية البيت، فقلت بقسوة: انهضي، ادخلي البيت من خلال غرفة الاستقبال. اصعدي إلى الطابق الأول حيث الحمام في نهاية الممر، واغسلي وجهك بسرعة.

قفزت واقفة بطريقة خرقاء ودخلت من الباب الزجاجي لغرفة الاستقبال فيما جاءت جوانا من وراء زاوية البيت قائلة: أوه، إنني أشعر بالحرارة. أتعلم يا جيري، كان علينا إحضار كلب معنا؟

- هذا ما أراه أيضاً، على فكرة، ستنناول ميغان الغداء معنا.

- أحقاً؟ جيد.

- أنحينها؟

- أحسب أنها من أولئك الأطفال الذين تستبدلهم الحيتيات. أنت تعرف تلك الحرافة التي تقول إن الحيتيات كنّ يضعن طفلاً على عتبة الباب ويأخذن الطفل الحقيقي بعيداً. من المثير جداً الالتقاء بطفل مُستبدل. أوف... يجب أن أصعد وأغسل.

- لا تستطيعين ذلك الآن، فميغان تغسل.

- أوه، هل خاضت في الوحل مرة أخرى؟

أخرجت جوانا المرأة ونظرت إلى وجهها بجدية لفترة طويلة وقالت: لا أحب أحمر الشفاه هذا.

خرجت ميغان من الباب الزجاجي هادئة ونظيفة نوعاً ما، ولم تظهر أي أثر للعاصفة التي مسبقت ذلك بقليل. نظرت إلى جوانا بارتياح، فقالت جوانا وهي ما تزال مشغولة بالنظر إلى وجهها: مرحباً، إنني مسرورة لمحييتك للغداء. يا إلهي، توجد حية نمش على أنفسي. لا بد أن أفعل شيئاً؛ فالنمش خطير جداً، وهو صفة اسكتلندية.

جاءت يارتريدج وقالت يبرود إن الغداء جاهز، فنهضت جوانا قائلة: هيا، إنني أنضور جوعاً.

أدخلت ذراعها تحت ذراع ميغان ودخلنا البيت معاً.

* * *

هزلية لتساء يحشرون أنوفهم في كل مكان ويتفوهن بالتفاهات.
وربما لا يكون في الدنيا وجود لمثل هذا النمط.

لم تحشر السيدة كالثروب أنفها في أي مكان أبداً، ومع ذلك كانت لها قوة غامضة غريبة في معرفة الأمور، وسرعان ما اكتشفت أن جميع أهل القرية تقريباً يحشونها. لم تكن تقدم أية نصيحة ولا تتدخل في شيء أبداً، ومع ذلك كانت تعمل -لأي ضمير خائف- صورة القاضي الحازم والسيف المسلط.

الفصل الخامس

أرى أن في قصتي نقصاً واحداً، فحتى الآن لم أذكر السيدة كالثروب أو زوجها الكاهن كاليب كالثروب.

كان الكاهن وزوجه شخصيتين متميزتين. كان كاليب كالثروب نفسه بعيداً عن الحياة اليومية أكثر من أي شخص التقيت به؛ حيث استغرقه العيش بين كتبه منقّباً في التاريخ القديم حتى صار على دراية واسعة في هذا الموضوع. أما زوجته فكانت موجودة دائماً في كل مكان، وربما كنت قد نعددت تأجيل ذكرها لأنني كنت منذ البداية خائفاً منها قليلاً. كانت امرأة ذات شخصية متميزة ومعرفة واسعة، لم تكن إطلاقاً من النوع التقليدي لزوجات الكهنة... ولكنني أسأل نفسي وأنا أسجل ذلك: ما أدراني أنا بزوجات الكهنة؟ فزوجة الكاهن الوحيدة التي أتذكرها جيداً كانت امرأة هادئة ليس لها ما يميزها، مخلصه لزوج قوي ضخم ذي أسلوب ساحر في مواعظه، لم تكن تشارك في الأحاديث العامة إلا نادراً بحيث يحار المرء في كيفية المضي في حديث معها. وفيما عدا ذلك كنت أعتمد على الصورة التي كانت القصص ترسمها لزوجات الكهنة، وهي صورة

لم أر امرأة أكثر منها لامبالاة بالعالم المادي حولها. كانت في الأيام الحارة تمشي في القرية وهي تلبس تنورة من الصوف الأخضر، وفي وقت المطر أو حتى الجليد كنت أراها تمشي في طرقات القرية شاردة الذهن وهي تلبس فستاناً من القطن أو القماش العادي. كانت ذات وجه طويل رفيع يوحى بكرم المحند، وفي كلامها إخلاص وصدق رهيب.

أوقفتني في الشارع العام بعد يوم من تناول مبخان الغداء معنا. وقد تملكني إحساسي المتعبد بالتهنية؛ لأن سيرها كان أشبه بالهرولة منه بالمشي، وكانت عينها متركزت دائماً على الأفق البعيد مما يجعل المرء يشعر بأن هدفها الحقيقي يقع على بعد ميل ونصف تقريباً. قالت: أوه، سيد بيرن!

قالتها بشيء من نشوة النصر كمن حل لغزاً معيماً.

اعترفت لها بأنني السيد بيرن فتوقفت عن تركيز نظرها على الأفق البعيد وبدأت كأنها تحاول تركيز نظرها عليّ بدلاً منه. قالت: ما الذي كنت أريد رؤيتك من أجله؟

لم يكن يوسعي مساعدتها في هذا الأمر. وقلت عابسة ومتحيرة كثيراً، ثم قالت: كان شيئاً بغيضاً.

قلت وقد جفلت: إنني أسف لهذا.

صاحت: أوه، تذكرت؛ الرسائل مجهولة المصدر! ما هذه القصة التي أحضرتها معك عن الرسائل المغلفة من التوقيع؟

- أنا لم أحضرها معي، فقد كانت موجودة هنا من قبل؟

قالت بنبرة اتهام: ومع ذلك لم يثلُق أحد أية رسالة منها إلى أن جئت إلى هنا.

- لكنهم تلقوا رسائل منها يا سيادة كالثروب. كانت المشكلة قد بدأت من قبل.

- يا إلهي، لا أحب هذا.

وقفت تنظر بعينين شاردتين ثم قالت: لا أستطيع تمالك الإحساس بأن هذا كله غير طبيعي. نحن لسنا على هذه الشاكلة هنا. يوجد - بالطبع - حسد ومكر ومناكفة وغير ذلك من الخطايا الصغيرة هذه... ولكنني ما كنتُ أظن أن أحداً يمكن أن يفعل هذا... كلا، لم أحسب ذلك حقاً. وهو أمر بخرنبي، فأنا بحسب أن أعرف.

عادت عيناها الدقيقتان من الأفق البعيد والنفت بعيني. كانتا عيين غلفتين وكان حيرة الأطفال الصادقة بادية فيهما. قلت لها: وكيف لك أن تعرفي؟

- أنا أعرف في العادة، لقد أحسست دائماً أن هذه هي وظيفتي. أن كاليب يعطي مواعظ جيدة ويشرح المبادئ، وهذا هو واجب الكاهن. ولكن إذا ما سمحت للكاهن بالزواج فأظن أن من واجب زوجته معرفة ما يشعر به الناس أو يفكرون فيه، حتى لو لم تكن تستطيع عمل شيء بشأن مشاعرهم وأفكارهم تلك. وليست لدي أية فكرة عن صاحب ذلك العقل الذي...

سكنت، ثم أضافت وهي شاردة الذهن: إنها رسائل سخيفة.

- هل... هل تلقيت أيّاً منها؟

شعرت ببعض الحياء وأنا أسألها هذا السؤال، ولكن السيدة كالثروب ردّت بطريقة طبيعية تماماً وقد اتسعت عيناها قليلاً: أوه، نعم، اثنتين... لا بل ثلاثاً، وقد نسيت ما قيل فيها بالضبط. أظنها ذكرت شيئاً سخيفاً جداً عن كاليب والمدرسة. سخيفة تماماً، لأن كاليب ليس من هذا النوع من الرجال بأي حال.

- تماماً، تماماً.

- إنه غارق بين كتبه مستغرق في أبحاثه بحيث ينسى كل شيء حوله.

لم أشعر بأنني مؤهل للإحاطة على هذا النقد، وعلى أية حال فقد واصلت السيدة كالثروب كلامها وهي تقفز من الحديث عن زوجها إلى الرسائل مرة أخرى بطريقة محيرة: توجد أشياء كثيرة جداً يمكن أن تقولها الرسائل ولكنها لا تقولها... هذا هو الغريب في الأمر.

فئت بهمرارة: لا أكاد أرى أن الرسائل قد قصُرت في مسألة
الحشمة والتحفظ.
- ولكنها لا توحى بمعرفة أي شيء. لا شيء من الأمور
الحقيقية.

- ماذا تقصدين؟

نظرت إلي بعينها الدقيقتين الغاضبتين وقالت: يوجد بالطبع
الكثير من القبح والعلاقات المحرمة هنا... ومن الأشياء الأخرى.
أسرار مخزوة كثيرة. لماذا لا يستخدمها الكاتب؟ سكنت ثم سألت
فجأة: ماذا كان يقول في رسالتك؟

- كان يقول إن أختي ليست أختي فعلاً.

- وهل هي أختك؟

سألت السيدة كالثروب هذا السؤال باهتمام ودي لا حرج فيه.

- جوانا شقيقتي بالتأكيد.

أومات برأسها وقالت: هذا يوضح لك ما أعنيه. وأظن أن
أموراً أخرى...

نظرت إلي متأملة بعينها الصافيتين اللاميايتين. وفجأة أدركت
سبب خوف أهالي لايمستوك من السيدة كالثروب؛ ففي حياة كل
امرئ فصول مسترة يأمل أصحابها ألا تعرف أبداً. وقد أحسست أن
السيدة كالثروب كانت تعرفها.

ولأول مرة شعرت باليهجة إذ سمعتُ صوت إيمي غريفيت

المرح يصيح بقوة: مرحباً يا مود. أنا سعيدة لأنني وحدثك؛ أريد أن
أقترح عليك تغيير موعد المزارع. صباح الخير يا سيد بيرتن... يجب
أن أدخل إلى البقال وأترك عنده طلبتي، ثم سآتي إلى المعهد مباشرة
إن كان هذا يناسبك؟

قالت السيدة كالثروب: نعم، نعم. هذا جيد.

دخلت إيمي غريفيت إلى المحل المسمى "المخازن الدولية".
وقالت السيدة كالثروب: ممكنة!

كنت متحيرة، إذ هل يُعقل أن ترثي لحال إيمي؟ ولكنها
أكملت حديثها: أعلم يا سيد بيرتن؟ إنني خائفة بعض الشيء...

- من مسألة الرسائل هذه؟

- نعم، إنها تعني... لا بد أنها تعني...

سكنت وهي مستغرقة في التفكير وقد ضاقت عينها، ثم قالت
ببطء كمن يحل لغزاً: إنها كراهية عمياء.. نعم، كراهية عمياء.
ولكن حتى الرجل الأعشى قد يظعن أناساً حتى قلوبهم بمحض
الصدفة... فما الذي سيحدث عندها يا سيد بيرتن؟

وقد قدّر لنا أن نعرف ذلك قبل أن يمر علينا اليوم.

* * *

كانت بارتريدج هي التي أبلغتنا بخبر العاساة. وبارتريدج
امرأة تلتذذ بالفواجع، وكنت ترى أنها يرتجف نشوة عندما تريد
إبلاغنا بأي خبر سيئ. جاءت إلى غرفة جوانا وألقها بعمل يكامل

طاقته، وعيناها تلمعان، وقد انخفض فيها ليعطي انطباعاً مبالغاً به من التحميم. قالت وهي تفتح مغاليت النافذة: يوجد خبر رهيب هذا الصباح يا آنسة.

كانت جوانا -بعاداتها اللندنية- تحتاج لبعض الوقت حتى تنبّه تماماً في الصباح، ولذلك اكتفت بالقول: "أوه!"، ثم تقلبت على فراشها دون اهتمام حقيقي. وضعت بارتريدج شاي الصباح إلى جانبها وقالت مرة أخرى: خبر رهيب يبعث على الصدمة... لم أكد أصدقها عندما سمعته!

سألت جوانا وهي تجاهد للاستيقاظ: ما هو الرهيب؟
قالت يارتريدج: "السيدة سيمغتن المسكينة!". وسكتت على نحو درامي ثم عادت لتقول: ماتت!

- ماتت؟!

انتصبت جوانا جالسة على سريرها وقد استيقظت الآن تماماً.
- نعم يا آنسة، عصر الأمس. والأموء من هذا أنها انتحرت.

- أوه، أحقاً يا بارتريدج؟

صدمت جوانا بالفعل... فالسيدة سيمغتن لم تكن -بشكل ما- ممن يمكن للمرأة أن يربط بينهم وبين هذه المآسي.

- نعم يا آنسة، إنها الحقيقة. لقد قتلت نفسها عمداً. وهذا لا يعني أنها لم تدفع لذلك، المسكينة.

- تدفع؟

لمحت جوانا ومضة للحقيقة، وقالت: لا نقولي...؟

كانت عيناها تنظران إلى بارتريدج نظرات تساؤل. أومأت بارتريدج برأسها وقالت: هذا صحيح يا آنسة؛ بسبب واحدة من تلك الرسائل القذرة!

- ماذا قالت الرسالة؟

ولكن هذا -مع شديد أسف بارتريدج- ما لم تتح في معرفته. قالت جوانا: إنها أعمال وحشية، ولكنني لا أرى سبباً يجعلها تدفع المرأة للانتحار.

استنقذت بارتريدج ثم قالت بكثير من المعنى: ما لم تكن رسائل صحيحة يا آنسة.

- أوه.

شربت جوانا الشاي بعد مغادرة بارتريدج للغرفة ثم ألقت رداءً على كتفها وجاءت إلي لتخبرني بالخبر. فكرت فيما قاله أوبن غريفيث: "عاجلاً أم آجلاً ستطلي رصاصة في الفلام لتصيب مقتلًا"، وقد أصابت مقتلًا لدى السيدة سيمغتن. لقد كان لها سرها، وهي التي تبسو أبعد النساء عن ذلك... وفكرت بأنها -رغم كل ذكائها- لم تكن تمتلك قوة التحمل؛ كانت من النوع الشاحب الضعيف المشتب الذي ينهار بسهولة.

وكرتني جوانا وسألني عما أفكر فيه. كررت على مسامعها ما قاله أوبن لي، فقالت بحدّة: من شأنه طبعاً أن يعرف كل شيء عن هذا الأمر، فهو يرى أنه يعرف كل شيء.

- إنه ذكي.

- بل هو مغرور، مغرور إلى حدٍ بعيد!

ثم قالت بعد وقت قصير: حادث فظيع بالنسبة للزوج... وللفتاة أيضاً. كيف ستشعر ميغان إزاء هذا الأمر برأيك؟

لم تكن لدي أية فكرة عن ذلك، وهو ما قلته لها. كان غريباً ألا يستطيع المرء معرفة ما يمكن أن تفكر به ميغان أو تشعر به. أومأت جوانا برأسها وقالت: نعم، ليس بوسع المرء أبداً أن يعرف شيئاً من مشاعر طفلة مُستبدلة.

ثم قالت بعد سكوت قصير: هل ترى... أترغب بأن... لا أدري إن كانت الفتاة ترغب بالمجيء للبقاء عندنا يوماً أو يومين؟ إنها صدمة قوية لفتاة بهذا السن.

واففقتها وقلت: يمكننا الذهاب واقتراح هذا عليها.

- لا بأس على الصبيين، فعندهما تلك المربية. ولكنني أظنها من النوع الذي قد يدفع فتاة مثل ميغان إلى الحزن.

رأيت أن ذلك ممكن جداً. كنت أستطيع تصور الأنسة هولاند وهي تنقو عبارات تافهة واحدة تلو الأخرى وتقرح عليها عدداً لا يحصى من فناجين الشاي. فتاة لطيفة ولكنني لم أر فيها مربية تستطيع التعامل مع فتاة حساسة.

كنت قد فكرت في إبعاد ميغان عن بيتها، وقد سررت جداً لأن جوانا فكرت في هذا الأمر تلقائياً دون حث مني. ذهبنا إلى

بيت سيمينغن بعد الإفطار. كنا مرتبكين قليلاً كلانا؛ إذ ربما بدا وصولنا مجرد فضول لكل ما هو كارثي. ولحسن الحظ التقينا بأوين غريفيث وهو خارج لثوبه من البوابة. كان يبدو قلقاً مهموم الفكر، ولكنه حيائي ببعض الحرارة قائلاً: مرحباً يا بيرتن، تسرني رؤيتك. إن ما عشت وقوعه عاجلاً أم آجلاً قد وقع فعلاً. قضية مؤسفة جداً!

قالت جوانا بصوت كانت تذخره لعملة لنا صماء: صباح الخير يا دكتور غريفيث.

فوجئ غريفيث واحمر وجهه وقال: أوه، أوه، صباح الخير أنسة بيرتن.

قالت جوانا: حسبك لم نرني.

ازداد احمرار وجه أوين غريفيث وأخذ الحياء منه كل ماخذ وقال: أنا... أنا أسف. كنت مشغول البال... ولم...

أكملت جوانا دون رحمة: رغم أنني بنفس حملي، لم أغير. قلت لها بعبارة جانبية لاذعة: ولكنك بحجم صورة تصفية.

ثم أكملت: لقد تساءلنا أنا وأختي يا غريفيث، إن كان من المستحسن أن تأتي الفتاة لتقيم معنا يوماً أو يومين؟ ما رأيك؟ لا أحب التدخل... ولكن الأمر سيكون صعباً على الفتاة المسكينة دون شك. ماذا سيكون رأي السيد سيمينغن في هذا الأمر برأيك؟

قلّب غريفيث الفكرة في رأسه بعض الوقت ثم قال أخيراً:

أظن أنها ستكون فكرة ممتازة. إنها فثاة عصبية غريبة الأطوار، ومن الأحسن لها أن تبعد عن البيت. الأنسة هولاند ممتازة... إنها فثاة عاقلة جداً، ولكن لديها ما يكفيها من العمل مع الولدين ومع سيمتغن نفسه. إنه منهار تماماً... صعقه المصايب.

قلتُ بتردد: أكان الأمر... انتحاراً؟

أوما غريفيث برأسه: نعم. ما من إمكانية لكونه حادثاً. كتبتُ ملاحظة على ورقة صغيرة تقول فيها: "لا يمكنني المضي". لا بد أن الرسالة قد وصلت في بريد عصر أمس. كان المغلف على الأرض بجانب كرسيها، وكانت الرسالة نفسها قد كُورِت وألقيت قرب الموقد.

- ماذا كانت...

سكتُ وقد أربكتني جرأتي، فقلتُ: أرحو المعذرة.

ابتسم غريفيث ابتسامة حزينة سريعة وقال: لا تتخرج من السؤال؛ إذ لا بد أن تقرأ تلك الرسالة في التحقيق. هذا ما لا مفر منه، وهو أمر يدعو لمزيد من الأسى. كانت رسالة من نفس ذلك الطراز... كتبتُ بنفس الأسلوب الشرير. ولكن الاتهام المحدد هو أن الولد الثاني، كولين، لم يكن ابن سيمتغن.

صحت غير مصدق: أتظن ذلك صحيحاً؟

رفع غريفيث كتفيه حيرة وقال: ليس لدي من الوسائل ما يمكنني من تكوين حكم. لم أت إلى هنا إلا منذ خمس سنوات، وحسباً رأيت دوماً فنان سيمتغن وزوجته كانوا زوجين هادئين

سعيدين بحبان بعضهما وأطفالهما. صحيح أن الولد لا يشبه والديه بشكل محدد... فشعره أحمر فاتح، من ضمن أمور أخرى... ولكن الطفل كثيراً ما يعود لحمل أوصاف جده أو جدته.

- ربما كان عدم التشابه هذا هو الذي تسبب في ذلك الاتهام تحديداً؛ إنه اتهام شنيع أطلق حرافاً دون أي مبرر.

- محتمل جداً؛ إذ لم يكن ذلك القلم المسموم ينطلق من أية معرفة دقيقة باستثناء الحقد المنفلت والضغينة.

قالت جوانا: ولكنه صادق أن أصاب مقتلاً، وإلا لما كانت ستقتل نفسها، أليس كذلك؟

قال غريفيث مرثافاً: لست متأكداً تماماً. كانت السيدة معتلة منذ بعض الوقت، وكانت مصابة بعُصاب وهستيريا كنت أعالجها منهما. أظن من الممكن أن تكون الصدمة -عند تلقيها مثل هذه الرسالة التي صيغت بتلك العبارات- قد أدت إلى حالة من الذعر والاكنتاب البائس مما جعلها تفكر في الانتحار. ربما قلتُ إلى حدٍ شعرت معه أن زوجها قد لا يصدقها إذا أنكرت القصة، وربما أثر عليها الشعور بالخزي العام والاشتمزاز بقوة أدت إلى زعزعة قدرتها على الحكم على الأشياء لفترة مؤقتة.

قالت جوانا: انتحار في حالة عقلية مضطربة.

- بالضبط. أظن أنني سأكون معذوراً تماماً في عرض وجهة النظر هذه أثناء التحقيق.

قالت جوانا: فهمت.

كان في صوتها شيء جعل أوبن يقول بصوت غاضب: سأكون معذوراً تماماً. ثم أضاف: ألا توافقين على ذلك يا آنسة بيرتن؟

- أوه، نعم، أوافقك. لو كنت مكانك لفعلت نفس الأمر.

نظر أوبن إليها نظرة ارتياح، ثم ذهب يبعده في الشارع، ودخلنا إلى البيت. كان الباب الأمامي مفتوحاً وهذا الدخول أسهل من دق الحرس، خصوصاً عندما سمعنا صوت إلسي هولاند بالدخول. كانت نتحدث إلى السيد سيمنتن الذي ألقى بحجمه مترهلاً على كرسي وهو يبدو ذاهلاً تماماً: كلا، يجب أن تأكل شيئاً يا سيد سيمنتن. أنت لم تتناول إفطارك، أو ما أسميه الإفطار الصحيح، ولم تأكل شيئاً الليلة الماضية، وإن الصدمة وغيرها ستجعلك تعرض أنت الآخر، وأنت تحتاج كل قوتك. وقد قال الطبيب ذلك قبل أن يغادر.

قال سيمنتن بصوت لا حياة فيه: هذا من طفلك يا آنسة هولاند، ولكن...

قالت إلسي هولاند: فنجان من الشاي الساخن الجيد. ثم دفعت له بالشاي أمامه.

أنا، شخصياً، كنت سأعطي هذا المسكين كأساً من الليمون لينعشه قليلاً، فقد بدا أنه بحاجة إليه. ومع ذلك قبل الشاي وقال وهو يرفع بصره إلى إلسي هولاند: لا أستطيع التعبير عن شكري لكل ما فعلته وتعليله يا آنسة هولاند؛ لقد كنت رائعة تماماً.

احمر وجه الفتاة وهدت مسرورة وقالت: جميل منك أن تقول

هذا يا سيد سيمنتن. يجب أن تتركتني أفعل كل ما أستطيعه لمساعدتك. لا تقلق على الطفلين... سأتولاهما برعايتي، وقد هدأت الخدم، وإذا كان هناك شيء يمكنني فعله، كتابة رسائل أو مكالمات هاتفية، فلا تردد بطلب ذلك مني.

قال سيمنتن ثانية: هذا من لطفك الشديد.

عندما التفتت إلسي هولاند رأنا وجايت إلى الصالة مسرعة قائلة بهمس خافت: أليس الأمر مرعباً؟

رأيت وأنا أنظر إليها أنها فتاة لطيفة حقاً. لطيفة، وقديرة وعملية في أوقات الطوارئ. كانت عيناها الزرقاوان الراضعان محمرتين قليلاً، مما يظهر أنها كانت من الرقة بحيث ذرفت الدموع على موت سيدتها.

قالت جوانا: أيمكننا الحديث معك دقيقة؟ لا نريد إزعاج السيد سيمنتن.

أومأت إلسي هولاند برأسها مستوعبةً وتقدمتنا إلى غرفة الطعام في الجانب الآخر من الصالة. قالت: كان وقع الأمر كبيراً عليه... يا لها من صدمة! من كان يظن أن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث؟ لكني أدرك الآن بالطبع أنها كانت غريبة الأطوار منذ زمن؛ كانت عصية المزاج كثيراً وكثيره البكاء. كنت أظن ذلك بسبب صحتها، رغم أن الدكتور غريفيث كان يقول دائماً إن صحتها جيدة. ولكنها كانت نزقة وسريعة الاحتياج وأحياناً لم نعرف كيف نعاملها.

قالت جوانا: إن ما حدثنا لأجله حقيقة هو معرفة ما إذا كان

باستطاعتنا أخذ ميغان عندنا بضعة أيام... هذا إن رغبت هي بالأمر.

بدت إليّ السي هولاند مندهشة بعض الشيء، ثم قالت بارتياح:
ميغان؟ لا أعرف. أقصد أنه لطف كبير منك، ولكنها فتاة غريبة
الأطوار. لا أحد يعلم ما الذي ستفعله أو تشعر به بخصوص الأشياء.

قالت جونا بشيء من الغموض: رأينا أن ذلك ربما يساعد.

- أوه، من هذه الناحية فهو يساعد فعلاً. أقصد أنني يجب أن
أرعى الولدين (وهما الآن مع الطاهية) والسيد سيمنتن المسكين..
فهو يحتاج حقاً إلى العناية كالأخرين، وعندى الكثير مما ينبغي
القيام به والإشراف عليه، وأنا لا أملك -فعلاً- وقتاً كافياً لرعاية
ميغان. أظنها في غرفة الأطفال القديمة في الطابق العلوي. يبدو أنها
تريد الابتعاد عن الجميع. لا أعرف إن كانت...

نظرت جونا إليّ نظرة خفيفة فهرعت خارج الغرفة وصعدت
الدرج وفتحت باب غرفة الأطفال ودخلت. كانت غرفة الأطفال
القديمة في أعلى البيت، وكانت الغرفة الواقعة تحتها تشرف على
الحديقة من الخلف ولم تكن الستائر فيها مسدلة، أما في هذه الغرفة
التي تواجه الطريق فكانت الستائر مسدلة.

رأيت ميغان من خلال ضوء خافت. كانت حائمة على أريكة
عند الحائط البعيد وتراءت لي على الفور صورة حيوان خائف،
مخشئ. بدت كمن شلّه الخوف. قلت: "ميغان"، وتقدمت نحوها
متنبهاً -دون رعي- نبرة من بريرة طمأنئة حيوان خائف. وأنا مندهش
حقاً لأنني لم أمد يدي بحزرة أو قطعة من السكر، فقد كان هذا ما
شعرت به.

نظرت إليّ، ولكنها لم تتحرك ولم تتغير ملامح وجهها. قلت
مرة أخرى: ميغان، لقد جئت وجوانا لتطلب منك القدوم لتقيمي.
معنا بعض الوقت إن شئت.

جاء صوتها من خلال الضوء الخافت عميقاً كأنما هو أتم من
أحدود: أقيم معكما؟ في بيتكما؟

- نعم.

- أتعني أنك ستأخذني بعيداً عن هذا المكان؟

- نعم يا عزيزتي.

فجأة بدأ جسدها كله يرتجف، وكان ذلك مخيفاً ومؤثراً.
قالت: أوه، أرجوك أن تأخذني بعيداً أرجوك... إن البقاء هنا
والشعور بكل هذا الشر أمر قبيح.

تقدمت منها فتشبت يداها بأكمامي معطني وقالت: أنا جبانة
جداً... لم أكن أعرف أنني جبانة هكذا.

- لا بأس عليك؛ هذه الأمور تهرق الأعصاب. هيا.

- هل يمكننا الذهاب فوراً؟ دون انتظار دقيقة واحدة؟

- أظن أن عليك أن تحمعي بعض حاجياتك.

- أية حاجيات؟ لماذا؟

- يا عزيزتي، يمكننا أن نوفر لك سريراً وحماماً وغير ذلك،
ولكني لا أستطيع إعارتك فرشاة أسناني.

ضحكت ضحكة ضعيفة باهتة وقالت: فهمت. أظن أنني غيبة اليوم... سأذهب وأحزم بعض الأشياء، أين تذهب؟ هل تنتظرني؟
- سأنتظرك.

- أشكرك... أشكرك كثيراً. آسفة لأنني بمثل هذا الغباء، ولكن فقدان الأم أمر فظيع.
- أعرف.

وبت على ظهرها بحثت نظرت إلى نظرة امتنان وفهمت إلى غرفة نومها، فيما نزلت أنا إلى الطابق السفلي. قلت: وجدت ميغان، وهي قادمة.

صاحت إلسي هولاند: هذا شيء رائع، هذا سبيلها تماماً. إنها فتاة صعبة عصية المزاج؛ سأرتاح تماماً حين أشعر أنني لن أنشغل بها مع المشاغل الأخرى. هذا لطف كبير منك يا آنسة بيرتن. أرحم ألا تكون مصدر إزعاج لكما، أوه، جرس الهاتف يرن. يجب أن أذهب للرد عليه، فغريزي سينتظرن ليس مستعداً لذلك.

ثم أسرع خارجة من الغرفة، فقالت جوانا: إنها الملاك الحارس تماماً!

قلت: لقد قلت هذا بشيء من اللوم. إنها فتاة لطيفة وكريمة، وواضح أنها قديرة جداً.

- جداً، وهي تعرف ذلك.

- هذا ليس من طبيعتك يا جوانا.

- لا أتحمّل رؤية من يزهو بنفسه؛ فهذا يشير أسوأ غرائزي! كيف وجدت ميغان؟

- كانت جالسة في غرفة معتمة أشبه بغزال مُصاب.

- ممكنة. أكانت راغبة تماماً في المحي؟

- لقد فقزت من الفرحة.

سمعت صوت أقدام في الصالة دلت على نزول ميغان حاملة حقبتها. خرجت وأخذتها معها. وقالت جوانا بالبحاح: هيا بسرعة، ألا يكفي أنني رقصت مرتين حتى الآن شرب كوب حار رائع من الشاي؟

خرجنا إلى السيارة فدخلتها ميغان وتبعها، وانطلقت بنا حواتنا. وصلنا إلى ليثل فيرز ودخلنا غرفة الاستقبال. أنقت ميغان نفسها على كرسي وانفجرت في البكاء. بكت بكاء الأطفال المرير... وكان بكائها أقرب إلى الصراخ. تركت الغرفة بحثاً عن علاج، فيما وقفت جوانا وهي تشعر بالعجز كما أظن.

وسرعان ما سمعت ميغان وهي تقول بصوت خنقته العبيرات: آسفة لفعل هذا؛ يبدو كتصرف الحمقى.

قالت جوانا بلطف: إطلاقاً. عذري متديلاً آخر.

وأحسب أنها قدمت لها ما يصلح حالها قبل أن آتيها بكأس من عصير الليمون قبلته مني بامتنان. ثم حوكت انتباهها إلى جوانا وقالت: أنا آسفة حقاً لهذا الإزعاج الذي سببته لك في الصباح بهذه

الطريقة. لا أعرف لماذا... يبدو تصرفاً سخيفاً مع سعادتي الكبيرة
بوجودي هنا.

قالت جوانا: لا بأس، نحن سعدان جداً بوجودك معنا.

- لا يمكن ذلك... هذا لطف منكما، لكني ممثلة لكما.

- أرجو ألا تشكرنا؛ فهذا سيُسرعني بالحرج. كنت أقول
الحقيقة عندما أكدت أننا سعدان بوجودك معنا؛ لقد استهلكنا أنا
وجيري كل الحديث فما عدنا نستطيع التكبير بأشياء أخرى نقولها.

قلت: ولكن سيمكننا الآن التحدث بسوية فسي يختلف
الموضوعات الشيقة... عن جوليريل وريغان وغير ذلك من الأمور.

أشرق وجه ميغان وقالت: كنت أفكر بهذا، وأظن أنني
أعرف الإجابة: والدهما العجوز القطيع كان يلح دائماً على سماع
مثل هذا التملق والتذلل. عندما تضطر دوماً لأن تقول: "شكراً"
و"هذا لطف منك" وغير ذلك من كلمات التملق والمدح فإن هذا
يخلق في داخلك بثرة غضب وشذوذ، وسوف تشتاق لأن تكون
إنساناً قاسياً من باب التغيير... وعندما تتاح لك الفرصة، فربما
وجدت أن الفكرة قد دخلت رأسك، فتذهب بعيداً فسي ردود
أفعالك. لقد كان العجوز لير فظيلاً جداً، أليس كذلك؟ أقصد أنه
كان يستحق فعلاً التوبيخ الذي سمعه من ابنته كورديليا.

قلت: أظن أننا منحوض في كثير من الأحاديث المشوقة عن
شكسبير.

قالت جوانا: أرى أنكما ستكتشفان عن ثقافة رفيعة واسعة. أما

أنا فأعشى القول بأنني أجد كتابات شكسبير دائماً كئيبة مملة.

قلت وأنا ألتفت إلى ميغان: كيف تشعرين الآن؟

- على ما يرام، أشكرك.

أخذت جوانا ميغان إلى الدور العلوي لتفريغ حقيبتها. ودخلت
بارتريدج وهي تبدو متحمة فقالت إنها عملت كأسين من الكاستر
للغداء، فماذا تصنع حيال هذا الأمر؟

* * *

الفصل السادس

جرى التحقيق بعد ذلك بثلاثة أيام، وقد تم بصورة لائقة قدر الإمكان. ولكن الحضور كانوا بأعداد كبيرة، وكما عُلقت جوانا: كانت قلنسوات النساء حول وجوههن تتحرك صعوداً ونزولاً لكثرة أحاديثهن.

تم تحديد وقت وفاة السيدة سيمينغتن فيما بين الساعة الثالثة والرابعة. كانت وحدها في البيت، وكان زوجها في مكتبه، فيما غابت الخادومات في عطلةهن الأسبوعية، وكانت إلسي هولاند والولدان في الخارج يتمشون، أما ميفان فكانت قد خرجت في جولة على الدراجة.

لا بد أن الرسالة قد جاءت في بريد العصر. ولا بد أن السيدة سيمينغتن قد أخذتها من الصندوق، وقرأتها... ثم ذهبت -وهي في حالة من الاحتياج والغضب- إلى سقيفة الأواني وأحضرت بعضاً من السبانيد (الموجود هناك للفقضاء على أعشاش الزنابير) فحلته في الماء وشربه بعدما كتبت كلماتها المنفعلة الأخيرة تلك: "لا يمكنني الاستمرار...".

وقدّم أوبن غريفيث شهادته الطيبة وشدّد على رأيه الذي أوضحه لنا عن الحالة العصبية عند السيدة سيمينغتن وضعف قدرتها على الاحتمال. كان قاضي التحقيق لطيفاً وحكيماً، وقد دان بمرارة أولئك الذين يكتبون هذه الأشياء الحقيرة؛ الرسائل المُعقّلة، وقال إن كاتب تلك الرسالة الشريرة والكاذبة -كائناً من كان- مسؤول أخلاقياً عن جريمة القتل، وأعرب عن أمله في أن يتمكن الشرطة قريباً من اكتشاف الفاعل لاتخاذ إجراء ضده رجلاً كان أم امرأة، لأن تصرفاً جباناً حاقداً كهذا يستحق أقصى عقوبة يقرضها القانون.

وبناء على أقواله تلك، توصل المحلفون إلى الحكم الحتمي: انتحار في لحظة جنون مؤقت.

وقد بذل القاضي كل ما في وسعه... وكذلك أوبن غريفيث، ولكني بعد ذلك -عندما اختلطت بجموع نسوة القرية المحتشدة المتلهفة- سمعت نفس الهمسات البغيضة التي بدأت أعرفها جيداً مثل: "لا دخان بلا نار، هذا رأيي!" أو "لا يد من وجود شيء في الأمر، وإلا ما كانت لتفعل ذلك أبداً...".

وفي تلك اللحظة كرهت لايمستوك، وكرهت حدودها الضيقة ونساءها الهامسات الثلاثرات.



يصعب تذكر الأشياء حسب ترتيبها الزمني الدقيق. كان المعلم الهام التالي -بالطبع- هو زيارة المفتش ناش، ولكن أظن أننا تلقينا قبل هذه الزيارة زيارات أخرى من أشخاص عديدين من

البلدة، وكانت كل زيارة من تلك الزيارات مثيرة للاهتمام بطريقتها الخاصة بإلقائها بعض الضوء على الشخصيات المعنية.

جاءت إيمي غريفيث في صباح اليوم الذي تلا التحقيق. كانت تبدو كعادتها مليئة بالحيوية والنشاط والحماس ونجحت - كعادتها أيضاً - في إزعاجي على الفور تقريباً. كانت جوانا وميغان خارج البيت ولذلك قمت بالواجب.

قالت الأنسة إيمي غريفيث: صباح الخير... سمعت أنكما تستضيفان ميغان هنتر عندكما هنا؟

- نعم.

- هذه طيبة منكما؛ لا بد أن في ذلك إزعاجاً لكما. جئت لأقول إن بوسعها أن تأتي إلينا إن شاءت. أظن أن باستطاعتي إيجاد وسائل لجعلها مفيدة في البيت.

نظرت إلي إيمي غريفيث نظرة استياء شديد وقلت: هذا لطف منك، لكننا نود بقاءها معنا؛ إنها سعيدة تماماً بالتسكع هنا.

- أظن هذا. هذه الطفلة تحب التسكع كثيراً، ولعلها لا تملك أن تكون غير ذلك؛ فهي عملياً بنصف عقل.

- أظن أنها فتاة ذكية.

نظرت إيمي غريفيث إلي نظرة فاسية وقالت: هذه هي أول مرة أسمع فيها شخصاً يقول هذا عنها... حتى أنك عندما تتحدث إليها فإنها تنظر إليك وكأنها لا تفهم ما نقوله!

- ربما لا تكون مهتمة بالموضوع فقط.

- إن كانت كذلك فهي وقحة جداً.

- ربما، ولكنها ليست بنصف عقل.

قالت بحدة: إنه الشرود والغفلة في أحسن الأحوال. **مما** نحتاجه ميغان هو عمل دؤوب جيد؛ شيء يجعلها تهتم بالحياة أنت لا تتصور الاختلاف الذي يحدثه ذلك في حياة الفتاة. أنا أعرف الكثير عن الفتيات، وسيددهشك الاختلاف الذي يحدث عند الفتيات حتى من الانخراط في سلك الكشافة. إن ميغان أصبحت أكبر بكثير من أن تقضي وقتها في التسكع والبطالة.

- كان من الصعب عليها حتى الآن عمل شيء آخر؛ فقد بدا دوماً أن السيدة سيمنتن ترى فيها فتاة في الثانية عشرة من عمرها.

زفرت الأنسة غريفيث بازدياء وقالت: أعرف، ولم أكن أطبق صبراً على موقفها ذاك. المسكينة ميتة الآن بالطبع، ولذلك لا أريد قول المزيد، ولكنها كانت مثلاً نموذجياً للمرأة غير الذكية التي لا تشغلها إلا هموم المنزل: لعب البريدج والقييل والقال وأطفالها... وحتى في مسألة الطفلين كانت لديها الأنسة هولاند تقوم بالعناية بهما. أنا لم أكن من المعجبات أهداً بالسيدة سيمنتن، رغم أنني لم أشك في الحقيقة أهداً.

قلت بحدة: الحقيقة؟

احمرّ وجه الأنسة غريفيث وقالت: لقد أسفت كثيراً على السيد سيمنتن بسبب نشر كل تلك الأمور في التحقيق. كان ذلك

أمرًا شديد الحرج بالنسبة له.

- ولكن لا بد أنك سمعته وهو يؤكد عدم وجود كلمة صحيحة واحدة في تلك الرسالة... وأنه متأكد تمامًا من هذا؟

- طبعًا قال ذلك، وهو موقف صحيح تمامًا. لا بد أن يقف الرجل مدافعًا عن زوجته، ومن شأن ذلك أن يفعل ذلك.

سكنت قليلًا ثم أوضحت: لقد عرفت ذلك سيمنتن منذ وقت طويل.

فوجئت قليلًا وقلت: حقًا؟ لقد فهمت من أخيك أنا اشتري عيادته هنا منذ بضع سنوات فقط.

- نعم، ولكن ذلك سيمنتن كان يأتي قبل ذلك وقيم في منطقتنا في الشمال. لقد عرفته منذ سنوات.

إن النساء يقفون إلى نتائج لا يقف إليها الرجال، ومع ذلك فإن نبرة إيمي غريفيث التي أصبحت ناعمة فجأة جعلت أفكاراً عديدة تراودني. نظرت إلى إيمي بفضول، فيما واصلت هي حديثها بذلك الصوت الناعم: أعرف ذلك جيداً... إنه رجل ذو كبرياء، ومتحفظ جداً، ولكنه من النوع الذي يمكن أن يكون غيوراً جداً.

قلت متأنياً: هذا يوضح سبب خوف السيدة سيمنتن من عرض الرسالة عليه أو إخباره عنها. كانت تخشى -نتيجة غيرته- ألا يصدق إنكارها.

نظرت الآنسة غريفيث إليّ بغضب وازدراء وقالت: يا إلهي،

هل تظن أن من شأن امرأة أن تذهب وتبتلع كمية من سيانيد البوتاسيوم بسبب اتهام غير صحيح؟

- يبدو أن قاضي التحقيق رأى ذلك ممكناً، وأحوك أيضاً...

قاطعتني إيمي: الرجال كلهم سواء؛ كلهم يريدون المحافظة على الآداب العامة. ولكنك لن تراتي أنا أصدق هذا الهراء. إذا تلقت امرأة بريئة رسالة مجهولة قذرة فإنها تضحك وتلقي بها بعيداً. أنا هكذا...

سكنت فجأة ثم أكملت: كنت سأفعل.

لكنني تنبّهت لسكوئها القصير هذا. كدت أكون واثقاً أن ما أرادت قوله هو: "أنا هكذا فعلت". قررت نقل الحرب إلى ساحة الخصم فقلت بمرح: فهمت، إذن فقد استلمت واحدة من تلك الرسائل أيضاً؟

كانت إيمي غريفيث من النوع الذي يحتقر الكذب. سكنت بعض الوقت واحمرّ وجهها ثم قالت: حسناً، نعم. لكنني لم أتركها تفلقني!

سألتها متعاطفاً إذ كنا في البلية سواء: هل كانت بذيئة؟

- بالطبع، هذه الأشياء دائماً بذيئة. إنها هذيان شخص معنوه. قرأت بضع كلمات منها وفهمت ما هي وألقيتها مباشرة في سلة المهملات.

- ألم تفكري في أخذها إلى الشرطة؟

- لم أفكر بذلك وقتها؛ فقد شعرت - كما يقول المثل - بأن الكلام كلما قل كان إصلاحه أسرع.

أحسست بدافع في داخلي يدفعني لأقول: "لا دخان بلا نار!"، ولكنني ضبطت نفسي. وحتى أجنب هذا الإغراء انتقلت إلى موضوع ميفان. قلت: هل لديك أي علم بوضع ميفان المالي؟ ليس هذا فضلاً تافهاً من ناحيتي، ولكنني كنت أتساءل إن كان من الضروري لها أن تعمل.

- لا أظنه ضرورياً بالمعنى المحدد. لقد تركت لها جلتها لأنها دخلت صغيراً كما أقول، وعلى أية حال سيقتديك ستيفنسون مؤمناً لها السكن والمصروف حتى لو لم تترك لها أمها أي شيء. كلا، ولكن المسألة مسألة مبدأ.

- أي مبدأ؟

- العمل يا سيد بيرتن... لا شيء مثل العمل. إن الكسل هو الخطيئة التي لا تغفر.

- لقد طُرد السير إدوارد غري -الذي أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية- من جامعة أكسفورد بسبب كسله الذي لا سبيل لإصلاحه. وسمعت أن دوق ويلنغتون كان غيباً ومهملًا لواجباته الدرامية. ثم ألم يخاطر ببالك -يا آنسة غريغت- أنك ربما لم تكوني قادرة على استقلال قطار سريع إلى لندن لو أن جورج ستيفنسون كان قد خرج في نشاط شباهي بدل أن يتسكع سجيناً في مطبخ والدته حتى استرعت انتباهه الكسول الطريقة الغريبة التي يعلو ويهبط فيها غطاء الإبريق على النار، فكان ذلك بداية ابتكار القطار؟

اكتفت إيمي بأن زفرت بشأف، فيما قلت: وأنا أنحس لموضوعي؛ إن لدي نظرية تقول إننا ندين بمعظم اختراعاتنا العظيمة ومعظم الإنجازات العبقريّة إلى الكسل... الإبحاري منه والطوعي. إن العقل البشري يفضل أن يتغذى على أفكار الآخرين، ولكنه عندما يُحرَم من هذا الغذاء فإنه سيبدأ كارهياً في التفكير لذاته... وتذكرني إن مثل هذا التفكير هو تفكير إبداعِي وقد يؤدي إلى نتائج قيمة.

ثم أكملت قبل أن تفر إيمي من حديثي: وقول ذلك فهناك الحجاب الفني.

نهضت وأخذت من مكتبي صورة كانت تلاحقني دائماً لمنظر صيني مفضل عندي. كانت تمثل رجلاً عجوزاً يجلس تحت شجرة ويسلي نفسه بتلك اللعبة القديمة التي يشبك الأطفال فيها خيوطاً بين أصابعهم حتى يولفوا منها شكلاً هندسياً. أحضرت الصورة وقلت لها: كانت في المعرض الصيني، وقد سحرنتي. اسمحي لي أن أريك إياها. إنها تدعى "رجل عجوز يستمتع بمتعة الكسل".

ثم تأثرت إيمي غريغت لصورتي الجميلة، وقالت: حسناً، إننا نعرف جميعاً كيف هي طبيعة الصينيين!

سألتها: ألا تعجبك؟

- بصراحة، لا. لست مهتمة كثيراً بالفن، إن موقفتك يا سيد بيرتن هو موقف تقليدي لمعظم الرجال؛ فأنت تكره فكرة عمل النساء... ومناقشتهم...

فوجئت بكلامها، فقد أصبحت في موقف معادٍ للحركة

النسائية. وسرعان ما غضبت إيمي وقالت وقد احمرت وجنتاهما:
أنت تستغرب سعي المرأة وراء مهنة لها. والدائي -أيضاً- كانا
يستغربان ذلك. كنت شديدة الحرص على دراسة الطب، ولكنهما
لم يوافقا على دفع رسوم الدراسة، ومع ذلك دفعاهما لأخي أوين عن
طبيب خاطر. ربما كان من شأني أن أصبح طبيبة أفضل منه!

- أنا أسف لذلك. ربما كان وقعه صعباً عليك، فلماذا أراد
المرء فعل شيء...

أكملت حديثها بسرعة: لقد تغلبت على ذلك الآن. لدي
الكثير من قوة الإرادة؛ حياتي مشغولة ونشطة. إنني واحدة من أسعد
الناس في لايمستوك. لدي الكثير من الأعمال أفوم بها، لكنني
أحارب ذلك التمييز الرجعي السخيف الذي يقول إن مكان المرأة
في بيتها دائماً.

- آسف إن كنت قد أغضبك، فذلك لم يكن -حقاً- ما
قصدته، ولكنني لا أستطيع تصور ميغان في دور امرأة يشكّل البيت
محور حياتها.

- لا، إنها طفلة مسكينة. أعشى أنها لن تصلح في أي مجال.
كانت إيمي قد هدأت وعادت نتحدث بأسلوبها الطبيعي:
أبوها كما تعلم...

ثم سكنت، فقلتُ بفظاظة: كلا، إنني لا أعلم. الجميع يقولون
"أبوها"، ثم يخفون أصواتهم. ماذا كان يفعل الرجل؟ أما زال على
قيد الحياة؟

- لا أعرف حقاً. كما أنني -شخصياً- أجهل الكثير من شؤون
أبيها، ولكنه كان رجلاً سيئاً بالتأكيد. أظنه من أصحاب السجون،
كما أن في عائلته عرق شذوذ قوياً. هذا ما لا يجعلني أعجباً إذا ما
كانت ميغان "ناقصة" قليلاً.

- بل هي في كامل قواها العقلية، وكما قلتُ من قبل فيزني
أعيرها فتاة ذكية. أختي تراها كذلك أيضاً؛ إن جوانا تحبها كثيراً.

قالت: أخشى أن أختك تحد المكان هنا مملاً جداً دون شك.

وعندما قالت عبارتها تلك أدركتُ شيئاً آخر، فقد كانت
إيمي غريبتُ نكره أختي. كان ذلك واضحاً في نبرات صوتها
الهادئة والتقليدية. قالت: لقد تعجبنا جميعاً من قدرتكما على تحمل
العزلة في مكان ناء كهذا.

كان ذلك سؤالاً وقد أجبت عنه: إنها أوامر الطبيب. كان عليّ
أن أذهب إلى مكان هادئ جداً لا يحدث فيه شيء. سكنتُ ثم
أضقت: وهو ما لا يصح تماماً على لايمستوك الآن.

- صحيح، صحيح.

بدت قلقة، ثم نهضت لكي تذهب قائلة: يجب وضع حد
لكل هذه الوحشية! لا يمكننا السماح باستمرار هذا الحال.

- ألا يفعل الشرطة شيئاً؟

- ليست أدري، لكنني أظن أن علينا معالجة الأمر بأنفسنا.

- نحن لا نملك الوسائل التي يملكونها.

قالت: "هراء! ربما كنا أكثر منهم إدراكاً وذكاءً! إن كل ما نحتاجه هو شيء من التضميم". ثم ودعنتي بسرعة وذهبت.

عندما عادت جوانا وميغان من رحلتيهما أرهت ميغان صورتي الصينية. أشرف وجهها وقالت: إنها رائعة، أليس كذلك؟

- هذا في الواقع هو رأيي.

كان جبينها يتحدع بالطريقة التي كنت أعرفها جيداً عنها. قالت: ولكن من شأن ذلك أن يكون صعباً، أليس كذلك؟

- أن يكون المرء كسولاً؟

- لا، ليس أن يكون كسولاً... ولكن أن يستمتع بالكسل! إذ عليك أن تكون كبيراً في السن كثيراً...

سكنت فقلت لها: وهو بالفعل رجل عجوز.

- لا أقصد أنه كبير بهذا المعنى. لا أقصد السن، أقصد أن يكون كبيراً في... في...

- تقصدين أن على المرء أن يرقى إلى درجة عالية من التحضر حتى يبدو له الأمر على هذا النحو... أي أنها نقطة دقيقة لا يفهمها إلا عقل متطور معقد! أظن أنني سأكمل تعليمي يا ميغان بأن أقرأ عليك مئة قصيدة شعرية مترجمة عن اللغة الصينية.

* * *

قابلت سيمغتن في البلدة في نفس ذلك اليوم وسألتها: هل في

الأمر شيء، لو أن ميغان بقيت عندنا قليلاً؟ إنها تؤنس جوانا... فهي تشعر بالوحشة أحياناً لعدم وجود أي من صديقاتها.

- أوه... ميغان؟ أوه، نعم، كرم كبير منك.

شعرتُ عندها بكرهية لسيمغتن ثم أمتطع التخلص منها تماماً بعد ذلك؛ فمن الواضح أنه قد نسي كل شيء عن ميغان. ما كنت لأهتم لو أنه كره الفتاة كرهاً إيجابياً إذا صح التعبير... فقد يغار الرجل أحياناً من ابن الزوج الأول... ولكنه لم يكن يكرهها، بل إنه لا يكاد يشعر بوجودها. كان شعوره نحوها أشبه بشعور رجل لا يهتم كثيراً بالكلاب وصادف أن في بيته كلباً. فإني في هذه الحالة لا تلاحظ وجود الكلب إلا عندما ترتطم به فتشتمه، وأنت تربت عليه بشكل عارض عندما يتمسح بك. لقد أزعجتني كثيراً عدم ميالة سيمغتن المطلقة بابتة زوجته.

قلت له: ما الذي تخطط لعمله بشأنها؟

بدا وكأنه قد جفل لسؤالي وقال: بشأن ميغان؟ ستواصل حياتها في البيت. أقصد أنه بيتها طبعاً.

كانت جدتي التي كنت أحبها كثيراً تغني أغاني قديمة على قيثارتها. وأذكر أن إحدى تلك الأغاني كانت تنتهي هكذا:

"أنا لست هنا يا فتاتي الغالية،

ليس عندي بيت أو مكان،

ولم يعد لي مأوى لا في البحر ولا على الشاطئ

سوى في قلبك".

ذهبت إلى البيت وأنا أدندن بهذه الأغنية.

* * *

جاءت إميلي بارتُن بعد تناولنا الشاي مباشرة. أرادت الحديث بشأن الحديقة، فخرجنا وتحدثنا نحواً من نصف ساعة، ثم درنا وعندنا إلى البيت. وعندها خفضت صونها وهمست: أرحو ألا تكون تلك الطفلة... قد تضايقت كثيراً من كل هذا الأمر الرهيب؟

- نقصدين وفاة أمها؟

- عانيت ذلك طبعاً. ولكن ما قصدته حقيقة هو... بشاعة الاتهام الذي يقف خلف ذلك.

شعرت بالفضول وأردت معرفة رد فعل الأنسة بارتُن فقلت: ما رأيك بذلك الاتهام، أكان صحيحاً؟

- أوه، كلا، كلا بالتأكيد؟ إنني واثقة أن السيدة سيمينغتن لم يسبق لها... إنه لم يكن... أحمر وجه إميلي بارتُن وارتبكته، ثم أكملت قائلة: أقصد أنه غير صحيح على الإطلاق... رغم أنه قد يكون بالطبع حكماً تم إطلاقه.

قلت وأنا أجدق فيها: حكماً؟

اشتد احمرار وجهها وقالت: لا أملك إلا أن أشعر بأن كل هذه الرسائل الغريبة وكل هذا الحزن والألم الذي سببته، إنما أرسل

لغرض معين.

قلت متجهماً: لقد أرسل لغرض بالتأكيد.

- كلا، كلا، لقد أسأت فهمي يا سيد بارتُن. لا أتحدث عن ذلك الإنسان الضال الذي كتبها... فلا بد أنه شخص منبوذ تماماً. أقصد أن العناية الإلهية هي التي سمحت بذلك؛ حتى توقفتنا وننبهنا إلى عبوبنا!

- كلا، لا يظلم الله الناس بغير ذنوب يرتكبونها؛ فإن لم تكن كما تقول تلك الرسائل فلا بد أن الذي كتبها إنسان شاذ.

- ما لا أستطيع فهمه هو لماذا يريد أي امرئ فعل مثل هذا الشيء؟

رفعتُ كفيَّ حيرةً وقلت: عقلية مريضة.

- يبدو امرأً محزناً جداً.

- لا يبدو لي محزناً، بل يبدو امرأً يستحق اللعنة. ولست بأسف على استخدام هذه الكلمة، فهذا ما أعنيه تماماً.

كانت الحمرة قد اختفت عن وجهتي الأنسة بارتُن، وأصبحنا شاحبتين تماماً؛ ولكن لماذا يا سيد بارتُن، لماذا؟ أية منعة يمكن للمرأة أن يحصل عليها من هذا الأمر؟

- هذا ما لا نستطيع فهمه - لا أنت ولا أنا - والحمد لله.

خفضت إميلي بارتُن صونها وقالت: يقولون إنها السيدة

كليت... ولكن لا يمكنني تصديق ذلك.

هزرت رأسي، فواصلت حديثها باهتياج: لم يحدث مثل هذا الشيء من قبل أبداً... لا أذكر حدوث أمر كهذا، كانت بلدة صغيرة سعيدة. ماذا كانت أمي العزيزة ستقول؟ لا بد أن نحمد الله إذ قرَّ عليها رؤية هذا الأمر.

وفكرتُ بأن السيدة بارتُن العجوز - من كل ما سمعته عنها - كانت امرأة قوية لا يمكن لشيء أن يؤثر عليها، ولعلها كانت ستستمع بهذا الحدث العثير.

أكملت إميلي حديثها: إنه أمر يحزنني كثيراً.

- ألم... ألم تتلقي شيئاً منها؟

احمرَّ وجهها كثيراً وقالت: أوه، كلا.. سيكون ذلك فظيماً!

أسرعتُ بالاعتذار لها، ولكنها ذهبت وهي تبدو منزعجة بعض الشيء. دخلتُ البيت لأجد جوانا تقف قرب النار في غرفة الاستقبال وكانت قد أشعلتها لتوها إذ كان المساء بارداً، وكانت تمسك بيدها رسالة مفتوحة.

عندما دخلتُ التفتتُ إليَّ بسرعة وقالت: جيري! وجدت هذه في صندوق الرسائل... وضعتُ في الصندوق باليد. إنها تبدأ بالقول: "آيتها المومس المعترجة..."

- ماذا تقول غير ذلك؟

قالت وقد كثرت تكشيرة عريضة: نفس الفذارات القديمة.

ثم ألقتهما في النار.

ولكني ففرت بحركة سريعة أملتُ ظهري فسحبتهُ قبل أن تشعل فيها النار وقالت: لا ترميها؛ فُد نحتاج إليها.

- نحتاج إليها؟

- لأجل الشرطة.

* * *

جاء المفتش ناث لرؤيتي في صباح اليوم التالي، ومنذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها أحببته كثيراً. كان كأفضل ما يكون عليه مفتش شرطة محلي؛ طويل القامة عسكري السميت، ذا عينيَّين هادئتين متأملتين، وأسلوب صريح متواضع.

قال: صباح الخير يا سيد بيرتن، أظن أنك تستطيع تخمين سبب مجيئي لرؤيتك.

- نعم، أظن ذلك، بخصوص تلك الرسالة.

أوماً برأسه موافقاً وقال: فهمتُ أنك تلقيت واحدة منها.

- نعم، يعد وصولنا إلى هنا مباشرة.

- ماذا قالت بالضبط؟

فكرت دقيقة، ثم كررت كلمات الرسالة بأكبر قدر ممكن من الدقة. أصغى مدير المباحث دون أدنى حركة من وجهه، ودون أن يسدي أي نوع من الانفعال. وعندما انتهيت قال: فهمت. هل

احتفظت بتلك الرسالة يا سيد بيرتن؟

- أنا آسف. لم أحتفظ بها؛ فقد ظننتها حدثاً منفرداً. كما كنا كفتنا
كفادمين جدد إلى المنطقة.

أوما مدير المباحث برأسه متفهماً ثم قال بالقتضاب: هذا مؤسف.

- ومع ذلك فقد تلقت أختي واحدة بالأمس، وقد منعتهافي
الوقت المناسب من إحراقها.

- أشكرك يا سيد بيرتن، هذا عمل حكيم منك.

ذهبت إلى مكنتي وفتحت قفل الدرج الذي وضعت فيه الرسالة،
فقد رأيت من غير المناسب أن تراها بارتريدج. أعطيت الرسالة
لناش، فقرأها متبجحاً، ثم رفع بصره وسألني: أكانت الرسالة الأولى
تشبه هذه من حيث المظهر؟

- أظن ذلك... حسبيما أذكر.

- نفس الاختلاف بين المغلف ونص الرسالة؟

- نعم. كان المغلف مكتوباً على الآلة الطابعة، أما الرسالة
فكانت من كلمات قُفِّست وأُصِّقت على الورقة.

أوما ناش برأسه ووضعها في جيبه، ثم قال: ترى، هل يمكنك
أن تأتني إلى مركز الشرطة معي يا سيد بيرتن؟ بإمكاننا أن نباحث
في الأمر هناك وسوف يوفر علينا هذا وقتاً كبيراً بالإضافة إلى تجنب
تداخل العمل.

- بالتأكيد. أتريدني أن أذهب الآن؟

- إن لم يكن عندك مانع.

كانت سيارة الشرطة تنتظر عند الباب، فانطلقنا بها إلى
المركز. قلت: هل تعتقد أن باستطاعتكم التوصل إلى حقيقة هذه
المسألة؟

أوما ناش برأسه والفتاً وقال: أوه، نعم، سوف نصل إلى
الحقيقة بالتأكيد. إنها مسألة وقت وروتين. مثل هذه القضايا تأخذ
وقتاً، ولكنها مضمونة الحل. إنها مسألة تضيق للاحتتمالات وصولاً
إلى القاعل.

- عن طريق استثناء أسماء معينة؟

- نعم. بالإضافة إلى الإجراءات الروتينية الأخرى.

- أتعني مراقبة صناديق البريد، وتفتحص آلات الطابعة
والصمات وغير هذه الأمور؟
ابتسم وقال: كما تقول.

في مركز الشرطة وجدت سيمتغن وغريفت قد سبقاني إلى
هناك، وقدماني لرجل طويل ذي فك طويل بارز بلبس الملابس
المعدنية ويدعى المفتش غريفز.

أوضح المفتش ناش قائلاً: لقد جاء المفتش غريفز من لندن
لمساعدتنا، فهو خبير في قضايا الرسائل المحبولة.

ابتسم المفتش غريفز ابتسامة حزينة، وفكرت في نفسي بأن
حياة نقضي في ملاحقة كساتي الرسائل المحبولة لا بد أن تكون

حياة كتيبة إلى أبعد الحدود، ومع ذلك أظهر المفتش غريفر نوعاً من الحماسة الكتيبة. قال بصوت عميق حزين ككليب الصبيد المحبب: هذه القضايا متشابهة كلها. سوف ندهش للتشابه في كلمات الرسائل والأشياء التي تقولها.

قال ناش: حدثت عندنا قضية منها قبل سنتين فقط، وقد ساعدنا المفتش غريفر فيها.

رأيت أن بعض تلك الرسائل كانت منشورة على الطاولة أمام غريفر، ومن الواضح أنه كان يتفحصها. قال ناش: تكمن الصعوبة في الحصول على الرسائل؛ فالباس إما أن يحرقوها أو أنهم لا يعترفون أصلاً بأنهم استلموها. أغيباء، ويخافون من التورط مع الشرطة... الناس هنا متخلفون.

قال غريفر: ومع ذلك لدينا عدد لا بأس به هنا ويمكننا العمل به.

أخرج ناش الرسالة التي أعطيها له من جيبه وألقاها أمام غريفر الذي ألقى عليها نظرة سريعة ثم وضعها مع الرسائل الأخرى قائلاً باستحسان: جميل جداً... حقاً هذا جميل جداً.

ما كنت أنا لأصف الرسالة تلك بهذه الطريقة، ولكني أحسب أن للخبراء وجهات نظرهم الخاصة، وقد أسعدني أن يستمتع أحدٌ بهذا الكم من الرسائل الفادحة البذبة الفاحشة.

قال المفتش غريفر: أعتقد أن لدينا ما يكفي لتبشير به عملنا، وسوف أطلب منكم أيها السادة أن تحضروا لنا أية رسائل تحصلون عليها على الفور. وأيضاً إذا سمعتم عن شخص آخر تلقى واحدة

منها... وأن تيدل أنت أيها الطيب - على وجه الخصوص - بين مرضاك جهلك لإقناعهم بالمجيء برسائلهم إلى هنا.

ثم قال وهو يفرز الرسائل المكمّنة أمامه: لدي واحدة وُجّهت إلى السيد سيمنغن استلمها قبل حوالي شهرين، وواحدة إلى الدكتور غريفيث، وواحدة إلى الأنسة غيتش، وواحدة مكتوبة إلى السيدة مَدج زوجة الحزار، وواحدة لحينتيقر كلارك الساقية في مطعم تري كراونز، والرسالة التي تلقتها السيدة سيمنغن، وهذه الرسالة الآن إلى الأنسة بيرمن... أوه، نعم، وواحدة أخذناها من مدير البنك.

قلت: إنها مجموعة تمثل كل الشرائع تماماً.

- ولها كلها مثل في القضايا الأخرى! هذه الرسالة هنا لا تختلف بشيء عن تلك التي كتبها بالعة القبعات تلك. وهذه الأخرى صورة طبق الأصل عن حملة رسائل محكومة شهدناها في نورثامبرلاند، وكانت كاتبها طالبة مدرسة في ذلك الوقت. ولعلي أقول أيها السادة إنني أود رؤية شيء جديد أحياناً، بدلاً من هذه الأساليب المكرورة نفسها.

تبنمتُ قائلاً: لا جديد تحت الشمس.

- هذا صحيح... لو كنتُ في مهنتنا لعلمت ذلك جيداً.

تهد ناش وقال: نعم، هذا صحيح.

ثم تساءل سيمنغن: هل توصلتم إلى رأي محدد بخصوص هوية الكاتب؟

تتخرج غريفز وألقى محاضرة صغيرة: توجد بين كل هذه الرسائل عوامل مشتركة معينة، وسوف أعددتها عليكم أيها السادة لعليها توحى لكم بشيء: إن نص الرسائل مؤلف من كلمات مركبة من حروف منفصلة ثم قصتها من كتاب مطبوع، وهو كتاب قديم أغلظه طبع حوالي العام ١٨٣٠. ومن الواضح أن الكاتب قد فعل ذلك لتجنب عطر التعرف عليه من خلال خط اليد، وهو أمر في غاية السهولة كما يعرف معظم الناس في أيامنا هذه؛ فمحاولات تغيير الخط لا تصمد أمام اختبارات الخبراء. لا توجد على الرسائل أو المغلفات بصمات أصابع لشخص محدد، وهذا يعني أن الرسائل قد مرت على أيدي موظفي البريد وأيدي من أرسلت إليهم؛ كما أن هناك بصمات أخرى، ولكن لا توجد بصمات تشترك فيها جميع الرسائل، مما يظهر أن الشخص الذي كتب الرسائل كان حريصاً على ارتداء القفازات. وقد طبعت العناوين على المغلفات الخارجية بواسطة آلة كاتبة بالية تماماً من نوع "رندسور ٧" يخرج فيها حرفاً الألف والثاء عن الخط المستقيم. ومعظم هذه الرسائل أرسلت من مكتب بريد البلدة أو أنها كانت توضع في صندوق البريد المتزلي باليد، ولذلك فمن الواضح أنها من أصل محلي. وقد كتبتها امرأة، ويرأي أنها امرأة في وسط العمر أو أكبر قليلاً من ذلك، وربما لم تكن متزوجة، رغم أن هذا ليس أكيداً.

ران علينا صمت مطبق بعض الوقت ثم قلت: إن الآلة الكاتبة هي أسهل السبل لديك، أليس كذلك؟ يحب ألا يكون كشفها صعباً في بلدة صغيرة كهذه.

هو غريفز رأسه بحزن وقال: أنت مخطئ في هذا يا سيدي.

قال المغفش ناث: من السهل جداً - لسوء الحظ - الوصول إلى الآلة؛ فهي آلة قديمة من مكتب السيد سيمغتن أهداها لجمعية المرأة، ويمكنني القول إن بإمكان أي امرئ أن يصل إليها هناك، فما أكثر السيدات اللاتي يذهبن إلى الجمعية في هذه البلدة!

- ألا يمكنك الحزم بشيء محدد من ال... من اللمسة الفنية كما تسمونها؟

أوما غريفز برأسه ثانية وقال: نعم، يمكن عمل هذا... ولكن هذه المغلفات طبعت كلها بواسطة شخص يستخدم أصبعاً واحداً.

- إذن فهو شخص غير معاد على استخدام الآلة الكاتبة؟

- لا، ما كنت لأقول ذلك. بل لنقل إنه شخص يتقن الطباعة ولكنه لا يريدنا أن نعرف هذه الحقيقة.

قلت ببطء: أيّاً كان كاتب هذه الرسائل فهو ماكر جداً.

قال غريفز: إنها ماهرة فعلاً يا سيد بيرتن، ماهرة فعلاً... نستخدم كل الحيل الواردة في هذا المجال.

قلت: ما كنت لأظن أن من شأن واحدة من هؤلاء النساء الفلاحات هنا أن تملك هذا الذكاء.

سعل غريفز وقال: أخشى أنني لم أوضح قصدي كما يجب؛ فهذه الرسائل كتبها امرأة مثقفة.

- ماذا؟ أكتبها "ليدي"؟

حزحت الكلمة من فمي رغباً عني. لم أكن قد استخدمت

كلمة "ليدي" منذ سنوات لكنها صدرت الآن بصورة آلهة، وقد عاد صداها من أيام طويلة مضت تذكرت فيها صوت جدتي الضعيف وهو يقول لي: "إنها بالطبع ليست ليدي يا عزيزي".

فهم ناش ما قصده على القور؛ فكلمة "ليدي" ما تزال تعني له شيئاً، ولذلك قال: ليس ضرورياً أن تحمل لقب ليدي، لكنها بالتأكيد ليست امرأة قروية. إنهن أميات هنا في الغالب ولا يعرفن النهضة، ولا يستطعن -قطعاً- التعبير عن أنفسهن بطلاقة.

كنت صامتاً لأنني صدمت؛ فالمجتمع هنا كان صغيراً جداً، وكنت قد نصورت في اللاوعي أن كاتبة الرسائل امرأة مثل السيدة كليت، امرأة متكلفة مأكرة بنصف عقل.

عبر سيمغتن عن أفكاره، إذ قال بحدة: وهذا يحصر الأمر بين ست نساء واثنتي عشرة في القرية كلها!

قال ناش: هذا صحيح.

صاح سيمغتن: لا أستطيع تصديق هذا. ثم قال باذلاً بعض المجهود وهو ينظر أمامه مباشرة وكأنه أحس أن مجرد صوت كلماته كان مُخرجاً: لقد سمعتم ما قلته في التحقيق، ولئن ظننتم أن تلك الشهادة كانت بدافع الرغبة في حماية سمعة زوجتي فإني أود أن أكرر الآن بأنني مقتنع تماماً بأن موضوع الرسالة التي تلقيتها زوجتي كان ملفقاً تماماً. إنني أعرف أنه ملفق. كانت زوجتي امرأة حساسة جداً... ويمكنكم وصفها بالمبالغة بالحشمة في بعض الحوائك، وكان من شأن مثل هذه الرسالة أن تشكل صدمة كبيرة

لها، بالإضافة إلى أنها كانت معتلة الصحة.

كانت استجابة غريغز فورية: هذا هو المرحح يا سيدي... ليس في أي من هذه الرسائل ما يدل على معرفة وثيقة. إنها مجرد اتهامات عمياء، ولا توجد أية محاولة للابتزاز، كما لا يظهر فيها أي تعصب ديني كالذي نشهده أحياناً. إن موضوع الرسائل ينحصر في الجنس والحقد، وسوف يعطينا هذا مؤشراً جيداً باتجاه كاتبتها.

تهض سيمغتن، ورغم ما كان ينصف به الرجل من برود فقد كانت شفتاه ترتجفان. قال: أرجو أن تتمكنوا قريباً من اكتشاف الشيطانة التي كتبت ذلك. لقد قلت زوجتي كما لو أنها غرست سكيناً في جسدها. لا أدري ما هو شعورها الآن؟

ثم خرج تاركاً ذلك السؤال دون إجابة.

سألت: ما هو شعورها يا غريغز؟

بدلي لي أن الإجابة عن هذا السؤال كانت ضمن دائرة اختصاصه. قال: الله أعلم... ربما كانت نادمة، ولكنها قد تكون أيضاً مستمتعة بقوتها، وربما كانت وفاة السيدة سيمغتن قد أشيعت هوسها.

قلت وأنا أرعد: أرجو ألا تكون كذلك، وإلا فإنها ست...

ترددت، فأكمل ناش الحملة عني: مستحاول ثانية؟ سيكون هذا يا سيد بيرتن أفضل شيء يمكن أن يحدث بالنسبة لنا؛ إذ لا نسلم الحرة في كل مرة.

صحت: ستكون مجنونة لو أنها واصلت عملها هذا.

قال غريفيز: سوف تواصل؛ فهم يواصلون دائماً، إنها رذيلة لا يستطيعون تركها.

هزرت رأسي وأنا أرتعد. سألتهم إن كانوا بحاجة إلي، فقد أردت الخروج إلى الهواء الطلق؛ إذ بدا الجو مليداً بغيوم الشر.

قال ناش: ليس من شيء آخر يا سيد بيرتر. كن حذراً فقط واعمل كل ما يمكنك من دعاية... أي النصح الحميم بأن يبلغونا عن أية رسالة يتلقونها.

أومأت برأسي وقلت: أعتقد أن كل من في القرية قد استلم الآن واحدة من هذه الرسائل المفردة.

قال غريفيز وقد أمال رأسه الخرس جاتياً: ترى، ألا تعرف بالتحديد شخصاً لم يتلق رسالة من هذه؟

- يا له من سؤال غريب! لا يُعقل أن يفضي لي السكان بشكل عام بأمراتهم.

- كلا، كلا يا سيد بيرتر، لم أقصد هذا. لقد نسألت فقط إن كنت تعرف -تجديداً- أي شخص أنت واثق تماماً أنه لم يتلق رسالة مجهولة.

ترددت وقلت: أنا في الحقيقة أعرف بمعنى ما. ثم كررت حديثي مع إميلي بارتر وما قالته لي.

تلقي غريفيز المعلومة بوجه خالي من أي تعبير، وقال: حسناً، قد يكون هذا مفيداً. سأسجله.

خرجت مع أوين غريفيث وكانت شمس العصر ساطعة، وفور أن أصبحنا في الشارع قلت بصوت مرتفع: أهذا مكان يأتي إليه الرجل ليستلقي تحت شمسهِ ويعالج جروحهِ؟ إنه مليء بالسم القاتل رغم أنه يبدو هادئاً وريئاً كحضة عدن. ثم سألت: قل لي يا غريفيث، هل يعرف الشرطة شيئاً؟ هل لديهم أية فكرة؟

- لا أعرف. إن للشرطة أسلوباً فنياً رائعاً؛ إنهم -من حيث الظاهر- صريحون جداً، ومع ذلك لا تفهم منهم شيئاً.

- نعم، ناش رجل لطيف.

- وهو رجل كفء أيضاً.

قلت يشي من الانتهام: إن كان في القرية شخص معتوه فأنت من يجب أن يعرفه.

هز غريفيث رأسه. بدا محبطاً، ولكنه بدا أكثر من ذلك... بدا قلقاً. ونسألت إن كان لديه شك ما.

كنّا نسير في الشارع العام. وقفت عند باب وكلاء البيت الذي نسكنه وقلت: أظن موعد دفع القسط الثاني من الأجرة قد حان، وهو يُدفع مقدماً. إنني أفكر في دفع القسط والرحيل -أنا وجوانا- مباشرة، وهكذا سأحسر بقية الأجرة.

قال أوين: لا ترحل.

- ولم لا؟

لم يجتبي. ولكنه قال ببطء وبعد وقت قصير: أحسبك علي

صواب في النهاية؛ إن لايمستوك ليست مكاناً صحيحاً في الوقت الحالي. وربما... ربما آذنتك أو... أو آذنت أحتك.

- لا شيء يؤدي جواتاً فهي ضئيلة. أنا الضعيف... إن هذا الأمر يصيبني بالقرب إلى حد ما.

- إنه يصيبني أنا بالقرب.

فتحت باب وكلاء البيت وقلت: ولكني لن أرحل. الفضول البدائي أقوى من الحين؛ أريد أن أعرف الحل.

ثم دخلت فنهضت امرأة كانت تطيع وجاءت نحوي. كان شعرها متجعداً، وقد ابتسمت ابتسامة متكلفة، ولكني وجدت بها أكثر ذكاء من تلك الفتاة ذات النظارة التي كانت تشرف سابقاً على المكتب الخارجي.

بعد دقيقة أو اثنتين طاف بهذهني خاطر مألوف بشأن هذه المرأة؛ فقد كانت الأنسة غينش الموظفة التي كانت تعمل سابقاً عند السيد سيمنتن. علّقت على هذه الحقيقة قائلاً: كنت تعملين في مكتب محاماة السيد سيمنتن، أليس كذلك؟

- نعم، نعم. لكني رأيت أن من الأفضل لي المغادرة. هذه وظيفية جيدة رغم أن راتبها ليس جيداً كثيراً. ولكن ثمة أشياء أكثر قيمة من المال، ألا تعتقد ذلك؟

- دون شك.

همست الأنسة غينش قائلة: تلك الرسائل القليلة. تلقيت واحدة

منها تتحدث عني وعن السيد سيمنتن. أوه، كانت رهيبة، وتحتوي على كلمات قطيعة جداً وأنا أعرف واجبي ولذلك أخذتها إلى الشرطة، رغم أن ذلك لم يكن أمراً ساراً بالنسبة لي، أليس كذلك؟

- بلى، بلى. ليس أمراً ساراً أبداً.

- لقد شسكروني وقالوا إنني فعلت الصواب، ولكنني قلت نفسي بعد ذلك: إذا كان الناس يتحدثون بهذا الأمر (والواضح أنهم كانوا يتحدثون دون شك، ولأن من أين حصل كاتب الرسائل على فكرته تلك؟) فعلياً أن أتجنب حتى مظاهر الشبهة، رغم عدم وجود أي خطأ في العلاقة بيني وبين السيد سيمنتن.

أحسست بشيء من الحرج وقلت: طبعاً، طبعاً لا يوجد خطأ.

- لكن الناس يفكرون بطريقة سيئة ولهم - للأسف - عقول شريرة!

ورغم أنني حاولتُ حرجاً نجنب النظر إليها إلا أن عيني قابلتها عينيها واكتشفت اكتشافاً غير سار أبداً! كانت الأنسة غينش مستمتعة تماماً بالموضوع! وكان قد سبق لي اليوم أن التقيت بشخص كانت ردود أفعاله إزاء الرسائل المعلقة من التوقيع تتسم بالاهتمام الممتنع، ذلك هو المفتش غريفز. ولكن حماسة المفتش غريفز كانت حماسة مهينة، أما استمتاع الأنسة غينش فقد وجدته موحياً ومرفقاً.

ونحطرت بهذهني المندهن فكرة سرية: هل كتبت الأنسة غينش هذه الرسائل بنفسها؟

* * *

عندما تحل بها أية صدمة بعقضة يتوجب عليها مواجهتها. المهم في الأمر كله هو أنها من هذا النوع من النساء. مع أن المرأة ما كان ليخمن ذلك فيها؛ لقد بدت لي دوماً امرأة أنانية غبية بعض الشيء، مع تمسك قوي بالحياة. ما كان المرء ليخمن أنها من النوع الذي يشله الذعر والخوف... ولكنني بدأت أدرك فلة معرفتي بالناس.

- ما زالت أشعر بالقضول لمعرفة من كتبت تعين بقولك "مسكينة".

حذقت بي وقالت: المرأة التي كتبت الرسائل بالطبع.

قلت بحقاً: لا أظنني أشعر بأي تعاطف معها.

مالت السيدة كالثروب إلى الأمام، ووضعت يدها على ركبتي وقالت: ولكن ألا تدرك... أليس بوسعك الشعور؟ استخدم خيالك... فكر في مدى التعاسة واليأس المطبق اللذين يدفعان شخصاً للجلوس وكتابة هذه الأشياء. كيف يعاني مثل هذا الشخص من الوحدة والقطيعة التامة مع عالم البشر... يكون السم قد بلغ أعظم أعماقه، ولم يجد ذلك السم مخرجاً إلا بهذه الطريقة؛ لذلك أشعر بشيء من تأنيب الذات. لقد عاني أحد أهالي هذه البلدة من بؤس شديد ولم أعرف عن ذلك شيئاً... كان يجب أن أعرف. لا يمكن للمرأة أن يتدخل بإجراءات عملية... أنا لا أفعل هذا أبداً، ولكن ذلك البؤس الداخلي الأسود أشبه بذرارع التهتت وتورمت حتى غدت سوداء متنفخة، ولو استطاع المرء إجراء فتحة فيها لكان ممكناً أن يخرج السم دون أذى. نعم، إنها مسكينة، مسكينة.

ثم تهتت لكي تذهب. ولم أشعر بأنني أتفق معها بالرأي؛

الفصل السابع

حين عدت إلى البيت وجدت السيدة كالثروب جالسة تحدث مع جوانا، وقد بدت لي شاحية ومريضة. قالت: كان هذا صدمة غتيفة لي يا سيد بيرتن. مسكينة، مسكينة.

قلت: نعم، من القطيع التفكير بشخص دُفع إلى الانتحار.

- أوه، هل تفقد السيدة سميفتن؟

- ألم تكوني تقصدينها؟

هزت السيدة كالثروب رأسها بالنفي وقالت: إن المرأة بأسف عليها بالطبع، ولكن ذلك كان سيحدث علي أية حال، أليس كذلك؟

فالت جوانا ببرود: حقاً؟

التفت السيدة كالثروب إليها: أوه، أظن ذلك بما عزيرتي. إن كنت ترين في الانتحار طريقة للهروب من المتاعب فإن نوعية هذه المتاعب لا تهم كثيراً؛ فقد كان من شأنها أن تفعل نفس الشيء

فلم أكن لأحس بأي تعاطف كان مع كاتبة هذه الرسائل المجهولة،
ولكني سألتها بفضول: هل لديك أية فكرة يا سيده كالثروب عن
هوية تلك المرأة؟

التفتت إلي بعينيها الصغيرتين الحاليتين وقالت: أستطيع أن
أخمن. ولكن قد أكون مخطئة، أليس كذلك؟ ثم عرجت مسرعة
من الباب قبل أن تظلم منه ثانية لتسأل: قل لي يا سيد بيرتن، لماذا لم
تتزوج؟

لو كان السائل أحداً غير السيدة كالثروب لكان سؤاله وقاحة،
أما في حالتها فإن المرأة يشعر أن هذه الفكرة قد خطرت لها فحاة
وأرادت فعلاً أن تعرف.

قلت وأنا أستجمع شتات نفسي: لنقل إنني لم ألتق بالمرأة
المناسبة؟

- يمكننا قول ذلك، ولكنه لن يكون رداً جيداً، لأن كثيراً من
الرجال تزوجوا نساء غير مناسبات.

ثم غادرت هذه المرأة بالفعل، فقالت جوانا: أظن حقاً أنها
محتونة، ولكني أحبها. أهل القرية هنا يخافونها.

- وكذلك أنا، قليلاً.

- ألا تترك لا تعرف ما هو تصرفها القادم؟

- نعم، كما أن في تخميناتها ذكاء لا مبالياً.

قالت جوانا: أظن حقاً أن من كتب تلك الرسائل بانس جداً؟

- لا أعرف ما الذي تفكر فيه أو تشعر به تلك اليد الآتية،
كما أنني لا أهتم لذلك. إن ضحاياها هم الذين أسف عليهم.

يبدو لي غريباً الآن أننا - في تأملاتنا للعقلية التي تقف خلف
ذلك القلم المسموم - أغفلنا أكثر التفسيرات وضوحاً. فقد صورها
غريفيث على أنها ربما كانت متبهجة جذلي بما تفعله، أما أنا فقد
تصورتها امرأة يحزنها الندم وقد هالها ما حدث بها، في حين رأيت
فيها السيدة كالثروب امرأة تعاني. ومع ذلك فنحن لم نفكر في ردِّ
الفعل الواضح والمحتمل... أو ربما لم أفكر أنا فيه. وردُّ الفعل ذاك
هو الخوف؛ لأن الرسائل انتقلت - مع وفاة السيدة سيمنتن -
لتدخل ضمن تصنيف جديد. لا أدري كيف كان الوضع القانوني،
وأظن أن سيمنتن يعرف ذلك، ولكن من الواضح أن وقوع وفاة
تبيح لهذا الفعل قد جعل موقف كاتب الرسائل أكثر خطورة من
قبل؛ فلم يعد ممكناً تمرير هذه الرسائل على أنها مجرد مزاح إذا ما
اكتشفت هوية الفاعل. وقد تشط الشرطة، وتسم استدعاء خبير من
شرطة سكوتلانديارد؛ وبهذا أصبح من الجسوي الآن للكاتب
المجهول أن يبقى مجهولاً.

* * *

وإذا ما سلمنا أن الخوف هو ردُّ الفعل الأساسي، فإن ذلك
يستتبع أموراً أخرى. وقد كنت غافلاً تماماً عن تلك الاحتمالات
أيضاً، رغم أنها كان يجب أن تكون واضحة.

نزلنا - أنا وجوانا - لتناول الإفطار صباح اليوم التالي في ساعة
متأخرة؛ أعني وفق عادات قرية لايمستوك، فقد كانت الساعة

التاسعة والنصف، وهي ساعة كانت حوانا فيها - وهي في لندن -
توشك أن تفتح عينيها، وربما كانت عيني أنا أيضاً ما تزالان فيها
مغمضتين. ومع ذلك عندما سألتنا بارترديدج: "أتريدان الإفطار
الساعة الثامنة والنصف، أم الساعة التاسعة؟" لم تكن لدى أي منا
الجرأة لاقتراح موعد متأخر أكثر من ذلك.

وقد أزعجتني رؤية إيمي غريفيث تقف على عتبة الباب تحدث
مع ميغان. وعندما رأنا أطلقت العنان للسائحين بجويتهما المعتادة:
مرحباً أيها الكسالى! إنني مستيقظة منذ ساعات.

كان ذلك بالطبع هو شأنها الخاص. لا شك أن على الطبيب
أن يتناول إفطاره مبكراً، وعلى أخته - إذا ما أرادت القيام بواجبها -
أن تنصب له الشاي أو القهوة. ولكن هذا لا يبرر لها أن تأتي
وتتدخل في نوم حيران أكثر ميلاً للنوم؛ فالتاسعة والنصف ليست
موعداً لزيارات الصباح.

انسلت ميغان إلى داخل البيت ثم إلى غرفة الطعام لتعود إلى
إنظارها الذي أحسب أن إيمي قد قطعته عليها. قالت إيمي
غريفيث: لقد قلت إنني لن أدخل.

قالتها رغم أنني لا أعرف لماذا يُعَدُّ إجبار أهل البيت على المحي
لتحدث عند عتبة الباب مسألة اللطف وأقل كلفة من الحديث داخل
البيت. ثم أضافت: أردت فقط سزال الأنسة بيرتن إن كان لديكم
أية حضارة فائضة عن الحاجة لتضعها في الكسكس التابع للصليب
الأحمر على الشارع العام ونبيعها للأغراض الخيرية. إن كان عندكم
فسوف أطلب من أوين أن يمر لأخذ الحضارة معه في السيارة.

قلت: أنت تعارسين أنشطتك في وقت مبكر جداً.

- لا يقوز بالأمور إلا المبكرون. الفرصة أفضل للعشور على
الناس في هذا الوقت من الصباح... سأذهب الآن إلى منزل السيد
باي، ثم علي الذهاب إلى برنتن عصرًا من أجل الكشف.

قلت: إن حيوبتك تُشعري بمدى تعبي.

وفي تلك اللحظة رن جرس الهاتف، فعدت إلى الصالة للرد
عليه فأركا حوانا تتمتع بارتياح عن الفاصوليا الفرنسية وغير ذلك
من الحضارة، كاشفة عن جيلها في هذا الموضوع.

قلت بعد أن رقت سماعة الهاتف: نعم.

سمعت على الطرف الآخر صوتاً لاهناً مرتبكاً، ثم قال صوت
أنوي مرتاب: أوه!

كررت القول على سبيل التشجيع: نعم؟

قال الصوت ذو الخنة مرة أخرى: "أوه"، ثم سأل: هل
هذا... أقصد... أهذا منزل لبتل فيرز؟

- نعم، هذا لبتل فيرز.

- أوه!

بدا واضحاً أن هذه "الأوه" كانت لازمة البدء في كل جملة.
سأل الصوت بحذر: أيمكنني التحدث مع الأنسة بارترديدج؟

- بالتأكيد. أقول لها من؟

- أوه، أخبرها أنني أغتيس... أغتيس وُدل.

- أغتيس وُدل؟

- تماماً.

وضعت السماعة مقاوماً إغراءً يدفعني لأن أسألها: "ماذا يقربك بعلوط؟"، وناديت باتجاه الطابق العلوي حيث كنت أسمع صوت بارتريديج وهي تؤدي عملها: بارتريديج... بارتريديج.

ظهرت بارتريديج عند أعلى الدرج حاملة ممسحة طويلة بيدها وحلف سلوكها المؤدب دائماً نظيرةً كأنها تقول "ما الأسر هذه المرفقة؟". ولكنها قالت: نعم يا سيدي؟

- أغتيس وُدل فريدك على الهاتف.

- ماذا يا سيدي؟

رفعت صوني قائلاً: أغتيس وُدل.

- أغتيس وُدل... ماذا عماها تريد الآن؟

ألقى بارتريديج بمسحتها وقد تغيرت مسحتها كثيراً، وأسرعت تنزل الدرج بكثير من الانفعال، أما أنا فعدت إلى غرفة الطعام دون تطفل حيث كانت ميغان تأكل اللحم بنهم. وخلافاً لإيمي غريفيث لم تكن ميغان تبدي وجهاً صوباً متفانلاً، والحقيقة أنها ردت على تحية الصباح بفظاظة وأكملت أكلها بصمت.

فتحت صحيفة الصباح وبعد دقائق دخلت جوانا وهي تبدو

مرهقة وقالت: ووه! إنني متعبة جداً، وأظنني كسفت عن جهلي الكامل بالخضار ومواعيد زراعتها. ألا توجد فاصولية في هذا الوقت من العام؟

قالت ميغان: الفاصولية في شهر آب.

ودت جوانا مداقعة: إننا نحصل عليها في لندن في أي وقت.

قلت: تلك فاصولية معلية يا مغفلتي الجميلة، وتكون مبردة ومحزنة على السفن وتأتي من الأطراف البعيدة للنديا.

قالت جوانا: مثل العاج والقردة والطواويس؟

- بالضبط.

قالت جوانا متأملة: أحب أن يكون لدي طاووس.

قالت ميغان: أما أنا فأفضل اقتناء فرد خاص لتربيته.

قالت جوانا وهي تقشر برتقالة وتتأمل: ترى كيف يكون شعوري لو كنت إيمي غريفيث، بكل تلك القوة والحيوية والتمتع بالحياة. أتظنها تشعر قط بالتعب أو الحزن أو الاكتئاب؟

قلت لها إنني متأكد تماماً من أن إيمي غريفيث لم تكتب أبداً، ثم تبعته ميغان إلى الشرفة خارج الغرفة. وحين وقفت هناك أملاً غلبوني سمعت بارتريديج وهي تدخل غرفة الطعام من الصالة وسمعتها وهي تقول متحممة: هل يمكنني الحديث معك لحظة يا سيدي؟

وفكرت في نفسي قائلاً: يا إلهي، أرحس ألا تكون بارتريديج

بصدد إشعارنا بتركها العمل، لأن إميلي بارتن مستزعج منا كثيراً إذا حدث ذلك.

أكملت بارتريدج: أريد الاعتذار يا سيدتي لأن واحدة اتصلت بي هاتفياً، ما كان ينبغي للفتاة التي خابرتني أن تفعل ذلك؛ فأنسا لم أعتد أبداً استخدام الهاتف أو السماح لأصدقائي بإزعاج ساكني البيت به، وإني آسفة فعلاً لحدوث ذلك، ولاضطرار سيدي للرد على الهاتف وغير ذلك.

قالت جوانا مهددة: لا بأس بذلك يا بارتريدج، لم لا يستخدام أصدقائك الهاتف إن كانوا يريدون الحديث معك؟

كان بوسعي أن أشعر - رغم أنني لا أرى الحدث - بأن وجه بارتريدج غدا أكثر صرامة من قبل وهي تجيب بيروود: إن هذا الأمر لم يحدث معي في هذا البيت أبداً. ما كانت الأنسة إميلي لتسمح بذلك أبداً، وكما قلت فإني آسفة لحدوث ذلك. لكن أغنيس وُدل - وهي الفتاة التي خابرتني - كانت مزعجة، وهي صغيرة أيضاً، ولا تعرف ما هي الأصول في بيوت المحترمين.

فكرت في نفسي قرحاً: هذه واحدة عليك يا جوانا.

أكملت بارتريدج: إن أغنيس هذه التي خابرتني كانت تعمل معي هنا تحت إمرتي. وكانت يومها في السادسة عشرة من عمرها، وقد جاءت من ملحق الأيتام مباشرة. ولم يكن لها منزل أو أم أو أي أقارب لتقديم النصيحة لها، ولذلك فقد اعتادت أن تأتيني، حيث أقدم لها النصيحة.

قالت جوانا: "نعم؟"، ثم انتظرت. وبدأ واضحاً أن القادم من الكلام أكثر مما مضى منه.

- ولذلك فإني أتحراً يا سيدتي وأطلب منك السماح لأغنيس بالمجيء إلى هنا لشرب الشاي معي مساء هذا اليوم في المطبخ؛ إنه يوم عطلتها ولديها شيء تريد استشارتي بشأنه. ما كنت لأفكر في مثل هذا الطلب في الحالات المعتادة.

قالت جوانا متحيرة: ولماذا لا يأتي أحد لشرب الشاي معك؟

انصغبت بارتريدج في وفقتها عند هذا السؤال - وهو ما قالت جوانا فيما بعد - وهدت مرعبة وهي ترد: لم يكن هذا من عادة هذا البيت أبداً. لم تكن السيدة باوتن العجوز تسمح للزوار أبداً بدخول المطبخ، إلا إذا كان ذلك في يوم عطلتنا، حيث كانت تسمح لنا باستقبال الصديقات بدلاً من الخروج. ولكن فيما عدا ذلك وفي الأيام العادية لم تكن تسمح، وقد استمرت الأنسة إميلي على نفس النهج القديم.

إن جوانا لطيفة جداً مع الخدم، وكان معظمهم يحبها، ولكنها لم تستطيع استمالة بارتريدج أبداً. قلت لها عندما خرجت بارتريدج وانضمت جوانا إلي على الشرفة: لا فائدة من ذلك يا عزيزتي؛ إن تعاطفك وتساهلك ليسا موضع تقدير. يجب اتباع العادات القديمة المتعطرة مع بارتريدج والإبقاء على طريقة تسيير الأمور كما ينبغي في بيوت الناس المحترمين.

قالت جوانا: لم أسمع عن مثل هذا الاستبداد في عدم السماح

لهم برؤية أصدقائهم. إنني أفهم كل شيء يا حيري، ولكن لا يمكن أن يحبوا معاملتهم كما يُعامل العبيد السود.

- واضح أنهم يحبون ذلك. على الأقل أمثال بارترديد في هذا العالم.

- لا أستطيع تصور سبب عدم حبها لي. معظم الناس يحبوني.

- ربما كرهتك لأنك لست ربة بيت قديرة. أنت لم تمرري أصيحت أبداً على أحد الرفوف لتتفحصي إن كان عليه غبار أم لا. إنك لا تنظرين إلى ما تحت السحادة، ولا تسألين ما الذي يحدث لبقايا كعكة الشوكولاته، كما أنك لا تظليين أبداً فطائر الخبز الشهية.

تأففت جوانا ثم أكملت بحزن: إنني فاشلة في كل شيء هذا اليوم. ازدرتني أيمي لجهلي في مملكة الخضار، ووبختني بارترديد لأتني إنسانة. سأخرج الآن إلى الحديقة لأكل الديدان!

- لقد سبقتك ميجان إلى هناك.

ذلك أن ميجان كانت قد تحولت في الخارج قبل ذلك بوضع دقائق، وعادت الآن لتقف دون هدف في وسط المرحلة كطائر متأمل ينتظر طعامه. ومع ذلك عادت إلينا وقالت فجأة: يجب أن أعود إلى البيت اليوم.

فوجئت وقلت: ماذا؟

أكملت وقد احمر وجهها ولكن بتصميم مرتبك: كانت استضافتكما لي هنا موقفاً رائعاً منكما، وأظن أنني أزعجتكما تماماً،

ولكني استمتعت برفقتكما كثيراً. ولا بد لي من العودة الآن إلى بيتي لأنه بيتي رغم كل شيء ولا يستطيع المرء البقاء بعيداً عن بيته إلى الأبد، ولذلك أظن أنني سأذهب هذا الصباح.

حاولت - أنا وجوانا - إقناعها بالعدول عن قرارها، ولكنها كانت مصممة تماماً، وفي نهاية الأمر أخرجت جوانا السيارة من المراب وصعدت ميجان إلى الدور العلوي ثم نزلت بعد دقائق وقد حزممت أمتعتها من جديد. وبدا أن الشخص الوحيد الذي سره رحيلها هو بارترديد التي كادت أن ترسم ابتسامة على وجهها المتجهم؛ فهي لم تحب ميجان كثيراً.

كنت أف في وسط المرحلة عندما عادت جوانا. وعندما رأت وقلتي ذلك سألتني إن كنت أظن نفسي ساعة شمسية أو مزولة. قلت: لماذا؟

- تقف هناك كتمثال حديقة، إلا أننا لا نستطيع وضع شيء عليك يحدد الساعات الشمسية. كنت تبدو مثل الرعد!

- أنا متعكر المزاج؛ بدأت صباحي - أولاً - بإيمي غريفيث..

تمتعت جوانا بجملة معترضة قاللة: يا إلهي! أكان لزاماً علي أن أنحدث عن تلك الحصارا

أكملت أنا حديثي قائلاً: ثم جاء خروج ميجان. لقد فكرت في أخذها في زهرة على الأقدام إلى ليغ تون.

- وأحسب أنك كنت ستأخذ معك طوق الكلب ورسته؟

- ماذا؟

كررت حيواناً كلامها بصوت مرتفع وواضح وهي ذاهبة إلى حديقة المطبخ: قلت: مع طوق الكلب ورسنه! لقد فقد السيد كلبه، هذه هي مشكلتك الآن!

* * *

أعترف بأنني انزعجت من الطريقة الفجائية التي غادرتنا بها ميغان. ربما ملّت منّا فجأة؛ فالحياة معنا لم تكن -في نهاية الأمر- حياة مسلية لفتاة مثلها. وسمعت حيواناً يعود فتحركت بسرعة بعيداً حتى لا أسمع منها مزيداً من الملاحظات الوقحة عن الساعات الشمسية.

جاء أوين غريفيث في سيارته قبل موعد الغداء بقليل، وكان البستاني ينتظره ومعه منتجات الحديقة اللازمة. وبينما كان البستاني آدمز يضع الخضار في السيارة دعوتُ أوين إلى البيت لتناول عصير، ولم يقبل البقاء لتناول الغداء.

عندما جئت حاملاً العصير وجدت حيواناً وقد بدأت تؤدي عملها. لم تكن نمة مؤشرات لغداء الآن؛ كانت قد كوّمت نفسها في زاوية الأريكة باطمئنان وراحت تطرح عليّ أوين أسئلة عن عمله وإن كان يحبه كطبيب عام، وما إذا كان من الأفضل له لو تخصص في حقن معين. وسمعتها تعبر عن رأيها بأن عمل الطبيب هو أحد أروع الأشياء في الدنيا.

وكانت ما كانت الملاحظات على حيواناً فإنها تبقى مستمعة رائعة. وبعد إصغافها للكثير الكثير من العياقة الواعدين وهم يخبرونها كيف لم ينالوا التقدير المطلوب، فإن استماعها إلى أوين

غريفيث كان أمراً سهلاً. وهو -بدوره- انطلق مسترسلاً يحدثها عن بعض الأوقات الحسدية أو ردود الأفعال المرضية مستخدماً عبارات علمية متخصصة لا يستطيع فهمها إلا طبيب.

بدأت حيواناً مهتمة جداً، وأحسست -للمحظة- بغصة نأنيب للضمير. كان ذلك تصرفاً سيئاً جداً من حيواناً؛ فغريفيث أطيب من أن يُعَيَّب به على هذا النحو. إن النساء اللواتي كبد عظيم!

ثم نظرت إلى غريفيث بطرف عيني، بأدق الطويل المحدد ووضع شفتيه المتجهج، ولم أعد متأكداً كثيراً من أن حيواناً مستنجد فيما نريده في نهاية الأمر. وعلى أية حال فلا ينبغي للرجل أن يضع نفسه موضع سخرية المرأة، ولو فعل لكان ذلك شأنه وحده.

قالت حيواناً: أرجو أن تغير رأيك وتبقى معنا على الغداء يا دكتور غريفيث.

واحمر وجه غريفيث قليلاً وقال إنه كان ليقبى لولا أن أخوته تنتظر عودته، فقالت حيواناً بسرعة: تستصل بها هاتفاً وتشرح لها الأمر.

ذهبت إلى الصالة لتصل بالهاتف، وأظن أن غريفيث بدأ مضطرباً بعض الشيء، وقد حطرت بيالي أنه ربما كان خائفاً قليلاً من أخوته. وما لبثت حيواناً أن عادت وهي تبسم وقالت إنها قد سوت المسألة، وبقي أوين غريفيث حتى الغداء وبدأ مستمتعاً. تحدثنا عن القمص والممرجات وعن السياسة الدولية والموسيقى والرسم والعمارة الحديثة.

لم نتحدث عن لايمستوك على الإطلاق، ولا عن الرسائل

المجھولة أو عن انتحار السيدة سيمغتن. نحنينا كل شيء تماماً، وأعتقد أن أولين غريفيث كان سعيداً فقد أشرق وجهه الأسمر الحزين، وأظهر عقلية تثير الإهتمام. وعندما غادرنا قلت لجوانا: هذا الرجل أفضل من أن تجعله هدفاً للأعبيك.

قالت جوانا: هذا رأيك. أنتم معشر الرجال تدافعون عن بعضكم البعض!

- لماذا كنت تمنعين لاصطياده يا جوانا؟ أهي الخيلاء المحروجة؟

- وبما.

* * *

كان مقرراً أن نذهب عصر ذلك اليوم لتناول الشاي مع الأنسة إميلي بارتن في شقتها في القرية.

ذهبنا إلى هناك مشياً على الأقدام، فقد شعرت الآن بالقدره على تسليق الهضبة عند العوده. وبدو أننا وضعنا لظرفتنا وقتاً أطول مما ينبغي، فوصلنا في وقت مبكر. فقد فتحت لنا الباب امرأة حلويله القامة بارزة العظام قاسية المظهر، وأخبرتنا بأن الأنسة بارتن لم تصل بعد، وقالت: ولكني أعرف أنها تنتظر كما، ولذلك أرحو أن تنفصلاً بالدخول.

كان واضحاً أن هذه هي فلورنس المخلصه. تبعناها إلى الطابق العلوي وفتحت باب إحدى الغرف وأشارت إلينا بالدخول إلى غرفة جلوس كانت تبدو مريحة رغم كثرة أثاثها. وشككت بأن بعضاً من هذا الأثاث قد أخذته معها من ليتل فريز.

بدأت المرأة فخوره بغرفتها، فقد سألت: أليست غرفة جميله؟

قالت جوانا بحمامه: جميله جداً.

- أنا أحرص على راحة الأنسة بارتن قد استطاعتي. رغم أنني لا أستطيع أن أخدمها كما أحب وبالطريقه التي يجب أن تكون. كان يجب أن تكون في بيتها، تعيش بشكل مناسب، وألا تتركه لتعيش في شقة.

نقلت فلورنس - وقد بدت مثل نين - بصرها بيني وبين جوانا بنظرة توبيخ. وأحسست بأن اليوم لم يكن يوم سعدنا؛ فقد وُيخبت إميلي غريفيث شقيقتي جوانا ووبختها أيضاً بارتريدج وما هي فلورنس التنين توبختنا نحن الاثنين. وأضاعت تقول: عملت خادمة استقبال طيله خمس عشرة سنة هناك.

قالت جوانا بدافع من الإحساس بالظلم: لقد أرادت الأنسة بارتن تأجير البيت، وأدرجته للإيجار عند الوكلاء.

ردت فلورنس: كانت مجبره على ذلك. وهي تعيش حياة مقتصده جداً وحريصه، ولكن حتى مع ذلك فإن الحكومه لا يمكن أن تتركها وشأنها! إنها مضطرة للإبقاء على وضعها المعيشي كما هو.

هزرت رأسي بحزن، فأكملت فلورنس: كانت توجد أموال كثيره في زمن السيدة المعوز. ثم ماتت هي وماتت بناتها الواحده بعد الأخرى.. المسكينات. كانت الأنسة إميلي تقوم على تربيتهن واحده بعد الأخرى. لقد أرهقت نفسها وكانت صبوراً ولا تتذمر. ولكن ذلك أثر عليها، ثم بعد ذلك كله تأتي لتقلق على موضوع

المال! تقول إن الأسهم لا تعطيتها غالباً كما كانت من قبل، لماذا لا تعطي مثل هذا العائد؟ هذا ما أود معرفته. كان يجب أن يدخلوا من أنفسهم! إنهم يحددون سيده في مكانتها لا تعرف شيئاً عن عالم الأرقام ولا تستطيع مواجهة ألاعيهم.

قلت: الواقع أن الجميع تأثروا من ذلك.

ولكن فلورنس بقيت مصممة، وقالت: لا بأس بذلك بالنسبة لبعض الناس الذين يستطيعون العناية بأنفسهم، ولكن ليس بالنسبة لها. إنها تحتاج إلى رعاية، وما دامت معي فلن أسمح لأحد بأن يؤذيها أو يزعمها. إنني مستعدة لفعل أي شيء من أجل الآنسة إميلي.

غادرت فلورنس الصلبة الغرفة بعدما حملت فينا لبضع لحظات لتأكد من أنها أقيمتنا هذه النقطة بوضوح، وأغلقت الباب وراءها بحذر.

سأنتني جونا: هل تشعر أنك مضاعف دماء يا جيري؟ لعلني أنا أحس بذلك بعدما سمعتُ ما سمعت. ما الذي يجري لنا؟

- لا يبدو أننا نلقي قبولاً حسناً! لقد سمعت ميغان مساءً وبارنيلدج مشاة مثلك، وفلورنس المخجلة مساة متاً كليتا.

تعمت جونا: إنني أنساء! لماذا غادرت ميغان؟

- لقد سمعت.

- لا أظن هذا صحيحاً. أكان ذلك بسبب شيء قالته إيمي غريفيث؟

- تفصدين هذا الصباح، عندما كانا نتحدثان على عتبة الباب؟

- نعم، لم يكن لديها وقت كاف بالطبع، ولكن...

أكملت الجملة: ولكن وطأة تلك المرأة أقل من وطأة القليل! ربما قالت لها شيئاً...

فُتح الباب ودخلت الآنسة إميلي. كانت متوردة الخدين ولاهنة بعض الشيء، وبدأ عليها الاتفعال، وكانت عيناها تلمعان بزرقة شديدة. تمتعت بتحتها وكأنها شاردة الذهن وقالت: أوه، يا عزيزي، أسفة جداً لتأخري. كنت أقوم بالتسوق في البلدة ولم يكن الكعك في محل بلو روز طازجاً ولذلك ذهبت إلى محل السيدة ليغون. إنني أحب - دائماً - أن يكون الكعك أعسر ما أشرته حتى أحصل عليه طازجاً من القرن مباشرة وليس بارداً من الأمس. أنا حزينه لشر ككما تنتظرن! أمر لا يُغفر...

فدخلت جونا: إنها غلطتنا يا آنسة بارتن، فقد جئنا مبكرين! جيري أصبح سريعاً في مشيه بحيث نصل إلى وجهتنا بأسرع مما نظن.

- أنت لم تفكري كثيراً يا عزيزي. لا تقول لي هذا، فالمرء لا يكاد يحس بانقضاء الأوقات الجميلة.

ثم ربت السيدة العجوز على كتف جونا بحنان. تهليل وجه جونا؛ إذ بدا أخيراً أنها قد حققت نجاحاً. نشرت إميلي بارتن ابتسامتها لتشمسني ولكن بشيء طفيف من الخنوع كما يقترب امرؤ من نمر مقرنس ضخم للحفلات ألا يؤذيه. قالت: جميل منك أن تأتي لمناسبة تسوية كشرب الشاي.

أظن أن الصورة الذهنية عن الرجال لدى إميلي بارتن كانت

ترسمهم كأناس منهمكين دوماً في استهلاك كميات ضخمة من لغائف
التبغ، وفي أثناء الاستراحات يخرجون لإغواء فتيات القرية.

وبعد بضع دقائق فُتح الباب ودخلت فلورنس تحمل صينية
الشاي وعليها بعض الفناجين الفاخرة التي أظن أن الأنسة إميلي قد
أحضرتها معها من البيت. كان الشاي صينياً وكانت هناك أطباق
عليها الشطائر والحبز الرقيق والزبدة وكمية من الكعك. والآن
أشرق وجه فلورنس وأخذت تنظر إلى الأنسة إميلي بفرح أم تنظر
إلى طفلها المدلل وهو يستمتع باللعب بدميته.

أكلنا أنا وجوانا أكثر بكثير مما كنا نريد، وذلك تحت ضغط
وإصرار مضيقنا. وبدا واضحاً أن المرأة تستمتع بحفل الشاي هذا،
وأدركت أن إميلي بارتون تنظر إلى علاقتها معنا - نحن الاثنين -
كمغامرة مثيرة مع اثنين جاءا من عالم لندن الغامض والمتطور.

وكان طبعياً أن يتحول حديثنا بسرعة إلى المواضيع المحلية.
تحدثت الأنسة بارتون عن الدكتور غريفيث بخرارة، متشيدة بلطفه
وذكائه كطبيب. وأشادت أيضاً بالسيد سيمنتن كمحام ذكي جداً
ساعدنا في أن تستعين من ضريبة الدخل بعض الأموال التي ما كان
لها أن تعرف بها لولاه. وقالت إنه كان لطيفاً جداً مع أطفاله مخلصاً
لهم ولزوجته... ثم سارعت لتستدرك قائلة: مسكينة السيدة
سيمنتن، أمر محزن جداً بقاء هؤلاء الأطفال دون أم. ربما لم تكن
امرأة قوية أبداً... كما أن صحتها ساءت أخيراً؛ لا بد أنها كانت
نوبة عصبية. فرأت عن مثل هذه الأشياء في الصحف. الناس لا
يدركون أبعاد تصرفاتهم في مثل هذه الظروف، ولعلها لم تفكر فيما
أقدمت عليه، وإلا لكانت تذكرت السيد سيمنتن والأطفال.

قالت جوانا: لا بد أن تلك الرسالة المجهولة قد هزتها كثيراً.

احمر وجه الأنسة بارتون. قالت ونبرة طفيفة من التأنيب في
صوتها: ليس هذا بالموضوع الجميل للمناقشة، أليس كذلك يا
عزيزتي؟ أعرف ما تم تداوله من... من رسائل، ولكننا لن نتحدث
عنها، فهي كريهة. أظن أن من الأفضل تجاهلها.

قد تكون الأنسة بارتون قادرة على تجاهل هذه الرسائل لكن
ذلك لم يكن سهلاً على بعض الناس. ومع ذلك فقد غيرت موضوع
الحديث طائفاً وتناقشنا حول إيمي غريفيث.

قالت إميلي بارتون: إنها رائعة، رائعة تماماً. طاقتها وقدراتها
الاستطيعية رائعة حقاً، كما أنها لطيفة جداً مع الفتيات، وهي فتاة
عملية وعصبية في كل شيء. إنها حقاً تدير هذا المكان، كما إنها
مخلصة لأحبائها. جميل جداً أن نرى هذا الإخلاص بين الإخوة.

سألتها جوانا: ألا يجد فيها أبداً شيئاً من السيطرة؟

حدثت بها إميلي بارتون وقد أحفلها السؤال وقالت بشيء من
التأنيب والإباء: لقد ضحكت كثيراً من أجله.

رأيت في عيني جوانا ما يوشك أن يكون صيحة انتصار
ساعرة، ولذلك أسرعت في تحويل النقاش إلى السيد باي. كانت
إميلي بارتون مترددة مرتابة قليلاً في حديثها عن السيد باي، وكل ما
استطاعت قوله وإعادته بشيء من الارتياح هو أنه رجل لطيف
جداً... نعم، لطيف جداً. كما أنه غني جداً، وكريم جداً. يزوره
أحياناً أشخاص غرباء جداً، ولكن لا غرابة في ذلك فقد سبق له أن
سافر كثيراً.

اتفقنا على أن السفر لا يوسع المدارك فحسب، بل يعود المرء إلى صداقات غريبة أيضاً. قالت إميلي بارتن باكتساب: كنت أتمنى دائماً أن أخرج في رحلة بحرية، فالمرء يقرأ عنها في الصحف ويتلو رائعة جداً.

سألتها جوانا: لماذا لا تسافرين؟

بدأ أن تحويل هذا الحلم إلى حقيقة قد أثار الذعر لدى الأنسة إميلي، إذ قالت: أوه، كلا، كلا، سيكون ذلك مستحيلاً تماماً. - ولكن لماذا؟ إنها رحلات رخيصة تماماً.

- ليس السبب هو التكاليف فقط، ولكني لا أحب الذهاب وحدي. إن سفر المرء وحيداً سيبدو أمراً غريباً، أليس كذلك؟

قالت جوانا: كلا.

نظرت الأنسة إميلي إليها بارتياب ثم قالت: كما أنني لا أعرف كيف سأصرف بامتعتي... والتزول أيضاً في موانئ أجنبية... وكل تلك العملات المختلفة...

ويتلو أن عدداً لا يحصى من العقبات قد ظهرت أمام العينين الخائفتين للسيدة العجوز، ولذلك أسرع جوانا لتهدئتها بسؤالها عن المهرجان الزراعي القريب ومبيعات الأشغال. وقد فادنا هذا الأمر - بشكل طبيعي - إلى الحديث عن السيدة كالثروب.

ظهر على وجه الأنسة بارتن - للحظة - شيء من التشنج الذي لا يكاد يُلحظ، وقالت: إنها يا عزيزتي امرأة شديدة الغرابة، بما نقوله من أشياء أحياناً.

سألتها عن تلك الأشياء فقالت: أوه، لا أعرف. أشياء غير متوقعة أبداً. والطريقة التي ننظر بها إليك، كما لو لم تكن أنت الموجود هناك بل شخص آخر... إنني لا أغبر عن هذا الأمر بشكل جيد، ومن الصعب جداً التعبير عن الانطباع الذي أفضده. ثم إنها لا تقبل... لا تقبل التدخل إطلاقاً. يوجد الكثير من القضايا التي يمكن لزوج الكاهن أن تقدم فيها المشورة... وربما التحذير. أعني توبيخ الناس وجعلهم يصلحون سلوكهم. الناس سيصفونك إليها، أنا واثقة من ذلك؛ فهم جميعاً يخافون منها. لكنها تصر على أن تكون بعيدة محايدة، ولديها عادة غريبة في الشعور بالأسف على الناس لا يستحقون أي أسف.

قلت وأنا أنظر إلى جوانا نظرة سريعة: هذا مثير جداً.

- ومع ذلك فهي امرأة كريمة الأصل. كانت من عائلة فارووي من بيليث، وهي عائلة عريقة، ولكني أظن أن هذه العائلات العريقة تكون غريبة الأطوار أحياناً. لكنها مخلص لزوجها ذي العقل المثقف جداً... وأشعر أحياناً بأن عقله ضائع في محيط ريفي كهذا. رجل طيب، ومخلص جداً، ولكني أجد عاداته في الاستشهاد بتصوص لاتينية مربكة بعض الشيء.

قلت متحمساً: نعم، نعم.

قالت جوانا: تلقى جيري تعليمه في مدرسة حكومية باهظة التكاليف، ولذلك فهو لا يعرف اللاتينية.

أدّى هذا بالأنسة بارتن إلى الدخول في موضوع جديد، إذ قالت: مديرة المدرسة هنا شابة كريهة جداً... أخشى أنها شيوعية

تماماً. (وقد خفضت صوتها عندما نلفظت كلمة "شريعة").

بعد ذلك قالت جوانا ونحن نصعد التلة إلى البيت: إنها لطيفة.

* * *

عند العشاء في تلك الليلة قالت جوانا لبارترديد إنها ترجو أن تكون حفلة الشاي التي عملتها ناجحة.

احمر وجه بارترديد وتصلب جسدها أكثر من عادته وقالت: أشكرك يا سيدتي، لكن أغنيس لم تأت في نهاية الأمر.

- أوه، إني آسفة.

- هذا لا يهمني أنا.

كان التذمر قد بلغ بها حداً جعلها تنعطف علينا بيت شكواها: لمست أنا التي فكرت في دعوتها! فهي التي اتصلت وقالت إن لديها شيئاً تود قوله وسألت إن كان بإمكانها أن تأتي باعتباره يوم عطلتها. وأجبتها بنعم، بشرط موافقتك التي أخذتها منك. وبعد ذلك لم أسمع منها شيئاً، كما أنها لم تعتذر لي بكلمة واحدة! أمل أن أستملم منها خبراً صباح الغد. هؤلاء الفتيات اليوم... لا يعرفن شيئاً عن الأصول، ولا يعرفن كيف يتصرفن.

حاولت جوانا مداواة مشاعر بارترديد المحروجة قائلة: ربما شعرت بتوعك في صحتها. ألم تصلي بها لثعربي سبب تغيبها؟

انصبت بارترديد وقالت: كلا، لم أفعل يا سيدتي، ولن

أفعل. إن رغبت أغنيس في التصرف بطريقة فهذا شأنها، ولكي سأوبخها بشدة عندما نلتقي.

خرجت بارترديد من الغرفة وهي ساخطة، وضحكتنا أنا وجوانا. قلت: ربما كان لحوء أغنيس لطلب النصيحة من قبيل تلك الحالات التي يكتبون فيها للصحف في باب مشاكل القراء: "العمة نانسي تحل لك مشكلتك"، ويبدو أن أغنيس قد فشلت في الحصول على مشورة العمة نانسي فكان عليها أن تلجأ إلى بارترديد لطلب النصيحة. ولكي أظن أن أغنيس قد حلت مشكلتها الآن.

ضحكت جوانا وقالت إنها تظن الأمر على هذا النحو. وبدأنا نتحدث عن الرسائل المجهولة وتساءلنا عما يمكن أن يكون ناش وغريفر الكتيب قد توصلا إليه.

قالت جوانا: لقد مضى أسبوع كامل على انتحار السيدة سيمنتن، وأحسب أنهم قد توصلوا الآن دون شك إلى تتيحة ماء بصمات أصابع أو خط اليد أو شيء ما.

أجبتها شارد الذهن، ففي منطقة ما خلف عقلي الواعي كان ينمو تلمل غريب، وكان هذا التلمل وعدم الارتياح مرتبطاً بطريقة ما بالعبارة التي استخدمتها جوانا: "أسبوع كامل". كان عليّ -كما أظن- أن أخرج ببعض الاستنتاجات مما أعرفه، وربما كان عقلي قد بدأ شكوكه في اللاشعور. كانت الحميرة تعمل عملها، وكان التلمل ينمو... ويقترب من النتائج.

لاحظت جوانا فحاة إني لم أكن أصغي لحديثها الحماسي عن مناوشة في القوية فقالت: ما الأمر يا جيري؟

لم أحبها لأن ذهني كان مشغولاً بجميع الأشياء الصغيرة مع بعضها البعض: انتحار السيدة سيمنتن... كانت وحدها في البيت عصر ذلك اليوم... وحيدة في البيت لأن الخادومات كن يقضين يوم إجازتهن... قبل أسبوع واحد بالضبط...

- جيرى، ماذا...

قاطعتها: جونا، الخادومات يأخذن يوم عطلة مرة واحدة في الأسبوع، أليس كذلك؟

- ويتناوبن على عطلة الأحد. ما الذي...

- لا عليك من أيام الأحد. ولكنهن يخرجن في نفس اليوم من كل أسبوع، أليس كذلك؟

- نعم، هذا هو الأمر المعتاد.

كانت جونا تخدق بي بفصول، إذ لم يهتد عقلها إلى الطريق الذي اهتدى له عقلي.

ذهبت وقرعت الحرس، فجاءت بارتريدج. قلت: أخبريني عن أغنيس ودل هذه، هل تعمل في الخدمة؟

- نعم يا سيدي، في بيت السيدة سيمنتن. أو -بالأحرى- في بيت السيد سيمنتن الآن.

سحبت نفساً عميقاً، ثم نظرت إلى ساعة الحائط. كانت تشير إلى العاشرة والنصف. قلت: أنظفين أنها عادت الآن؟

بدت بارتريدج مستاءة وقالت: نعم يا سيدي. هناك يحسب أن

تعود الخادومات عند الساعة العاشرة؛ فأليت يُدار على الطراز القديم.

- إنني ذاهب للاتصال.

خرجتُ إلى الصلاة، وتبعني جونا وبارتريدج. كان واضحاً أن بارتريدج نائرة، وكانت جونا متحيرة. قالت وأنا أحاول إدارة رقم الهاتف: ماذا ستفعل يا جيرى؟

- أريد أن أتأكد من أن الفتاة قد عادت على ما أيرام.

زفرت بارتريدج باستياء. مجرد زفرة لا أكثر، ولكنني لا أهتم ذرة واحدة لزعير بارتريدج. ردتُ لسي هولاند على الطرف الآخر من الخط فقلت لها: آسف للاتصال بكم، جيرى بيرنن يتكلم. هل... هل عادت خادمتكم أغنيس؟

لم أشعر بأنني كنت مغفلاً إلا بعد أن طرحْتُ سُؤالِي، فإن كانت الفتاة قد عادت وكان الأمر على ما يرام فكيف لي أن أبرر سبب اتصالي وسؤالِي. كان من الأفضل أن أجعل جونا هي التي تتصل وتسأل، رغم أن سؤال جونا أيضاً يحتاج إلى شيء من التفسير... وبدأت أرى في الأفق كلاماً يدور في لايمستوك عن علاقة بيني وبين أغنيس ودل المحبولة هذه.

بدت لسي هولاند مندهشة جداً، وحوَّ لها ذلك. قالت: أغنيس؟ أوه، لا بد أنها عادت الآن.

أحسست بأنني أحقق لكني واصلت مغامرتي: هل تمانعين في التأكد من وجودها في البيت يا آنسة هولاند؟

لدى المربيات حسنة لا بد من ذكرها؛ فقد اعتدنا أن نبلغن ما يُطلبُ منهن دون أن يرين أن من حقهن التساؤل عن السبب! وضعت إلسي هولاند السماعرة وذهبت طائفة، وبعد دقيقتين سمعتُ صوتها: أما زلت على الخط يا سيد بيرتن؟

- نعم.

- الحقيقة أن أغنيس لم تُعد بعد.

عرفت -عندها- أن حُدسي كان صحيحاً. سمعت أصواتاً غامضة عند الطرف الآخر ثم تحدثت مبهتتين نفسه معي: مرحباً يا بيرتن، ماذا في الأمر؟

- ألم تعد عيادتك أغنيس بعد؟

- كلا، لقد تأكدت الآنسة هولاند الآن من ذلك. ماذا في الأمر؟ أوقع حادث؟

- ليس حادثاً.

- أتعني أن لديك سبباً للاعتقاد بأن أمراً قد حدث للفتاة؟

فلت متجهماً: لن يُفاجئني ذلك.

* * *

الفصل الثامن

لم أتم جيداً في تلك الليلة، وأحسب أن بعض أجزاء اللغز كانت تدور في ذهني طوال الليل، ولعلي -لو كرست كل عقلي لذلك اللغز- لكنت قادراً على حل المشكلة كلها في ذلك الحين. وإذا فلماذا نحوم هذه الأجزاء في ذهني بكل هذا الإلحاح؟

ما هو مقدار ما نعرفه في أي وقت؟ إن ما نعرفه، باعتقادي، هو أكثر بكثير مما ندرك أننا نعرفه، لكننا لا نستطيع النفاذ إلى تلك المعرفة المخبوءة الخفية. إنها هناك ولكننا لا نستطيع الوصول إليها.

استلقيت على سريري أنقلب متلهماً فيما راودني تُشف غامضة فقط من اللغز لتزيد من عذابي: إن ثمة نمطاً ينظم الأمر كله، لو قُدر لي فقط أن أمسك به. كان يجب أن أعرف من كتب تلك الرسائل العيسة. كان ثمة أثر في مكان، لو أستطعتُ فقط أن أتبعه...

وفيما أنا أسبلم للنوم تراقصت الكلمات في ذهني الناعس على نحو مزعج: "لا دخان بلا نار". لا نار بلا دخان. دخان... دخان؟ السائر الدخاني... كلا، كان ذلك في الحرب... عبارة

حرب. الحرب... فضاصة ورق... مجرد فضاصة ورق. بلجيكا...
ألمانيا...

نمت. وحلمت أنني كنت آخذ السيدة كالثروب -وقد
تحولت إلى كلب صيد- في نزهة وحول رقبتيها طوق وحبل.

* * *

كان رئين الهاتف هو الذي أيقظني. رئين متواصل.

جلست على السرير ونظرت إلى ماعتي. كانت الساعة
والنصف، وكان حرس الهاتف يرن في الصالة في الطابق الأرضي.
ففزت عن سريري وارتديت روب النوم ونزلت مسرعاً. سبقت
بارفريدج التي جاءت من الباب الخلفي من المطبخ لارد على
الهاتف، ورفعت السماعة قائلاً: مرحباً.

وأحسست بالارتياح حين سمعت صوت ميغان من الطرف
الآخر للخط وهي تقول: أوه... أهذا أنت!

كانت نبرة الخوف والحزن واضحة في صوتها. وأكملت:
أرجوك أن تأتي... تعال. أوه، أرجوك تعال! هل ستأتي؟

قلت: أنا قادم على الفور. هل تسمعين؟ على الفور.

ارتقيت الدرج درجتين درجتين واقتحمت غرفة جوانا قائلاً:
اسمعي يا جوانا، أنا ذاهب إلى بيت سيمتغن.

رفعنا جوانا رأسها الأشقر عن الوسادة، وفركت عينيها

كطفل صغير وقالت: لماذا... ماذا حدث؟

- لا أعرف. إنها تلك الطفلة... ميغان. حدثت في أسوأ حال.

- ماذا تفعل في الأمر؟

- إنها الفتاة أغنيس، ما لم أكن مخطئاً إلى أبعد الحدود.

وعندما خرجت نادتي جوانا: انتظر، سوف آتي لأوصلك.

- لا حاجة لذلك، سأقود السيارة بنفسي.

- لا يمكنك قيادة السيارة.

- بل أستطيع.

وقد قدتها فعلاً. أدتني قيادتها ولكن ليس كثيراً. كنت قد
اغتسلت وحلقت لحيثي ولبست ملابسني وأخرجت السيارة من
الموقف ثم انطلقت بها إلى بيت سيمتغن، وذلك كله خلال نصف
ساعة. وكان ذلك وقتاً لا بأس به.

لا بد أن ميغان كانت تتربص وصولي؛ فقد خرجت من البيت
مسرعة وأمسكت بي. كان وجهها التجيل الصغير شاحباً ومرتعشاً.
قالت: أوه، ها قد جئت... ها قد جئت!

- تماسكي يا طفلي. نعم، لقد جئت. ما الأمر الآن؟

بدأت ترتعش، فأحطتها بذراعي. قالت: لقد... لقد وجدت.

- وجدت أغنيس؟ أين؟

ازداد ارتعاشها وقالت: تحت الدرج، حيث توجد خزانة لحفظ
صنادير الصيد ومضارب الغولف والأشياء الأخرى.

أومات برأسى، فقد كانت الخزانة المعتادة. وأكملت ميفان:
كانت هناك... مكومة... و... وباردة... باردة جداً... كانت...
كانت مجة!

سألته بفضول: ما الذي جعلك تبحثين هناك؟

- إنني... إنني لا أعرف. أنت خابرتنا الليلة الماضية، وبدأنا
جميعاً نتساءل عن مكان أغنيس. انتظرتها لبعض الوقت، ولكنها لم
تأت، وأخيراً ذهبنا للنوم. لم أتم جيداً ونهضت مبكرة. لم يكن في
البيت إلا روز، الطاهية. كانت غاضبة جداً لعدم عودة أغنيس،
وقالت إنها كانت تعمل من قبل في أحد البيوت وهربت فتاة من
هناك بنفس الطريقة هذه. تناولت الحليب والخبز والزبدة فسي
المطبخ، ثم فجأة دخلت روز وهي تبدو بمظهر غريب وقالت إن
ملابس أغنيس التي تخرج بها موجودة في غرفتها، وإن أفضل
ملابسها ما تزال هناك. وبدأت أتساءل إن كانت... إن كانت قد
غادرت البيت أساساً، وبدأت أفتش في البيت، وفتحت الخزانة التي
تحت الدرج... فوجدتها هناك...

- أحسب أن أحدهم قد أبلغ الشرطة، أليس كذلك؟

- نعم، إنهم هنا الآن. خابروهم زوج والدتي مباشرة. ثم
أحسبت، أحسبت بعدم استطاعتي تحمّل الأمر فانتصت بلك.
أرجو ألا يكون لديك مانع؟

- لا، لا مانع.

نظرت إليها باستغراب وقلت: هل أعطاك أحد بعض الشراب
أو القهوة أو الشاي بعد... بعد أن وجدتِها؟

هزت ميفان رأسها بالنفي، فصبّت اللعنت على آل سيمنتن
جميعاً؛ إذ أن حشوة القميص تلك، السيد سيمنتن، لم يفكر بشيء
سوى الشرطة. لا إلسي هولاند ولا الطاهية فكرتا في تأثير ذلك
الاكتشاف الرهيب على طفلة رفيقة. قلت: هيا ندخل يا عزيزتي،
سنذهب إلى المطبخ.

دنا حول البيت إلى الباب الخلفي ودخلنا المطبخ. وكانت
روز - وهي امرأة في الأربعين من عمرها ذات وجه متفسخ - تشرب
الشاي الثقيل قرب مدفأة المطبخ. حيننا بسيل دافق من الكلام ويدها
على قلبها.

أخبرتني بأنها أصبحت كالمجنونة وازداد خفقان قلبها؛ ففكر
في الأمر فقط، إذ كان يمكن أن تكون هي الضحية، ويمكن أن
تكون أي واحدة أخرى في البيت، تقتل أثناء نومها على سريرها.

قلت: صبي فتجان شاي ثقيل للأتمة ميفان؟ فقد صدمت.
تذكرني أنها هي التي اكتشفت الحقة.

مجرد ذكر الحقة أصاب روز بالذعر ثانية لكنني قمعتها بنظرات
صارمة متي فصبت فتجان شاي أسود. وقلت لميفان: خذي أيتها
الفتاة، اشربي هذا.

طلبتُ من ميفان أن تبقى مع روز وقلت مخاطباً الأخيرة: هل

أعتمد عليك في العناية بالأنسة ميغان؟

ودت روز يطفف، قائلة: أوه، نعم يا سيدي.

ثم دخلت البيت. ولئن لم تحب معرفتي بروز ومثيلاتها فإنها سرعان ما ستجد أن من الضروري لها أن تحافظ علي قوتها بتناول قليل من الطعام وهذا سيكون جيداً لميغان أيضاً. تباً لهؤلاء الناس، كيف لا يستطيعون العناية بهذه الطفلة؟

وجدتُ إلسي هولاند في الصالة، وكنت أشتعل في داخلي. ويبدو أنها لم تفاجأ لرؤيتي. وأحسب أن بشاعة اكتشاف الحنة تجعل المرء لا يعي من يأتي ومن يخرج. كان الشرطي بيرت رائدل قرب الباب الأمامي. شهمت إلسي هولاند قائلة: أوه يا سيد بيرتن، أليس ذلك قطعياً منذاً يمكن أن يفعل مثل هذا الأمر الرهيب؟

- كانت جريمة قتل إذن؟

- أوه، نعم. لقد ضُربت على مؤخرة رأسها. رأسها كله دم وشعر... أوه! أمر فظيع... وكانت مكومة في تلك الخزانة. من يمكن أن يفعل مثل هذا الشيء الشرير؟ ولماذا؟ المسكينة أغنيس، أنا واثقة أنها لم تؤذ أحداً أبداً.

قلت: نعم. لقد حرص أحدهم على ألا يدعها تفعل ذلك، وبأقصى سرعة.

نظرت إليّ بإمعان. رأيت أنها لم تكن ذات عقل سريع لباح؛ ولكنها ذات أعصاب قوية. كان لونها، كعادته، محمراً قليلاً بالانفعال، بل إنني تحيلتُ أنها كانت تستمتع بهذه الدراما بطريقة لا

تخلو من رهبة، وبالرغم من طبيعتها الطبيعية. قالت معتذرة: يجب أن أذهب إلى الأولاد. السيد سيمنتن حريص جداً على ألا يتعرضوا لصدمة، وهو يريد مني إبعادهما.

- سمعت أن ميغان هي التي وجدت الحنة. أرجو أن يكون أحد قائماً على رعايتها؟

ولا بد من إنصاف إلسي هولاند والقول إنها بدت كمن يعذبه ضميره. قالت: يا إلهي، لقد نسيت أمرها تماماً. أرجو فعلاً أن تكون علي ما يرام. لقد داهمتني الأعمال من كل صوب، مع وجود الشرطة وغير ذلك... ولكنه إهمال مني. مسكينة، لا بد أنها في وضع سيء. سأذهب وأبحث عنها على الفور.

رقتُ لها وقلت: إنها بخير... روز تقوم على رعايتها. اذهبي إلى الأطفال.

شكرتني بابتسامة ظهرت خلقها أسنانها البيضاء وأسمرت إلى الطابق العلوي؛ فقد كانت مهمتها -في نهاية الأمر- تنصب على الولدين لا على ميغان... لم تكن ميغان من مهمة أحد. لقد غُيت إلسي للعناية بالأولاد سيمنتن، ولا يكاد المرء يستطيع لومها على ذلك.

وعندما لمحتنا نتعطف بسرعة عند الزاوية في أعلى الدرج حبست أنفاسي؛ فقد لمحت -للحظة- السماعة لانتصار مُحلّي لا يداني، لا شأن له بمرية أطفال حية الضمير.

ثم فتح أحد الأبواب وعرج المفتش ناش مني إلى الصالة ووراء سيمنتن. قال: أوه، سيد بيرتن، كنت بصدد الاتصال بك

تو، يُسعدني أنك هنا.

لم يسألني إذن لماذا أنا هنا.

الوقت وقال لسيمنتن: سأستخدم هذه الغرفة إن أمكن.

كانت غرفة صغيرة لجلسة الصباح بها نافذة تطل على مقدمة البيت. قال السيد سيمينتن: بالتأكيد، بالتأكيد.

كان رابط الحاشي، ولكنه بدا مرهقاً جداً. قال ناش بلطف: لو كنت مكانك يا سيد سيمينتن لتناولت إفطاراً ما. أنت والآنسة هولاند والآنسة ميغان ستشعرون بتحسن كثير لو تناولتم قهوة وبيضاً ولحمًا. إن مواجهة جريمة قتل جمعة حاوية مسألة صعبة جداً.

كان يتكلم بأسلوب طيب العائلة المريح. وحاول سيمينتن أن يتسبم ابتسامة باهتة وقال: أشكرك أيها المفتش. سأخذ بنصيحتك.

تبعته ناش إلى الغرفة الصغيرة، فأغلق الباب خلفه ثم قال: لقد وصلت إلى هنا بسرعة. كيف سمعت الخبر؟

أخبرته أن ميغان اتصلت به، وشعرت نحوه بالود؛ فهو لم ينس أن ميغان تحتاج طعاماً هي الأخرى. قال: سمعت يا سيد بيرتن أنك اتصلت في الليلة الماضية تسأل عن هذه الفتاة؟ لماذا؟

أظن أن ذلك بدا غريباً بالفعل. وقد أخبرته عن مكالمة أغتيس مع بارترينج وعدم قدومها فقال: نعم، فهمت...

قالها ببطء وتفكير وهو يفكر ذهنه، ثم تنهد وقال: حسناً، إنها جريمة قتل هذه المرة، دون أي شك. اعتداء جسدي مباشر. السؤال

هو: ماذا كانت الفتاة تعرف؟ هل قالت أي شيء لبارترينج هذه؟ أي شيء محدد؟

- لا أظن ذلك، ولكن يمكنك سؤالها.

- نعم، سأذهب وأراها عندما أنهى من هنا.

- ما الذي حدث بالضبط؟ أم أنكم ما زلت لا تعلمون؟

- لدينا صورة تقريبية. كان يوم عطلة الخدم...

- كلا الخادمتين؟

- نعم، يبدو أنه كانت هنا في السابق خادمات شقيقتان كانتا تحبان الخروج معاً؛ ولذلك فقد رثبت السيدة سيمينتن عطائهما بهذه الطريقة. ثم عندما جاءت هاتان الخادمتان بدلاً منهما بقيت على نفس النظام. وقد اعتادت ترك العشاء بارداً في غرفة الطعام وكانت الآنسة هولاند هي التي تحضر الشاي.

- فهمت.

- الأمر واضح حتى نقطة محددة. الطاهية روز من سكان نينر ميكفورد، وحتى تصل إلى هناك في يوم عطتها عليها أن تلحق بحافلة الساعة الثانية والنصف، ولذلك كان على أغتيس أن تنظف طاولة الغداء دائماً. ولكي تجازيها روز على ذلك فإنها اعتادت غسيل الأطباق المستخدمة على العشاء نيابة عنها.

وهذا ما حدث بالأمس. ذهبت روز في الساعة الثانية وخمسة وعشرين دقيقة للتلحق بالحافلة، وذهب سيمينتن إلى مكتبه الساعة

الثانية وحسن وثلاثين دقيقة، وخرجت إليسي هولاند مع الأطفال الساعة الثالثة إلا ربعا، كما خرجت ميغان فتر على دراجتها بعد ذلك بحسن دقائق. وبذلك تكون أغنيس وحدها في البيت. وحسبما استطعت استنتاجه فإنها كانت تغادر البيت في العادة بين الساعة الثالثة والثالثة والنصف.

- وهل يبقى البيت خالياً بعدها؟

- أوه، إنهم لا يابهون لذلك هنا في البلدة، ولا يفتلون بيوتهم كثيراً في هذه المناطق. وكما قلت: كانت أغنيس في الساعة الثالثة إلا عشر دقائق وحدها في البيت، وواضح أنها لم تغادره أبداً لأنها كانت تلبس قبعة وصدرية العمل عندما وجدنا جثتها.

- لعلكم تعرفون موعد وفاتها على التقريب؟

- لم يشأ الدكتور غريفيث إلزام نفسه بموعد دقيق. رأيه الطبي الرسمي أن الوفاة حدثت بين الساعة الثانية والرابعة والنصف.

- وكيف قتلت؟

- ضربت أولاً على مؤخرة رأسها بحيث فقدت الوعي، وبعد ذلك جيء بسميخ عادي مما يُستخدم في المطابخ - وقد شُحذ حتى أصبح رأسه دقيقاً - وتم إدخاله في قاعدة جمجمتها مما سبب وفاتها على الفور.

قلت: جريمة بدم بارد تماماً.

- أوه، نعم، نعم، كان ذلك واضحاً.

- من فعلها؟ ولماذا؟

قال تاش ببطء: لا أعلنا ستعرف السبب بالضبط أبداً، لكننا نستطيع التخمين.

- أكانت تعرف شيئاً؟

- نعم، كانت تعرف شيئاً.

- ألم تلمح لأحد هنا شيء؟

- لم تلمح حسبما استنتجته. تقول الطاهية إنها كانت متضايقه منذ وفاة السيدة سيمنتن. وحسب كلام روز هذه كان قلقها يزداد شيئاً فشيئاً، وظلت تقول إنها لا تعرف ما ينبغي عليها عمله.

زفر زفرة غيظ قصيرة وقال: نفس الأسلوب دائماً، إنهم لا يأنون إلينا. لديهم عقدة عميقة الحذور اسمها "الاحتكاك بالشرطة". لو أنها جاءت إلينا وأخبرتنا عما يلقاها لكنت اليوم على قيد الحياة.

- ألم تلمح للمرأة الأخرى بأي شيء؟

- كلا. أو هذا ما نقوله روز، وأنا أميل إلى تصديقها؛ لأنها لو فعلت لأخبرتنا روز به على الفور مع إضافة الكثير من زخارف عيائها عليه.

- أمر بيعت على الحثوث ألا تعرف.

- ما زال بإمكاننا التخمين يا سيد بيرتن. فالسبب بداية لا يمكن أن يكون شيئاً محدداً جداً. لا بد أنه من تلك الأشياء التي

تعيد التفكير فيها، وكلما أعدت التفكير فيها زاد تلمسك وعدم
الرتياحك. أنتهم ما أعني؟

- نعم.

- عملياً أحسب أنني أعرف ما هو.

- هذا عمل جيد أيها المفتش.

- حسناً، إن الأمر - يا سيد بيرتن - هو أنني أعرف شيئاً لا
تعرفه أنت. في عصر اليوم الذي انتحرت فيه السيدة سيمنتن كان
من المفروض أن تخرج الغادمان، فقد كان يوم عطلة، ولكن
أغنيس عادت عملياً إلى البيت.

- هل تعرف هذا؟

- نعم. إن لأغنيس صديقاً... شاب اسمه ريندل يعمل في
محل الأسماك. كان يخرج من عمله مبكراً أيام الأربعاء ويأتي
لمقابلة أغنيس فيتمشيان أو يلعبان إلى السيمتا إن كان الجو ممطراً.
وقد تشاجرا في ذلك الأربعاء عندما التقيا مباشرة. فقد كانت كاتبة
الرسائل المحبولة نشيطة، وقد أوحشت بأن لأغنيس صديقاً آخر،
وثارت ثائرة الشاب فريد ريندل فتشاجرا شجاراً عنيفاً، وعادت
أغنيس إلى البيت قائلة إنها لن تخرج إلا بعد أن يعتذر الشاب منها.

- حسناً، وبعد؟

- إن المطبخ يواجه ظهر البيت، لكن حجرة الخزين تطل على
نفس المكان الذي تطل عليه في غرفتنا هذه. هناك بوابة دخول

واحدة فقط، تدخل منها ثم تأتي إلى الباب الأمامي أو تمشي
على الطريق الموازي لجانب البيت إلى الباب الخلفي.

سكت قليلاً ثم قال: سأجبرك الآن شيئاً. تلك الرسالة التي
وصلت إلى السيدة سيمنتن عصر ذلك اليوم لم تأت عن طريق
البريد. فقد ألصق عليها طابع سبق استخدامه من قبل، وكان ختم
البريد على الرسالة مزوراً بطريقة متقنة باستخدام سخام المصاييح
حتى يبدو وكأن ساعي البريد هو الذي سلمها مع بريد العصر، إلا
أنها في الواقع لم تأت عن طريق البريد. هل ترى ما يعنيه هذا؟

قلت ببطء: يعني أنها وضعت باليد في صندوق الرسائل قبل
وقت قصير من وصول البريد المسائي حتى تكون بين الرسائل الأخرى.

- تماماً. إن بريد المساء يأتي الساعة الرابعة إلا رباعاً تقريباً.
رأيتُ هو أن الفتاة كانت في غرفة الخزين تنظر من النافذة (والنافذة
مسترة وراء الشجيرات لكن يوسع المرء النظر من خلالها جيداً)
وكانت ترقب محبي صديقها لعندئذ لها.

- وقد رأيت من وضع تلك الرسالة، أليس كذلك؟

- هذا هو تخميني يا سيد بيرتن، وقد أكون مخطئاً بالطبع.

- لا أخلطك مخطئاً... الأمر بسيط... وممتع أيضاً... وهو يعني
أن أغنيس قد عرفت من هو كاتب هذه الرسائل المحبولة.

- نعم.

قلت: "ولكن، لماذا لم..."، ثم سكت متجهماً. قال ناثن
بسرعة: الأمر - كما أظن - هو أن الفتاة لم تدرك مغزى ما رائته. لم

تترك في البداية. نعم... مجرد شخص ترك رسالة في البيت... ولكن ذلك الشخص لم يكن شخصاً تحلم أغنيس أن يكون ذا صلة بالرسائل المجهولة. لقد كان -وفق هذه النظرية- شخصاً فوق الشبهات تماماً، ولكن كلما كانت تفكر في هذا الأمر أكثر كلما ازداد قلقها. هل تحبر شخصاً بهذا الأمر؟ وفي حيرتها تلك فكرت في الآنسة بارتريدج التي أظن أنها ذات شخصية مهيبة من شأن أغنيس أن تقبل حكمها دون تردد، وقررت أن تسألها عما ينبغي عليها عمله.

قلت متأملاً: نعم، هذا يناسب الوقائع بشكل جيد. وقد اكتشفتُ صاحبة القلم السام هذا الأمر بطريقة ما. كيف اكتشفتُ ذلك أيها المفتش؟

- أنت غير معتاد على العيش في الريف يا سيد بيرتن. إن الأمور تنتشر هنا بنوع من المعجزة. هناك أولاً المكالمات الهاتفية... من الذي سمع المكالمات عندك؟

فكرت ثم قلت: أنا الذي أجبت على الهاتف في البداية، ثم ناديت بارتريدج وكانت في الطابق العلوي.

- هل ذكرت اسم الفتاة؟

- نعم... نعم، فعلت.

- هل سمعت أحداً؟

- ربما سمعتني أحتج، أو الآنسة غريفيث.

- أو، الآنسة غريفيث. ما الذي كانت تفعله هناك؟

أوضحت له، فسأل: هل كانت متعود إلى القرية؟

- كانت ذاهبة إلى السيد هاي أولاً.

تهدد الضابط ناش وقال: هذا يعني وجود مصدرين لنشر الخبر في المنطقة.

قلت غير مُصدق: هل تقصد أن أبأ من الآنسة غريفيث أو السيد هاي يمكن أن يكلف نفسه عناء إشاعة معلومة صغيرة لا معنى لها كهذه؟

- إن أي شيء بعد خبراً في مثل هذه القرية. سندهش من ذلك، ولكن لو حدث أن والدة حياطة الملابس ظهر في أصبح قدمها مسمار فإن الجميع هنا سيعرفون ذلك! ثم هناك الطرف الآخر على الخط هنا. الآنسة هولاند، وروز... ربما كان يوسعهما سماع ما قالته أغنيس، وهناك فريد ريندل. ربما كان خبر عودتها إلى البيت عصر ذلك اليوم قد انتشر عن طريقه هو.

ارتعدتُ قليلاً. كنت أنظر عبر النافذة، كانت أمامي أرض صغيرة مربعة مزروعة بالحشائش وممر وبوابة صغيرة. لقد فتح شخص البوابة ومشى بطريقة طبيعية وبهدوء وجاء إلى البيت ووضع الرسالة في صندوق الرسائل. رأيت بعين عقلي شكل تلك المرأة الغامضة. كان الوجه صفحة بيضاء لا ملامح لها... ولكن لا بد أنه وجه كنت أعرفه...

كان المفتش ناش يقول: ومع ذلك، فإن هذا يضيق دائرة المشبوهين. هكذا نمسك بهم في النهاية دائماً. نحذف أسماءهم

واحدًا بعد الآخر بعد تمحيص طويل وصبور. لا يمكن أن يكون قد بقي الآن الكثير من المشبوهين.

- ماذا تعني...؟

- هذا يستبعد أية امرأة عاملة كانت في مكان عملها عصر الأمس، وهو يستبعد مديرة المدرسة فقد كانت في مدرستها تعمل. كما يستبعد معرضة المنطقة، فأنا أعرف أين كانت بالأمس. وهذا لا يعني أنني كنت أشك بأية واحدة منهم، ولكننا الآن متأكدون. كما ترى يا سيد بيرتن فإن لدينا الآن وقتين محددين نركز عليهما: عصر الأمس، والأسبوع الذي قبله، أي في يوم وفاة السيدة سيمتغن، ولنقل بين الساعة الثالثة والرابع (وهو أقرب وقت كان يمكن أن تعود فيه أغنيس إلى البيت بعد المشاجرة) والساعة الرابعة عندما يكون البريد قد وصل دون ريب (ويمكن تحديد هذا الوقت بمزيد من الدقة مع ساعي البريد). والأمس من الساعة الثالثة إلى عشر دقائق (عندما غادرت الأنسة ميغان حُفْرَ البيت) إلى الساعة الثالثة والنصف أو حتى الساعة الثالثة والرابع باعتبار أن أغنيس لم تكن قد بدأت بتغيير ملابسها.

- ما الذي نرى أنه قد حدث بالأمس؟

كشّر ناش وقال: ما الذي أراه؟ أرى أن امرأة معينة مثبتت إلى الباب الأمامي ودقت الحرس وهي تتسم بكل هدوء، باعتبارها الزائرة المساء... وربما سألت عن الأنسة هولاند أو الأنسة ميغان أو ربما أحضرت معها طردًا. وعلى أية حال فقد التفتت أغنيس فضربتها السيدة الزائرة على مؤخرة رأسها على حين غرة.

- بماذا؟

- السيدات هنا يحملن معهن حقائب يدوية كبيرة الحجم في العادة. لا أحد يعرف ما يمكن أن يكون بداخلها.

- ثم طعننها في مؤخرة عنقها ووضعتها في الخزانة؟ أليس من شأن ذلك أن يكون عملاً ثقیلاً بالنسبة لامرأة؟

نظر ناش إلي نظرات غريبة وقال: إن المرأة التي تبحث عنها ليست عادية... ليست طبيعية أبدًا... وذلك النوع من الاضطراب العقلي ترافقه عادة قوة مدهشة. ولم تكن أغنيس كبيرة الحجم.

سكت قليلاً ثم قال: ما الذي جعل الأنسة ميغان حُفْرَ تفكر في البحث في الخزانة؟

قلت: مجرد غريزة. ثم سألته: لماذا تم سحب أغنيس ووضعتها في الخزانة؟ ما الغرض من ذلك؟

- كلما استغرق العثور على الحثة وقتاً أطول كلما زادت صعوبة تحديد وقت الوفاة بالضبط. لو أن الأنسة هولاند - على سبيل المثال - عثرت على الحثة بمجرد وصولها، لاستطاع الطبيب تحديد وقت الوفاة بدقة تبلغ نحو عشر دقائق، وهو أمر سيكون خطيراً على صاحبتنا هذه.

قلت عابثاً: ولكن إن كانت أغنيس تشبه في هذه المرأة...

قاطعني ناش قائلاً: لم تكن تشبه فيها، ليس إلى حد الأشياء المحدد الحازم. إنما رأت أن أمر تلك المرأة "غريب". أظنها كانت

يكتب رسائل مجهولة يا سيد بيرتن. ثم أضاف: بصراحة، يمكنك أن تفيدنا.

- يسرني ذلك، لكني لا أعرف كيف.

- أنت غريب هنا، هذا هو السبب. ليست عندك أفكار مُسبقة عن الناس هنا. ولكن في نفس الوقت، لديك الفرصة لمعرفة الأمور بطريقة اجتماعية.

تمتعت قائلاً: القاتل شخص ذو مكانة اجتماعية مرموقة.

- بالضبط.

- هل سأكون الحاسوس الذي يعمل من الداخل؟

- هل لديك أي مانع؟

فكرت بالأمر ثم قلت: كلا، ليس عتدي مانع. إن كان في المنطقة مخون خطير يدفع النساء البرينات إلى الانتحار، وبضرب الخادومات البائسات على رؤوسهن، فإني لسن أتوانى عن التصرف بقليل من القذارة لوضع حد لذلك المخون.

- هذا تصرف واع منك يا سيدي، ولكن دعني أخبرك بأن من نبحث عنها خطيرة، بل بالغة الخطورة.

ارتعدت قليلاً وقلت: الواقع أن علينا أن نعمل في العمل؟

- هذا صحيح. لا تظن أننا نجلس دون عمل. كلا، فنحن - في دائرة الشرطة - نتابع عدة خيوط مختلفة.

فتاة قليلة الذكاء، ولم تكن تشبه إلا بطريقة مبهم، شاعرة أن ثمة شيئاً غير طبيعي. إنها لم تشك بالتأكيد بأنها تواجه امرأة يمكن أن ترتكب جريمة قتل.

سألته: هل شككت أنت في ذلك؟

هو ناش رأسه بالتفكي، ثم قال بتأثر: كان يجب أن أعرف. إن مسألة الانتحار تلك أوعبت صاحبة القلم المسموم؛ لقد أصابها الذعر والخوف - يا سيد بيرتن - أمر لا يمكن التنبؤ بعواقبه.

- نعم، إنه الخوف. هذا ما كان علينا أن نتنبأ به. الخوف...

في عقل مخنون...

قال المفتش ناش بعد ذلك كلمات جعلت الأمر كله يبدو مرعباً تماماً: نحن نواجه قاتلاً يحظى بالاحترام والتقدير... قاتلاً يتمتع حقاً بمركز اجتماعي مرموق!

* * *

وسرعان ما قال ناش بأنه ذاهب لمقابلة روز مرة أخرى. سألته بشيء من الحياء إن كان بإمكانه الذهاب معه، ولقد دهشت قليلاً إذ وافق بحرارة قائلاً: أنا مسرور جداً بتعاونك معنا يا سيد بيرتن، إن كان لي أن أقول ذلك.

قلت: يبدو هذا مريباً؛ ففي الروايات عندما يرحب رجل التحري بمساعدة شخص ما فإن ذلك الشخص يكون - في العادة - هو القاتل. ضحك ناش قليلاً ثم قال: أنت لا تكاد تكون من النوع الذي

فألفها عابساً، ورأيت في مخيلتي شبكة عنكبوت رقيقة تمتد على مساحة واسعة...

أوضح لي ناث أنه يريد سماع رواية روز مرة أخرى لأنها سبق وذكرت له روايتين مختلفتين، وكلما حصل منها على المزيد من الروايات كلما استطاع الحصول من تلك الروايات على تنف صغيرة من الحقيقة يمكن جمعها مع بعضها.

وجدنا روز تفصل أطباق الإفطار، فتوقفت على الفور وقد أدارت عينها ووضعت يدها على قلبها وأوضحت ثانية كيف تعكر مزاجها طيلة الصباح. كان ناث صبوراً معها، ولكنه كان حازماً. وقد أخبرني أنه كان في المرة الأولى لطيفاً يدهنها، ثم غدا حازماً معها في المرة الثانية، وهو الآن يستخدم الأسلوبين معاً.

بالت ز في وصف تفاصيل ما جرى في الأسبوع المنصرم باستمتاع، وكيف أن أغنيس كانت في حالة خوف فائق، وكيف ارتعدت وقالت: "لا تسأليني" عندما ألحت عليها روز لتخبرها عما بها. ثم أنهت روز حديثها قائلة إن أغنيس قالت لها: "سيكون جزائي الموت إن أنا أخبرتك". قالتها روز وهي تدبر بصرها ممرورة.

- ألم تلمح أغنيس أية إشارة لما كان يقلقها؟

- كلا، باستثناء خوفها على حياتها.

تهد الضابط ناث وترك الموضوع، متبعاً نفسه بالاكشفاء بانتزاع وصف دقيق لتحركات روز نفسها في عصر اليوم السابق.

ورد في وصفها - باختصار - أنها ركبت حافلة الساعة الثانية والنصف وقضت المساء مع عائلتها، وعادت في حافلة الساعة الثامنة وأربعين دقيقة من نيدر ميكفورد. وقد عقد وصفها هذا ما انخرطت به من سرد لهواجس الشر التي اتابها طيلة المساء، وكيف أن اختها علقت على ذلك وكيف أنها لم تستطع تذوق لقمة واحدة من الكعكة التي تم إعدادها.

خرجنا من المطبخ بحثاً عن إلسي هولاند التي كانت تشرف على دروس الأطفال. وكما هي عادت كانت إلسي هولاند قدبرة ولطيفة. نهضت وقالت: والآن يا كولين ستحل أنت وبرابان هذه المسائل الثلاث وتحيزان الإجابات لي عندما أعود.

ثم أخذتنا إلى غرفة نوم الطفلين وقالت: هل تنفع هذه؟ رأيت من الأفضل ألا نتحدث أمام الأطفال.

- أشكرك يا أتبسة هولاند. أريدك أن تخبريني فقط مرة أخرى: هل أنت واثقة تماماً من أن أغنيس لم تذكر لك أبداً أنها كانت قلقة من شيء ما... أقصد منذ وفاة السيدة سيمتغن؟

- لا، لم نقل أي شيء. كانت فتاة هادئة جداً، ولم تكن تتحدث كثيراً.

- إذن فهي تختلف عن الأخرى!

- نعم، إن روز تتحدث كثيراً جداً. أحياناً أضطر لتوجيهها بعدم تجاوز الأصول في ذلك.

- هلاً أخبريني بالضبط عما حدث بعد ظهر أمس؟ كل ما

يمكنك تذكره.

- وبعد ذلك، هل ذهبت لصيد السمك؟

- نعم، ذهبتا بمحاذاة النهر، ولم تصطد شيئاً... نحن قلما نصطاد شيئاً. ولكن الأولاد يستمتعون بذلك. وقد ابتلت ملابس برايان قليلاً، وتعين عليّ تغيير ملابسها عندما دخلنا البيت.

- هل أنت التي تقدمين الشاي أيام الأربعاء؟

- نعم. يكون كل شيء جاهزاً للسيد سيمينغتون في غرفة الاستقبال فأعدّ الشاي عندما يأتي. أما أنا والأطفال فإننا ننال الشاي في غرفة الدراسة... وميغان بالطبع. إنني أحفظ بقعة الشاي الخاصة بي في خزانة في الغرفة.

- كم كانت الساعة عندما دخلتم البيت؟

- في الخامسة إلا عشر دقائق. أخذت الولدين إلى الطابق العلوي ولبأت أعد الشاي. وعندما عاد السيد سيمينغتون الساعة الخامسة نزلت لأقدم له الشاي هناك، ولكنه قال إنه سيتناول معنا في غرفة الدراسة. كان الأولاد مسرورين جداً، ثم قمنا ببعض الألعاب بعد ذلك. يبدو أمراً فظيئاً عندما نفكر الآن أننا كنا نلعب وقتها والقناة المسكينة موجودة داخل الخزانة طيلة الوقت.

- هل من شأن أحد أن يذهب إلى تلك الخزانة في العادة؟

- لا، إنها تستخدم فقط لحفظ الأغراض البالية. إننا نعلق القبعات والمعاطف في غرفة الملابس الصغيرة على يمين الباب الأمامي عند الدخول. لا أظن أحداً ذهب إلى الخزانة الأخرى منذ أشهر عديدة.

- حسناً تناولنا الغداء كالمعتاد في الساعة الواحدة، وأسرعنا قليلاً؛ فأنا لا أترك الأطفال يضيعون وقتهم سدى. دعني أتذكر... عاد السيد سيمينغتون إلى المكتب، وقمت أنا بمساعدة أغنيس في إعداد الطاولة للعشاء... وأسرع الطفلان خارجين إلى الحديقة إلى أن انتهيت من عملي وأخذتهما معي.

- إلى أين ذهبت؟

- إلى كوميكر، سالكين الطريق المار عبر الحقول... أراد الأولاد صيد السمك. وقد نسيت طعم السمك واضطرت للعودة لأخذها.

- متى كان ذلك؟

- دعني أتذكر، انطلقنا الساعة الثالثة إلا ثلثاً تقريباً... أو بعد ذلك بقليل. كانت ميغان ستاني معنا ولكنها غيرت رأيها إذ أودت الخروج في رحلة على الدراجة؛ إنها مولعة بالدراجات.

- أقصد كم كانت الساعة عندما عدت لأخذ طعم الاسماك؟ هل دخلت البيت؟

- لا. كنت قد تركته في سقيفة الزراعة وراء البيت. لا أعرف كم كانت الساعة وقتها... ربما كانت الثالثة إلا عشر دقائق تقريباً.

- هل رأيت ميغان أو أغنيس؟

- أظن أن ميغان كانت خرجت، ولم أر أغنيس. لم أر أحداً.

- فهمت. ألم نلاحظ أي شيء غير عادي، أي شيء شاذ،
عند عودتك؟

فتحنت عينيها الزرقاوين على اتساعهما وقالت: أوه، لا يا
حضرة المفتش، لا شيء على الإطلاق. هذا كل شيء طبعياً كالمعتاد.
هذا ما كان رهيباً في الأمر!

- وفي الأسبوع الذي قبله؟

- تقصد اليوم الذي... ماتت فيه السيدة سيمنتن؟

- نعم.

- أوه، كان ذلك فظلياً... فظلياً!

- نعم، نعم، أعرف. هل كنتم في الخارج بعد ظهر ذلك
اليوم أيضاً؟

- نعم، إنني أخذ الأولاد دائماً بعد الظهر في نزهة إن كان
الجو صحواً، وفي الصباح نسوم بالدراسة. وأذكر أننا ذهبتا إلى
السيخة... وكانت بعيدة جداً. وقد خشيت من أنني قد عدت
متأخرة، لأنني عندما دخلت البوابة رأيت السيد سيمنتن قادماً من
مكتبه عند الطرف الآخر من الطريق، ولم أكن قد وضعت إبريق
الشاي على النار بعد، وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بعشر
دقائق.

- ألم تصعدي إلى غرفة السيدة سيمنتن؟

- أوه، كلا. لم أكن أفعل ذلك أبداً. كانت تتراح دائماً بعد

الغداء. كانت تتناهايا أيام عصبية... وكانت نصيبتها -عادة- بعد
الوجبات، وقد أعطتها الدكتور غريفيث بعض الكبسولات لتأخذها.
كانت معتادة على الاستلقاء ومحاولة النوم.

قال ناش بصوت غير مكثرت: إذن فإن أحداً لا يأخذ لها
البريد؟

- بريد المساء؟ كلا، كنت أفتح الصندوق وأضع الرسائل التي
أجدها فيه على طاولة الصالة عندما أدخل. ولكن السيدة سيمنتن
اعتادت في الغالب أن تنزل وتأخذ البريد بنفسها. لم تكن تنام طيلة
العصر؛ كان من عاداتها الاستيقاظ الساعة الرابعة.

- ألم تفكري بوجود شيء غير طبيعي لأنها لم تستيقظ ذلك
المساء؟

- أبداً، لم أنحيل وفوق مثل هذا الأمر. كان السيد سيمنتن
يلقى معطفه في الصالة وقلت له: "الشاي ليس جاهزاً تماماً، ولكن
الماء في الإبريق على وشك أن يغلي". وقد أومأ برأسه ونادى
"مونا، مونا". وحين لم ترد السيدة سيمنتن صعد إلى غرفتها
فكانت صدمة عنيفة له دون شك. ناداني فبحثت إليه، وقال: "أبعدي
الأطفال عن المكان"، ثم اتصل هاتفياً بالدكتور غريفيث، ونسبنا
كل شيء عن الإبريق واحترق أسفله كله! أوه، يا الهي، كان ذلك
رهيباً، مع أنها كانت سعيدة جداً ومنتهجة ساعة الغداء.

قال ناش بسرعة: ما هو رأيك الخاص بتلك الرسالة التي
استلمتها يا آنسة هولاند؟

قالت إلسي هولاند ساخطة: أعتقد أنها عمل شرير... شرير!

- نعم، نعم، لم أقصد ذلك. هل تظنين أن ما قالته الرسالة كان صحيحاً؟

قالت لمي هولاند بحزم: كلا، لا أرى ذلك. كانت السيدة سميغتن حساسة... بل حساسة جداً. وكانت تتناول مختلف أنواع الأدوية لتهدئة أعصابها. كما كانت... كانت منزعجة.

احمرّ وجه لمي وأكملت: كان من شأن أي شيء من ذلك النوع (وأعني من النوع القلور) أن يسبب لها صدمة كبيرة.

صمت ناش لحظة ثم سألتها: هل استلمتِ أياً من هذه الرسائل يا آنسة هولاند؟

- لا، لا، لم أستلم شيئاً منها.

- هل أنت متأكدة؟ أرحوك...

ثم رفع يده وقال: لا تتعجلي الاجابة. أعترف أنها رسائل كريمة، وأحياناً لا يجب الناس الاعتراف بأنهم تلقوا شيئاً منها، ولكن من الهام جداً في هذه القضية أن تعرف. إننا ندرك تماماً أن ما تحتويه هذه الرسائل من كلام هو كذب محض. ولذلك لا حاجة للإحساس بالحرج.

- ولكنني لم أستلم شيئاً منها أيها المفتش. لم أستلم - حقاً - أي شيء من هذا القبيل.

كانت ساعطة توشك أن تبكي، وبدا إنكارها صادقاً تماماً.

عندما عادت إلى الأطفال وقف ناش ينظر عبر النافذة، ثم قال:

حسناً، هكذا إذن! تقول إنها لم تلق أياً من هذه الرسائل، ويبدو أنها تقول الحقيقة.

- لقد قالت الحقيقة بالتأكيد. أنا واثق من ذلك.

قال: "هممم، إن ما أريد معرفته - إذن - هو لماذا لم تستلمي؟" ثم أكمل بشيء من نقاد الصبر: إنها فتاة جميلة، أليس ذلك؟

قلت: هي - في الواقع - أكثر من جميلة.

- بالضبط. الحقيقة أنها فتاة جميلة بطريقة غير عادية، كما أنها صغيرة. بل هي في الحقيقة مما يسيل له لعاب أي كاتب للرسائل المجهولة ثلث. لماذا تم استنساخها إذن؟

هزئت رأسي حيرة فقال: إنه أمر مشير للاهتمام. يجب أن أذكر ذلك لغريفيز؛ لقد طلب منا أن نخبره عن أي شخص لم يتلق رسالة من هذه الرسائل.

- إنها المرأة الثانية. تذكر أن إميلي بارتن لم تستلم شيئاً أيضاً.

ضحكت ناش ضحكة باهتة وقال: يجب ألا تصدق كل ما يقال لك يا سيد بيرتن. لقد استلمت الآنسة بارتن واحدة دون شك... بل أكثر من واحدة.

- وكيف عرفت؟

- ثلث الثينة المخلصة التي تعيش معها أحيرتني... خادمتها أو طاهيتها، فلورنس الفورد. كانت ساعطة جداً من هذا الأمر، وأرادت أن تشرب من دم كاتب الرسائل.

- ولماذا قالت الأذنة إميلي إنها لم تلتق أية رسالة؟

- إنها الرقة والتهذيب؛ قلعة الرسائل بذينة. لقد قضت الأذنة بارتُن حياتها وهي تتجنب كل ما هو جلف غير مهذب.

- وماذا قالت الرسائل؟

- الكلام المعتاد. ولكنه كان - في حالتها - كلاماً سخيلاً إلى حدٍ مضحك، مع تلميح إلى أنها قد سمّت أمها العجوز ومعظم أختائها.

قلت غير مصدق: أتريد القول إن هذه المحنونة الخطرة ستبقى مألوفة دون أن نحدد هويتها؟

قال ناش بصوت مكتئب: سكتفها، فستكتب رسائل كثيرة بعد.

- ولكن، يا إلهي! لا يمكن أن تواصل كتابة هذه الأشياء... ليس الآن.

نظر إلي وقال: نعم، سكتب. لا تستطيع أن تتوقف الآن. إنه هاجس فظيع يجري في الدم. ستستمر الرسائل، لا شك في ذلك.

* * *

الفصل التاسع

ذهبت لرؤية ميغان قبل مغادرة البيت. كانت في الحديقة وبدت وقد عادت إلى طبيعتها تقريباً، وحيثي بحرارة.

اقتربت عليها أن تعود للإقامة معنا لبعض الوقت، ولكنها هزت رأسها بالرفض بعد قليل من التردد وقالت: هذا لطف منك... ولكن أظنني سأبقى هنا؛ فهو في نهاية الأمر بيتي... كما أظن. وأحسب أن باستطاعتي مساعدة الأولاد قليلاً.

- حسناً، كما تشائين.

- أظن أنني سأبقى. يمكنني... يمكنني...

- ماذا؟

- لو... لو حدث شيء فظيع، يمكنني الاتصال بك فثاني، أليس كذلك؟

تأثرتُ وقتلت: بالطبع. ولكن ما هو الشيء الفظيع الذي نطيق أنه قد يحدث؟

قالت بشيء من الإبهام: أوه، لا أعرف. الأمور تبدو مقلقة في الوقت الحاضر، اليس كذلك؟

- بالله عليك لا تدسي أنفك لتستخرجي لنا مزيداً من الحثث؛ فهذا يضر بك!

انتمت لي ابتسامة خفيفة وقالت: صحيح، لقد جعلني هذا الأمر أشعر بالغبثان.

لم أكن أرغب كثيراً بتركها هناك، ولكنه -في نهاية المطاف- بيتها كما قالت، كما أنني تصورت أن إلسي هولاند ستشعر الآن بمزيد من المسؤولية تجاهها.

ذهبت مع ناش إلى بيتنا ليلت فيرز. وبينما كنت أقوم بسرود أحداث الصباح لجوانا كان ناش يحاور بارتريدج، ثم انضم إلينا محبطاً وقال: ليس في كلامها ما يساعدنا كثيراً. حسبما تقوله هذه المرأة فإن كل ما قالته الفتاة هو أنها قلقة من شيء ما ولا تعرف ماذا تفعل، وأنها تريد نصيحة الآنسة بارتريدج.

سأله جوانا: هل حدثت بارتريدج بهذا الأمر أبداً؟

أوما ناش برأسه وهو يبدو متحبطاً وقال: نعم، لقد أخبرت السيدة إيموري، الخادمة النهارية التي تعمل عندهم. أخبرتها بذلك بشكل عام كما فهمت، حيث قالت إن بعض الفتيات يبدن استعداداً لأخذ المشورة ممن هم أكبر منهن سناً، ولا يرين أن باستطاعتهم حل مشكلاتهن بأنفسهن تلقائياً وإن أغفيس ربما لم تكن ذكية جداً، ولكنها كانت فتاة لطيفة محترمة وتعرف كيف تتصرف.

تمتعت جوانا: إنما أرادت بارتريدج إطواء نفسها في حقيقة الأمر، وربما نشرت إيموري الخير في أرجاء البلدة، اليس كذلك؟ - هذا صحيح يا آنسة بيرتن.

قلت: بدهشتي أمر واحد بعض الشيء. لماذا شملت أنا وأختي في قائمة الذين أرسلت لهم رسائل مجهولة؟ نحن غريبان هنا، ولا يمكن لأحد أن تكون له عداوة أو ضغينة تجاهنا.

- أنت لا تفهم عقلية أصحاب الرسائل المسمومة؛ فكل ما يقع أمام نظرهم يصلح موضوعاً لمكرهم. يمكنك القول إن حقدهم ينصب على الإنسانية عموماً.

قالت جوانا متأملة: أظن أن هذا ما عنيه السيدة كالغروب.

نظر ناش إليها متسائلاً، ولكنها لم توضح له. قال المفشش: لا أعرف إن كنت قد نظرت عن كثب إلى مغلف الرسالة التي تلقيتها يا آنسة بيرتن. إن كنت فعلت ذلك فلعلك لاحظت أنها كانت في الواقع مغمّوة إلى الآنسة بارتن ثم حوّل حرف الألف في بارتن إلى الياء بعد ذلك.

كان يجب أن تعطينا تلك الملاحظة -لو فُسر بشكل صحيح- مفتاحاً لحل اللغز كله، لكن الذي حدث أن أحداً منا لم ينحظ فيها أية أهمية.

خرج ناش وبقيت مع جوانا فقالت: أظن أن تلك الرسالة كانت مرسلة حقاً إلى الآنسة إيميلي؟

- لو كانت كذلك فلا أفنيتها كانت مستبداً بعبارة: "أيتها المومس المتبرجة!"

وافقتني جوانا. ثم اقترحت علي أن أذهب إلى البلدة قائلة: يجب أن تسمع ما يقوله كل واحد؛ سيكون هذا موضوع الصباح!

اقترحت عليها الذهاب معي، ولكنها رفضت، الأمر الذي فاجأني قليلاً. قالت إنها تريد العبت في الحديقة، وقبل خروجي من الباب وقفت وقلت وأنا أخفض صوتي: أظن أن بارتريديج بريئة من ذلك؟

- بارتريديج!

جعلني الذهول الواضح في صوت جوانا أشعر بالحجل من فكرتي هذه. قلت بلهجة المعتذر: كنت أتساءل فقط. إنها "غريبة الأطوار" في بعض الأمور... عانس مخيفة... من ذلك التسوع الذي يمكن أن تجد لديه هوساً دينياً.

- ولكن الدافع هنا ليس الهوس الديني... أو هذا ما أخبرتني بأن غريفر قد قاله.

- حسناً، هوس جنسي. فهمتُ أنهما مرتبطان مع بعضهما ارتباطاً وثيقاً. إنها مكبوتة ومهذبة وقد عاشت هنا وراء أبواب مغلقة مع العديد من النساء العجائز لسنوات عديدة.

- ما الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟

قلت ببطء: ليس لدينا إلا أقوالها هي عما قالته الفتاة أغنيس

لها، أليس كذلك؟ افترضني أن أغنيس قد طلبت من بارتريديج أن يخبرها لماذا جاءت (أي بارتريديج) وتركت رسالة في ذلك اليوم... وقالت بارتريديج إنها ستزورها عصر ذلك اليوم لتشرح لها.

- ثم موّعت ذلك بالمحيء إلينا والسؤال عن إمكانية قدوم الفتاة هنا؟

- نعم.

- لكن بارتريديج لم تخرج من البيت أبداً عصر ذلك اليوم.

- لا نعرف ذلك؛ كنا عسارح البيت في ذلك الوقت، ألا تذكرين؟

- نعم، هذا صحيح. أظن أن هذا ممكن.

ثم أضافت جوانا وهي تقلب الأمر في ذهنها: ولكنني -مع هذا- لا أظن ذلك. لا أظن بارتريديج تملك العقلية المناسبة للتغطية على آثارها في تلك الرسائل: مسح بصمات الأصابع وكل هذه الأمور. فالمرء لا يحتاج إلى المكر فقط، بل إلى المعرفة أيضاً. ولا أظن أنها تملك المعرفة. أحسب أن...

ترددت جوانا ثم قالت ببطء: إنهم متأكدون أنها امرأة، أليس كذلك؟

هفتت غير مصدق: لا أفنك تحسبته رجالاً؟

- ليس... ليس رجالاً عادياً... ولكن رجل من نوع معين. إنني -في الحقيقة- أفكر في السيد هاي.

- إذن فالسيد باي هو من وقع اختيارك عليه؟

- ألا تشعر أنت بأنه احتمال ممكن؟ إنه من ذلك النوع من الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا وحيدين... تيمسين وحاقدين. الجميع هنا يكادون يهزؤون به. ألا تراه في داخله بكرة كل الناس الطبيعيين السعداء، ويستمتع استمتاعاً شاداً وغريباً فيما يفعله؟

.. قال غريفر إنها عانس في متوسط العمر.

- والسيد باي "عانس" في أواسط عمره.

قلت ببطء: شاذ عن محيطه.

- هذا صحيح. إنه غني، ولكن المال لا يعني بشيء. أنا أشعر فعلاً أنه قد يكون مضطرباً عقلياً. إنه حقاً قزم مخيف.

- تذكرني أنه استلم رسالة من هذه الرسائل.

- نحن لا نعرف ذلك يقيناً... نظن ذلك فقط. وعلى أية حال ربما كان يمثل أمامنا؛ إن له من الذكاء ما يجعله يفكر في ذلك، ولا يبالغ في تمثيله للدور.

- لا بد أن يكون ممثلاً من الدرجة الأولى.

- بالطبع يا جيري، إن أي واحد يقوم بهذا العمل لا بد أن يكون ممثلاً من الدرجة الأولى، وهذا ما يجعل في الأمر متعة.

- أرجوك يا جوانا، لا تتحدثي بكل هذا الفهم! هذا يجعلني أشعر بأنك... بأنك تفهمين العقلية التي تقف خلف هذا الأمر.

- أظن أنني أفهمها. أستطيع أن... أن أفهم المزاج الذي تنطلق منه. لو لم أكن جوانا بيرتي، ولو لم أكن شابة وجذابة إلى حد معقول وقادرة على الاستمتاع بوقتي، لو كنت... كيف أعبر عن ذلك؟... لو كنت حبيسة وراء القضبان أرقب الآخرين وهم يستمتعون بالحياة، فهل كان الشر الأسود سينمو في نفسي ويجعلني أرغب في الأذى والتعذيب... وحتى في التدمير؟

أمسكتها من كتفها وهزتها قائلاً: جوانا!

تهدت قليلاً وارتعشت ثم انبسطت لي: لقد أخفكتك، أليس كذلك يا جيري؟ ولكني أشعر بأن هذه هي الطريقة الصحيحة لحل هذه المشكلة. يجب أن تتمثل وضع الشخص نفسه، وتعرف كيف يشعر وما الذي يجعله يتصرف، وعندها... وعندها ربما عرفت ما الذي سيفعله ذلك الشخص بعد ذلك.

- أوه، تبا! وأنا الذي جئت إلى هذا المكان لأكون كسولاً وأهتم بالفضائح المحلية الصغيرة. هه! الفضائح المحلية الصغيرة؛ قذوف ودم، وكلام يذئ، وجرائم قتل!

* * *

كانت جوانا محقة تماماً؛ فقد كان الشارع العام مليئاً بالمجموعات المهمة، وغرمت على معرفة رد فعل كل امرئ واحداً تلو الآخر.

التفتت أولاً بغريفيث، وقد بدا متعباً ومريضاً جداً لدرجة جعلتني أتعجب. إن جرائم القتل ليست - بالنأكد - حدثاً يومياً في

حياة الطبيب، ولكن مهنته تهيبه بالفعل لمواجهة معظم الأمور بما فيها المعاناة، والجانب البشع من الطبيعة البشرية، وحقيقة الموت.
قلت له: تبدو مرهقاً.

قال بشيء من الغموض: حقاً؟ أوه! واجهتني بعض الحالات المقلقة مؤخراً.

- بما فيها حالة محتوننا؟

- بالتأكيد.

أبعد نظره عني وحوّله إلى الشارع. رايتُ عصباً صغيراً يتلفض في جفنه. قلت له: أليست لديك أية شكوك بالنسبة لهوية الفاعل؟
- لا، لا. أتمنى مختصاً لو كنت أعرف.

سأل فجأة عن جوانا ثم قال مردداً إن لديه بعض الصور التي كانت تزيد رؤيتها. عرضت عليه أن أأخذها لها فقال: أوه، لا بهم. سامر أمام بيتكم في وقت لاحق من هذا الصباح.

بدأت أحشى أن يكون غريفيث قد أخذ موضوع جوانا على محمل الجد. تبّاً لجوانا! كان غريفيث أطيب من أن ترضه إلى قائمة انتصاراتها.

تركه يذهب لأنني رأيت أخته فادمة وأردت الحديث معها هذه المرة. بدأت إبمي غريفيث الحديث كما لو أنها تكلمه بعد انقطاع: أمر مذهل تماماً! سمعت أنك كنت هناك... في وقت مبكر؟
كانت كلماتها على صيغة سؤال وقد لمعت عيناها عندما

شدت على كلمة "مبكر". لم أريد أن أخبرها أن ميغان اتصلت بي، وبدلاً من ذلك قلت: كنت أشعر بشيء من عدم الارتياح ليلة أمس؟ كانت الفتاة ستأتي لشرب الشاي في بيتنا لكنها لم تظهر.

- ولذلك فقد خشيت وقوع الأسوأ؟ هذا ذكاء بالغ منك!

- نعم؟ أنا أكلب صيد بشري.

- هذه أول جريمة قتل تقع عندنا في لايمستوك، والاتصالات على أشدها. أرجو أن يتمكن الشرطة من معالجة الأمر.

- هذا لا يقلقني؛ فهم رجال أكفاء.

- لا أستطيع حتى تذكر شكل الفئاة، رغم أنها فتحت لي اليااب عشرات المرات فيما أظن. فتاة صغيرة الحجم هادئة لا شيء يميزها. ضُربت على رأسها ثم طعنت في مؤخرة عنقها، هكذا قال أوتين. يبدو لي أن ذلك من فعل صديق لها. ماذا ترى؟

- أهذا هو تصورك؟

- يبدو أرجح من غيره. أظنهما تشابحا معاً، فكثير من الناس هنا ولِدوا من زيجات الأقارب... ولذلك فإن لدى الكثير منهم شذوذاً وموروثات سيئة. وسكنت قليلاً ثم أكملت: يُقال إن ميغان هتتر هي التي وجدت الحقة؟ لايد أنها أصيبت بضربة عنيفة.

قلت باختصار: نعم.

- لا أظن هذا جيداً لها. رأيي أنها لا تمتع بالكثير من القوة العقلية، وشيء كهذا قد يصيبها بالجنون التام.

أخذت قراراً مفاجئاً! إذ أردت أن أعرف شيئاً، قلت: أخبريني يا أنسة غريفيث، أنت التي أفتعت ميغان بالعودة إلى بيتها بالأمس؟

- حسناً، ما كنت لأستعمل كلمة "أفتعتها" بالضبط.

أصررت على موقفي وقلت: ولكنك قلت لها شيئاً؟

ثبتت إميلي غريفيث قدميها بقوة ونظرت إليّ وجهاً لوجه. كانت في موقف دفاعي إلى حد ما، قالت: ليس من الجيد أن تتهرب تلك الفتاة من مسؤولياتها؟ فهي شابة ولا تعرف كيف تدور الألسن، ولذلك شعرت أن من وحيي أن ألتصع لها بشيء.

- الألسن...؟

سكتت لأنني لم أستطع مواصلة الكلام من شدة الغضب. أكملت إميلي غريفيث تتكلم مظهره غصبتها الرئيسة التي تشير الحنون، حصلة الثقة بالنفس والرضى عن الذات: أوه، أحسبك لا تسمع الشائعات التي تدور في البلدة، أما أنا فأعرفها! أعرف ما يقوله الناس. رغم أنني لا أظن -للحظة واحدة- أن فيما يقولونه شيئاً من الصحة... أبداً! ولكنك تعرف طبيعة الناس... إذا ما جدوا فرصة لقول شيء سيء فإنهم يقولونه! وسيكون ذلك من سوء حظ الفتاة عندما تريد أن تكسب عيشها.

قلت متحيراً: تكسب عيشها؟

أكملت إميلي: هو موقف صعب بالنسبة لها طبعاً، وأعتقد أنها فعلت عين الصواب. أقصد أنها لم تكن تستطيع الرحيل دون إنذار مسبق وترك الأطفال دون وجود أحد يرعاهم. لقد كانت رائعة...

رائعة جداً. إنني أقول ذلك للجميع! ولكن هذا ما وصل إليه الأمر... إنه موقف متير للاستياء، وسوف يتكلم الناس.

- عمن تتكلمين؟

قالت إميلي غريفيث بنفاد صبر: عن إميلي هولاند بالطبع. إنها -برأيي- فتاة لطيفة جداً، ولم تكن تقوم إلا بعملها.

- وما الذي يقوله الناس؟

ضحكت إميلي غريفيث، ورأيت ضحكتها كربية بعض الشيء: يقولون إنها تفكر فعلاً في إمكانية أن تصبح السيدة سيمغتن رقم ٢... وإنها نبذل كل جهودها لمواساة الأرمل ووضع نفسها في موضع من لا يمكن الاستغناء عنه.

قلت مصدوماً: ولكن، يا إلهي! لم يمض على وفاة السيدة سيمغتن سوى أسبوع واحد!

دفعت إميلي كتفيها استهجاناً وقالت: بالطبع، إشاعات سخيفة! ولكنك تعرف طبيعة الناس. فالفتاة إميلي هولاند شابة وحميلة... وهذا يكفي. نذكر أن عمل مربية أطفال لا يعتبر مستقبلاً جيداً بالنسبة لأية فتاة. ما كنت لأولمها إن أردت بيتاً مستقراً وزوجاً وقامت بلعب أوراقها وفقاً لذلك.

ثم أكملت: إن المسكين سيمغتن لا يعرف بالطبع شيئاً عن كل ذلك! إنه ما زال يعاني من الصدمة التي أحدثتها وفاة موتها سيمغتن، ولكنك تعرف طبيعة الرجال! إذا كانت الفتاة إلى جانبه دوماً، توفر له أسباب الراحة، وتعتني به، وتظهر إخلاصاً واضحاً

للأطفال... عندها يصبح معتمداً عليها.

قلت يهدوء: إذن فأنت ترين أن إلسي هولاند لعوب ذات كيد وتخطيط؟

احمر وجه إيمي غريفيث وقالت: إطلاقاً. إنني آسفٌ لتلك الفتاة... لكل ما يقوله الناس من أقاويل كريهة! هذا هو ما جعلني أخبر ميغان - بطريقة ما - بأن عليها أن تذهب إلى بيتها. هذا يبدو أفضل من أن تعيش الفتاة والسيد سيمتغن في البيت وحدهما. بدأت أفهم الأمور.

أطلقت إيمي غريفيث ضحكاتها المتهيجة وقالت: لقد صُدمتُ يا سيد بيرتن من سماع ما تفكر به بلدنا الثرثرة الصغيرة. بوسعي أن أؤكد لك التالي: إنهم دائماً يفترضون الأسوأ! ضحكتم وأوامات برأسها ثم ذهبت.

* * *

التقيت بالسيد باي قرب الكنيسة فيما كان يتحدث مع إميلي بارتن التي بدت محمرة الوجه متفعلّة. حيّاني السيد باي بحرارة واضحة قائلاً: أه، بيرتن، صباح الخير، صباح الخير! كيف حال أختك اللطيفة؟

أخبرته بأن جوانا بخير، فقال: ولكنها لم تنضم إلى برلمان فريتنسا؟ نحن جميعاً متلهقون للأخبار. جريمة قتل! جريمة قتل حقيقية كذلك التي تُكتب في الصحف، ونقع بيننا! لا أحسبها من

تلك الجرائم المثيرة جداً، فهي جريمة قذرة إلى حد ما؛ قتل وحشي لخادمة صغيرة. لا يوجد فيها جوانب دقيقة عالية المستوى، ولكنها مع ذلك خير لا يمكن إنكاره.

قالت الأنسة بارتن وهي ترتعش: إنها تثير الصدمة تماماً.

التفت السيد باي إليها وقال: لكنك تستمعين بها يا عزيزتي، تستمعين بها.. اعترفي بذلك الآن! أنت تستكبرينها ولا توافقين عليها، ولكن تبغى الإنارة. أنا أصر على أن فيها إثارة!

قالت إميلي بارتن: كانت فتاة لطيفة. جاءت إلي من ملجأ سانت كلوتيلد فتاة غرة تماماً، ولكنها شديدة القابلية للتعليم، وقد عُدت خادمة لطيفة جداً. كانت بارترديدج مسرورة جداً منها.

قلت بسرعة: كانت ستأتي لشرب الشاي مع بارترديدج عصر أمس. ثم التفتُ إلي باي وقلت: أظن أن إيمي غريفيث أخبرتكم.

قلتُ ذلك بنبرة عرضية عادية تماماً، وأجاب باي دون أن يظهر عليه الارتباك: نعم، ذكرت هذا لي. أذكر أنها قالت إنه لأمر جديد من الخدم أن يتصلوا على هواتف مخدوميهم.

قالت الأنسة إميلي: لم تكن بارترديدج لتحلم أبداً بفعل شيء كهذا، وإني منهشة حقاً من إقدام أغنيس على ذلك.

قال السيد باي: أنت تنتمين لزمان مضى يا عزيزتي. إن خادمي يستخدمان الهاتف باستمرار، وكانا يلحان في جميع أرجاء البيت إلى أن اعترضتُ عليهما. ولكن المرء لا يحرق على قول الكثير، فالسيد بريسكوت طبّاح رائع، رغم مزاجيته، والسيدة

بريسكوت عادمة تبعت على الإعجاب.

- نعم، نحن جميعاً نراك محظوظاً جداً بهما.

تدخلت إذ لم أرد أن يتحول الحديث إلى الخدم: لقد انتشر
غير الجريمة بسرعة كبيرة.

قال السيد هاي: بالطبع، بالطبع. إنها على لسان كل من هب
ودب. إن لايمستوك تندهور مع الأسف: رسائل مجهولة، جرائم
قتل، والكثير من الظواهر الإجرامية!

قالت إميلي بارتن بعصبية: إنهم لا يرون... لا توجد أية فكرة
بأن... بأن الأمرين مرتبطتان.

التقط السيد هاي هذه الفكرة بلهفة وقال: هذا تخمين مثير
للاهتمام. كانت الفتاة تعرف شيئاً، ولذلك قُلت. نعم، نعم، هذا
حس رائع. يا لذلك هذه الفكرة مثلاً.

قالت إميلي بارتن فجأة: أنا... أنا لا أستطيع تحمل ذلك.

ثم دارت ومضت مسرعة وبأي ينظر إليها. كان وجهه
الملائكي مزموماً من الحيرة، ثم التفت إلي وهز رأسه بلطف وقال:
امرأة حساسة. ألا تظن أنها امرأة رائعة؟ قطعة أثرية لعهد غابر. فهي
لا تنتمي حتى لحيلها نفسه، بل لحيل سابق لها. لا بد أن أمها
كانت امرأة قوية الشخصية! أظن أنها أبقت التوقيت في عائلتها
متوقفاً عند العام ١٨٧٠ تقريباً. وبقيت العائلة كلها محفوظة في
قصص زحاجي. إنني أحب الائتفاء بمثل هذا النوع من الناس!

لم أرغب بالحديث عن القطع الأثرية، فمسألته: ما هو رأيك
حقاً في هذا الأمر كله؟

- ماذا تقصد؟

- الرسائل المجهولة، جريمة القتل...

- موجة الجرائم المحلية عندما؟ ماذا ترى أنت؟

قلت مرحاً: أنا الذي سألتك أولاً؟

قال السيد هاي بلطف: أنا من هواة دراسة الشواذ؛ فهم يثيرون
اهتمامي. أنت قد نحت تصرفات في غاية الغرابة لدى أناس يُظهرون
بعيدين عن مثل هذه الممارسات. جد على سبيل المثال قضية لسيزي
بوردين؛ لا يوجد تفسير معقول لهذه القضية. إن نصيحتي للشرطة
في هذه الحالة هي: ادرسوا الشخصية. اتركوا بصمات الأصابع
وقياسات عطف اليد والعمل المجهرى، وبدلاً من ذلك لاحفظوا ماذا
يفعل الناس بأيديهم، وما هي الحركات الصغيرة في طريقة تصرفهم،
والطريقة التي يأكلون بها طعامهم، وهل يضحكون أحياناً دون
سبب واضح...

رفعت حاجبي دهشة وقلت: أعني أنه محنون؟

- نعم، محنون تماماً، تماماً. ولكنك لن تعرف ذلك أبداً!

- من يكون؟

نظر إلي وابستم قائلاً: كلا، كلا يا بيرن، سيكون ذلك قذفاً.
ولا نستطيع إضافة القذف إلى بقية ما نراه حولنا.

ثم انطلق مسرعاً في الشارع.

* * *

بينما كنت أفق وأحرق به وهو يتعبد، فُتح باب الكنيسة
وخرج منه الكاهن كالب كاثروب. ابتسم لي ابتسامة غامضة وقال:
صباح... صباح الخير يا سيد... يا سيد...

ساعدته قائلاً: بيرتن.

- بالطبع، بالطبع، يجب ألا تظن أنني نسيثك. لقد سقط
اسمك من ذاكرتي للحظة فقط. إنه يوم جميل.

قلت بشيء من الاقتضاب: نعم.

لمعن النظر إليّ وقال: ولكن... آه، نعم، تلك الفتاة المسكينة
التي كانت تخدم في بيت سمبثتن. لا بد أن أعترف بأنني لا
أستطيع تصديق وجود قائل بيننا يا سيد... يا سيد بيرتن.

- يبدو ذلك بالفعل غريباً بعض الشيء.

مال تحوي وقال: لقد بلغ مسامعي شيء آخر؛ علمت أن
رسائل مجهولة تنتشر في البلدة. هل سمعت مثل هذه الإشاعات؟

- نعم، سمعت.

- تصرفات جبانة خمسية.

سكت ثم استشهد بسيل دافق من الكلام اللاتيني وقال: إن
تلك الكلمات تنطبق على واقعنا هذا كثيراً. أليس كذلك؟

قلت باقتضاب: بالتأكيد.

* * *

لم أجد أحداً آخر يقيدني الحديث معه، ولذلك عدت إلى
البيت، ولكني مررت في طريقي على محل لأشترى بعض التبغ
ولأستمع إلى بعض الآراء الأكثر تواضعاً بخصوص الجريمة.

- منشرد فذر.

هكذا بدا حكم صاحب المحل فيما يخص هوية المجرم. وقد
أضاف قائلاً: إنهم يأتون إلى أبواب المنازل ويتجشون ويطلبون
نقوداً، فإن وجدوا في البيت فتاة وحيدة انقلبوا إلى أشرار. لقد
تعرضت أعني دوراً هناك في كومبيكر لتحربة بغضبة في أحد
الأيام... كان مخموراً، وبيع تلك الأشعار المطبوعة...

واستمعت الحكاية، وانتهت بقيام دورا الخمسورة بإغلاق
الباب في وجه الرجل والتمسرس في ملجأ غامض داخل البيت،
فهبطت من تحسسه من ذكره أنه الحمام دون ريب. "وقد بقيت
هناك إلى أن عادت سيدتها إلى البيت"

وصلت لثبل فيروز قبل موعد الغداء ببضع دقائق. كانت جوانا
واقفة عند الباب الزجاجي لغرفة الجلوس لا تفعل شيئاً، وقد بدت
أفكارها بعيدة جداً. سألتها: ماذا كنت تفعلين وحدك؟

- أوه، لا أعرف. لا شيء محدداً.

خرجت إلى الشرفة. كان فيها كرسيان قد سُحبا إلى طاوله

جديدة، وكان عليها كأسا عصير فارغان، وعلى كرسي آخر كان شيء نظرت إليه بحيرة وقلت: ما هذا؟

قالت جونا: أحسبها صورة لطحال مريض أو شيء من هذا القبيل. يبدو أن الدكتور غريفث ظنني مهمة بهذا الموضوع.

نظرت إلى الصورة ببعض الاهتمام. ولئن كانت لكل رجل طريفته الخاصة في مغازلة جنس النساء، فإنتي ما كنت شخصياً لأفعل ذلك باستخدام صور الطحال، سواء كان مريضاً أو غير مريض. ومع ذلك لا شك بأن جونا هي التي جئت على نفسها!

قلت: تبدو صورة كريهة جداً.

وافقتني جونا على أنها كريهة بالفعل. وسألتها: كيف كان غريفث؟

- بدا مرهقاً وحزيناً جداً. أظن أن في ذهنه شيئاً.

- لطحاً لم يتنجح معه العلاج؟

- لا تكن سخيفاً! أقصد شيئاً حقيقياً.

- أظن أنك أنت التي في ذهن الرجل. أرجو أن تتعدي عنه يا جونا.

- أوه، أرجو أن تسكت، فأنا لم أفعل شيئاً.

- النساء دائماً يقتلن هذا.

عرجت جونا من الغرفة غاضبة. وكانت صورة الطحال

المريض قد بدأت تتجدد تحت الشمس فأمسكت بها من إحدى الزوايا وأدخلتها إلى غرفة الاستقبال. لم أكن معجباً بها شخصياً، ولكني افترضت أنها واحدة من كنوز غريفث. انحنيت وسحبت كتاباً كبيراً من رفٍّ سفلي في خزانة الكتب حتى أضع الصورة بين أوراقه لتعود إلى استقامتها، وكان الكتاب مجلداً ثقيلًا.

أنتفح الكتاب بين يدي بطريقة فاجأني قليلاً، ولكنني سرعان ما عرفت السبب: فمن وسط المجلد تم قصُّ عدد من الصفحات بطريقة مرئية.

* * *

وقفت أحتق في، ثم نظرت إلى صفحة العنوان فראيت أنه قد نشر عام ١٨٤٠. لم يكن في المسألة أي شك على الإطلاق؛ فقد كنت أنظر إلى الكتاب الذي جمعت من صفحاته كلمات الرسائل المجهولة. من الذي فضها؟

حسناً، أولاً، يمكن أن تكون إميلي بارتن نفسها، وربما كانت هي الشخص الواضح الذي توجه إليه الأنظار، أو قد تكون بارتريدج.

ولكن كانت توجد احتمالات أخرى عديدة. يمكن أن تكون الصفحات قد قُطعت من قبل أي شخص بقي في هذه الغرفة وحيداً، من قبل زائر جلس هناك ينتظر الآتية إميلي مثلاً، أو ربما يكون أي شخص جاء لزيارتها في عمل ما.

كلا، لم يكن ذلك مرجحاً كثيراً؛ فقد لاحظت ذات يوم - عندما جاء موظف البنك لرؤيتي - أن بارتريدج أدخلته إلى المكتب الصغير

في آخر البيت. من الواضح أن ذلك هو ما جرت عليه العادة في هذا البيت.

أيكون زائراً إذن؟ شخصاً ذا "مكانة اجتماعية مرموقة"؟ السيد باي؟ إيمي غريفيث؟ السيدة كالتروب؟

* * *

قُرع جرس الطعام وذهبت لتناول العشاء. وبعد ذلك، عندما كنا في غرفة الاستقبال، أطلقت جوانا على اكتشافي. ناقشنا الأمر من جميع جوانبه، ثم أخذت الكتاب إلى مركز الشرطة.

سُرّوا جميعاً من هذا الاكتشاف وهتلوني على شيء لم يكن إلا مجرد حقد. لم يكن غريفر هناك، ولكن ناش كان موجوداً، وقد اتصل بزميله بالهاتف. واتفقا على فحص الكتاب بحثاً عن بصمات الأصابع، رغم أن ناش لم يكن متفانياً باكتشاف شيء. ويمكن القول إنه لم يحد شيئاً بالفعل فلم تكن على الكتاب سوى بصماتي وبصمات بارترديد فحسب، مما يظهر أن بارترديد كانت تنظف كل شيء بإخلاص.

سار ناش معي في طريق عودتي مسعوداً على التلة. سألته كيف تنجي الأمور معه فقال: إننا تضيق نطاق الاحتمالات يا سيد بيرث، فقد حذفنا الأشخاص المستبعدين.

- أه. ومن بقي؟

- الآسة غينش. كان يفترض أن تلقني بأحد الزبائن في أحد

البيوت عصر أمس بناء على موعد سابق. ثم يكن البيت «جيداً» على طريق كومبيكر، وهو الطريق الذي يمر عبر بيت سيمينغن. كانت تستمر أمام البيت في ذهابها وفي عودتها... وفي الأسبوع الذي سبق، يوم سلّمت الرسالة المجهولة وانتحرت السيدة سيمينغن، كان ذلك هو آخر أيامها في مكتب سيمينغن. وقد ظن السيد سيمينغن في البداية أنها لم تغادر المكتب أبداً عصر ذلك اليوم. كان معه السير هنري لاشينغن طيلة العصر، وقد انفصل بالآنسة غينش عدة مرات، ومع ذلك فقد اكتشفت أنها غادرت المكتب بين الساعة الثالثة والرابعة؛ خرجت لشراء بعض الطوايع البريدية التي نفدت من المكتب. كان يومها إرسال صبي المكتب لشراء الطوايع، ولكنها اختارت أن تذهب بنفسها قائلة إنها مصابة بالصداع وتحب استنشاق بعض الهواء الطلق، وتم تعب طويلاً.

- ولكنها غابت بما يكفي؟

- نعم، غابت بما يكفي للذهاب سريعاً إلى الطرف الآخر من القرية ودر رسالة في الصندوق والعودة مرة أخرى. ولكن لا بد لي من القول إن أحداً لم يرها قرب بيت سيمينغن.

- أكان من شأن أحد أن يحتفظها؟

- ربما، وربما لا.

- ومن غيرها في جعبتك؟

تظهر ناش أمامه بصورة مستقيمة وقال: أنت تفهم أننا لا نستطيع استثناء أي شخص... أي شخص على الإطلاق.

- نعم، أفهم ذلك.

قال بنجهم: لقد ذهبت الآنسة غريفيث إلى برينتن لحضور اجتماع لفتيات الكشفة بالأمس، وقد وصلت إلى هناك متأخرة.

- لا أحسبك تظن...

- كلا، لا أظن. ولكني لا أعرف. إن الآنسة غريفيث تبدو امرأة عاقلة وواعية تماماً... ولكن، كما قلت، لا أعرف.

- وماذا عن الأسبوع الماضي؟ أيمكن أن تكون قد دسبت الرسالة في الصندوق؟

- ممكن، فقد كانت تتسوق في البلدة عصر ذلك اليوم.

سكت قليلاً ثم قال: نفس الأمر ينطبق على إميليا بارتن. كانت قد خرجت للتسوق في وقت مبكر من بعد ظهر أمس، وذهبت شيئاً على الأقدام لرؤية بعض صديقاتها على الطريق الذي يمر أمام بيت سيمتغن الأسبوع الماضي.

هزئت رأسي غير مصدق. كنت أعرف أن العشر في منزل لينل فيرز على الكتاب الذي قصت منه الأوراق سيؤدي حتماً إلى توجيه الانتباه نحو صاحبة البيت، ولكنني عندما تذكرت قدوم الآنسة إميليا بالأمس بكل ذلك الإشراف والسعادة والانفعال...

تباً للأمر كله... الانفعال... نعم، كانت منغلقة... بخدين مئوردين، وعينين لامعتين... من المؤكد أن ذلك لم يكن بسبب... لم يكن لأنها...

قلت على نحو غامض: ما أسوأ هذا الأمر على المرأة! فهو يجعله يرى أشياء عديدة... ويتصور أشياء كثيرة...

قال ناش: نعم، ليس من المفرح كثيراً أن ينظر المرء إلى من يلتقيهم من زملائه البشر على أنهم مجرمون مهووسون. وسكت لحظة ثم أكمل: ولدنا السيد باي...

قلت بحددة: أوفد فكرتم فيه إذن؟

ابتسم ناش وقال: أوه، نعم، فكرنا فيه دون شك. شخصية غريبة جداً... ولا أظنها شخصية لطيفة كثيراً. ليس لديه ما يثبت مكان وجوده ساعة الجريمة. كان في حديقته وحيداً في كلا الحادثتين.

- إذن فأنتم لا تشبهون بالنساء فقط؟

- لا أظن أن من كتب الرسائل رجل... بل إنني متأكد من ذلك في الواقع، وكذلك غريغز، مع وضعنا لصاحبتنا السيد باي في أذهاننا دوماً، ذلك أن في شخصيته بعض الملامح الأنثوية الشاذة. لكننا راجعنا تحركات الجميع بالنسبة لعصر أمس؛ فهذه جريمة قتل كما نعلم. وضعك أنت على ما يرام، وكذلك أحسبك، والسيد سيمتغن الذي لم يغادر مكتبه بعد أن وصل إليه، وكذلك الدكتور غريفيث الذي كان يقوم بحركة على المرضى في الجانب الآخر من البلدة، وقد تحققت من الزيارات التي قام بها.

سكت، ثم ابتسم ثانية وقال: نحن - كما ترى - لا نترك شيئاً للصدف.

قلت ببطء: إذن فقد نمت تصفية القضية بحيث لم يتبق إلا هؤلاء الأربعة: الأنسة غينش، والسيد بايه، والأنسة غريفيث، والأنسة بارتن؟

- أوه، كلا، لدينا اثنان غيرهم... إلى جانب زوجة الكاهن.

- هل فكرتم فيها؟

- فكرنا في الجميع، ولكن جنون السيدة كالثروب أكثر صراحة ووضوحاً من أن تكون هي، إن كنت تفهم ما أعنيه. ومع ذلك يمكن أن تكون قد فعلتها. كانت في الغابة ترفب الطيور عصر أمس... ولا يمكن للطيور أن تشهد لصالحها.

التفتُ بحدّة عندما دخل أوين غريفيث إلى مركز الشرطة قائلاً: مرحبا يا ناش. سمعت أنك كنت تسأل عني هذا الصباح. هل من شيء هام؟

- سيكون التحقيق يوم الجمعة إن كان ذلك يلائمك يا دكتور غريفيث.

- جيد، سنقوم أنا ومورسي بشريح الجثة هذه الليلة.

قال ناش: شيء آخر يا دكتور غريفيث. كانت السيدة سيمنتن تتناول بعض الأقراص أو الكبسولات التي وصفتها لها...

ثم سكت، فقال أوين غريفيث متسائلاً: نعم؟

- هل كان من شأن جرعة زائدة من هذه الأقراص أن تكون

قاتلة؟

قال غريفيث بحفاة: كلا، بالتأكيد. إلا إذا تناولت خمسة وعشرين قرصاً مثلاً؟

- لكلكل حذرتها مرة من تجاوز الجرعة المقررة كما أخبرتني الأنسة هولاند.

- نعم، هذا صحيح. فقد كانت السيدة سيمنتن من ذلك النوع الذي يمكن أن يعتمد إلى المبالغة في تناول أي شيء بوصف له... تتخيل أن مضاعفة الجرعة سيغني مضاعفة التحسن، لكننا لا نريد لأي مريض أن يضاعف جرعته حتى لو كانت من الأسبرين؟ فمثل هذا مضر. وعلى أية حال، ليس هناك أي شك على الإطلاق في سبب وفاتها؛ فقد حدثت بسبب السيانيد.

- أوه، أعرف ذلك... أنت لم تدرك قصدي. لقد رأيتُ فقط أن مَنْ يريد الانتحار سيقبّل أخذ جرعة مضاعفة من المنوم على إطعام نفسه حمض البروسيك.

- صحيح، ولكن حمض البروسيك - من ناحية أخرى - أكثر درامية، ويؤدي الغرض بصورة أكيدة. ولو تناول المنتحر مادة منومة مثلاً فمن الممكن إسعافه إذا أدر كته في الوقت المناسب.

- فهمت، أشكرك يا دكتور غريفيث.

غادر غريفيث، وودعتُ ناش، وعدت إلى البيت صاعداً التلة ببطء. كانت جوانا خارج البيت... أو لم تكن فيه أية إشارة على وجودها على الأقل، وكانت هناك ملاحظة مهمة مكتوبة بخط سريع على حامل الهاتف، والمفترض أنها كانت توجيهاً إما لي أو

لبارتريدج: "إذا اتصل الدكتور غريفيث فلا يمكنني المضي يوم الثلاثاء، ولكن يمكن ترتيب ذلك يوم الأربعاء أو الخميس".

رفعت حاجبي ودخلت غرفة الاستقبال، حيث جلست على أكثر الكراسي راحة (ولم يكن أيٌّ منها مريحاً تماماً لأن ظهورها مستقيمة وهي من بقايا المرحومة السيدة بارتن) ومددت ساقي وحاولت التفكير في الأمر كله.

تذكرت -بازعاج مفاجئ- أن وصول أوين قد قطع عليّ حديثي مع الغمش وأنه كان قد ذكر لشوه وجود شخصين آخرين مشتبهِ فيهما. وتساءلت عن هوية هذين الشخصين: أتكون بارتريدج واحدة منهما؟ فالكتاب الذي قُصت منه الأوراق وُجد في هذا البيت ويمكن أن تكون أغنيس قد ضُربت على يد مُرشدتها وراعيتها وهي غافلة لا تشك بشيء. كلا، لا يمكن استبعاد بارتريدج، ولكن من هو الآخر؟ أليكون شخصاً قد لا أعرفه؟ السيدة كليث؟ المشبوهة الأولى في القرية؟

أغمضت عيني وفكرت في أربعة أشخاص الواحد تلو الآخر، والغريب أنهم كانوا غير مرجحين. أتكون إميلي بارتن اللطيفة الضئيلة الضعيفة؟ ما هي النقاط الموحدة عملياً ضدها؟ حياة الحرمان؟ الكبت والسيطرة اللذين تعرضت لهما منذ طفولتها المبكرة؟ التضحيات الكثيرة التي كانت مطلوبة منها؟ رعبها الغريب من مناقشة أيِّ موضوع "ليس لطيفاً"؟ أكان ذلك عملياً مؤشراً على انشغال داخلي مرضي بتلك الموضوعات نفسها؟ أحسست أنني أصبحت قرويدياً إلى درجة فظيعة. تذكرت أن أحد الأطباء أخبرني

يوماً بأن هنوسات السيدات العوانس اللطيفات عندما يقعن تحت تأثير المخدر كانت كشفاً مذهلاً؛ قال لي: ما كان المرء يظن أنهم يعرفون مثل تلك الكلمات!

إيمى غريفيث؟ لم يكن فيها -بال تأكيد- شيء مكبوت أو مُحبط. امرأة مرحة مسرجلة ناجحة، وحياة مليئة مشغولة. ومع ذلك فقد قالت السيدة كالفروب عنها: "فتاة مسكِنة!"

وكان هناك شيء... شيء ما... آه! لقد ذكرته. لقد قال أوين غريفيث شيئاً من قبيل: "لقد حدثت موجة من تلك الرسائل المحبولة في الشمال حيث كنتُ أعمل". أكان ذلك أيضاً من عمل إيمى غريفيث؟ من المؤكد أن تلك مصادفة لا تكاد تُصدق: أن تحدث موجتا رسائل من نفس النوع. ولكن تمهل لحظة، فقد عثر الشرطة على كاتبة تلك الرسائل. لقد قال غريفيث ذلك، وكانت طالبة مدرسة.

أصبح الجو بارداً فجأة... لا بد أنه تيار هوائي من النافذة. تقلبت على الكرسي منزحاً. لمأذا شعرت فجأة بهذا الإحساس الغريب وهذا الإنزعاج؟

امضي في تفكيرك... إيمى؟ أتكون كاتبة تلك الرسائل هي إيمى غريفيث وليست تلك الفتاة الأخرى؟ ربما جاءت إيمى إلى هنا وبدأت بممارسة جيلها ثانية، ولهذا كان أوين غريفيث يبدو تعباً شديداً القلب؛ لقد شكّ بالحقيقة نعم، لقد شكّ...

أم نراه يكون السيد باي؟ إنه -بطريقة ما- ليس بالرجل

اللطيف جداً، يمكنني تصويره وهو يقوم بهذا الأمر كله... ضاحكاً!

تلقت الرسالة المكتوبة على حاملة الهاتف في الصالة... لماذا أواصل التفكير فيها؟ غريفيث وجوانا... كان يقع في حبيها... ولكن لا، لم يكن ذلك هو السبب الذي جعل الرسالة تعلقني. كان شيئاً آخر...

كانت حواسي تسبح، وكان النوم قريباً مني. كررت في نفسي بغياء: "لا دخان بلا نار. لا دخان بلا نار... هذه هي الحقائق كلها تترايط معاً...". وبعدها رأيتني أسير في الشارع مع ميغان، ومرت إلسي هولاند. كانت تلبس ثياب العروس والناس يتعجبون: سوف تنزوج الدكتور غريفيث أخيراً، فقد كانا طبعاً مخطوبين سراً منذ سنوات...

كنّا في الكنيسة، وكان كالثروب يقرأ الخطبة باللاتينية، وفي وسط الخطبة ففرت السيدة كالثروب من مقعدها وصاحت بقوة: يجب إيقاف هذا... يجب إيقاف هذا!

وليضع لحفظات لم أعرف إن كنت نائماً أم مستيقظاً. ثم صفنا ذهني، وأدركت أنني كنت في غرفة الاستقبال في ليشل فيروز وأن السيدة كالثروب قد دخلت ثوبها من الباب الزجاجي وكانت تقف أمامي وتقول بغضب وعصبية: يجب إيقاف هذا.

قفزت قائلاً: أرجو المَعذرة، لم أسمعك! أخشى أنني كنت نائماً. ماذا قُلت؟

ضربت السيدة كالثروب بقبضتها على راحة يدها الأخرى بقوة

وقالت: يجب وقف هذا. هذه الرسائل... جرائم القتل... لا يمكن الاستمرار في قتل أطفال أبرياء أمثال أغنيس وُدل!

- أنت محقة تماماً، ولكن كيف تنوين إيقافها؟

- يجب أن تفعل شيئاً!

ابتسمتُ، وربما كان في ابتسامتي شيء من الفوقية، ثم قلت: وما الذي تقترحين علينا عمله؟

- يجب توضيح كل شيء! لقد قُلت إن هذه ليست بلدة شريرة. ولكنني كنت مخطئة، إنها شريرة.

شعرت بالضيق، وقلت بشكل لم أراع فيه كثيراً من الأدب: نعم يا سيدتي العزيزة، ولكن ماذا ستفعلين؟

- أضع حداً لهذا الأمر كله بالطبع.

- الشرطة يبدلون كل جهدهم.

- إن كانت أغنيس قد قُلت بالأمس فإن كل جهدهم ليس كافيًا.

- إذن فأنت تعرفين أفضل منهم؟

- أهدأ، أنا لا أعرف شيئاً على الإطلاق، ولهذا سأستدعي عييراً.

هزرت رأسي وقلت: لا يمكنك فعل ذلك؛ إذ أن سكوتلانديارد لا تتدخل إلا بناءً على طلب من رئيس الشرطة في المقاطعة، وقد قامت في الواقع بإرسال غريفر.

- لا أقصد خبيراً من هذا النوع. لا أقصد شخصاً يعرف عن هذه الرسائل المجهولة أو حتى عن جرائم القتل. أقصد شخصاً يعرف الناس. ألا تفهم؟ تريد شخصاً يعرف الكثير عن الشر!

كانت وجهة نظر غريبة، ولكنها كانت مُحفزةً على نحو ما. وقبل أن أنفوه بأية كلمة أخرى أو مات السيدة كالثروب برأسها لي وقالت بنبرة سريعة وواثقة: أنا سأتولى ذلك في الحال.

ثم خرجت من الباب الزجاجي مرة أخرى.

* * *

الفصل العاشر

أظن أن الأسبوع الذي تلا ذلك كان من أكثر الأسابيع التي مرت عليَّ غرابية. كان في أحداثه شيء أشبه بالأحلام، إذ لم يبدو أي شيء حقيقياً.

تم التحقيق في مقتل أغنيس وُدل، وحضره كل سكان لايمستوك الفضوليين. لم تظهر أية حقائق جديدة وعاد نفس الحكم المتوقع: "جريمة قتل بواسطة مجهول أو مجهولين".

وهكذا تم دفن المسكينة أغنيس وُدل في مقبرة الكنيسة القديمة الهادئة بعد أن نالت نصيبها من الاهتمام العام، واستمرت الحياة في لايمستوك كما كانت عليه من قبل. ولكن كلاً، تلك العبارة الأخيرة ليست صحيحة؛ ليس كما كانت عليه من قبل...

ففي عین كل امرئ من سكان البلدة كانت التماعة تصفها رعب ونصفها لهفة وجشع، وأخذ الحار ينظر إلى جاره. لقد انضحت في التحقيق نقطة واحدة... وهي أن من المستبعد تماماً أن يكون قاتل أغنيس وُدل شخصاً غريباً عن البلدة، إذ لم يلحظ أحد وجود مشردين أو رجال غير معروفين في المنطقة. كان - إذن - في مكان

ما في لايمستوك شخص يسير في الشارع العام، يتسوق، ويقضي ساعات النهار، بعد أن حطم جمجمة فتاة لا حول لها ولا قوة وغرس سيخاً حاداً في رأسها. ولم يعرف أحد من هو ذلك الشخص!

وكما قلت، مرّت الأيام كأنها حلم. كنت أنظر إلي كل من ألقبه وقتي منظور حديد، منظور الخشية من أن يكون قاتلاً محتملاً. ولم تكن تلك بالتجربة المريحة! وفي الأمامي، عندما تُسدل الستائر، كنت أجلس مع جونا نتحدث ونناقش جميع الاحتمالات التي بقيت -رغم ذلك- مُستعدة لا يمكن تصديقها.

تمسكت جونا بنظريتها القائلة إن الفاعل هو السيد باي. أما أنا فقد عدتُ بعد قليل من التردد إلى مشبوهتي الأصلية، الأنسة غينش. ولكننا ناقشنا الأسماء المحتملة مرة تلو الأخرى: السيد باي... الأنسة غينش... السيدة كالثروب... بارنريدج... إيمسي غريفيث... إميلي بارتن؟

وكنّا -طيلة هذه الفترة- نتنظر بعصبية وخشية وقوع شيء، ولكن لم يقع شيء. لم يتلق أحد -حسب علمنا- أية رسائل أخرى. كان ناش يظهر في البلدة بصورة دورية، ولكنني لم أكن أعرف ماذا كان يفعل وما هي القحاح التي كان ينصيحها، وكان غريفز قد رحل مرة أخرى.

جاءتنا إميلي بارتن لشرب الشاي، وجاءت ميفان للغداء، وكان أوبن غريفيث يدور على مرضاه. ذهبنا وشربنا الشاي عند السيد باي، كما ذهبنا لشرب الشاي في بيت الكاهن.

كنت مسروراً إذ وجدتُ أن السيدة كالثروب لم تُظهر تلك

الغسوة التي أبدتها في لفاتنا الأخير، وأظن أنها نسبت كل شيء عن هذا الأمر. يدت الآن منهتة بصورة أساسية في القضاء على الفرائش الأبيض للمحافظة على مزروعات القرنيط والملفوف.

والحق أن الأمسية التي قضيناها في بيت الكاهن كانت من أكثر زيارتنا هدوءاً. كان بيتاً قديماً جميلاً، فيه غرفة استقبال كبيرة مريحة رغم قدمها، وقد نُحِدْ أثاثها بقماش وردي فاتح. وكانت في البيت ضيفة تقيم مع الكاهن وزوجته، وهي سيدة عجوز لطيفة كانت تحبك ثوباً ما بصوف أبيض.

تناولنا مع الشاي كعكة ساخنة لذيذة، وجاء الكاهن وابتسم في وجوها بينما كان يحدثنا حديثه اللطيف الدال على سعة علمه. كانت جلسة سارة جداً. ولكنني لا أقصد بهذا أننا ابتعدنا كثيراً عن موضوع جريمة القتل، لأننا -فعلاً- لم نبتعد.

كانت الضيفة العجوز -واسمها الأنسة ماربل- قد أثارها هذا الموضوع. وكما قالت معتبرة: "ليس لدينا في الريف إلا القليل جداً من الموضوعات التي تصلح للحديث!". وقد قررت أن الفتاة القتيلة كانت تشبه دون ريب عادمها إيديث، وقالت: كانت عادمة صغيرة في غاية اللطف والتعاون، ولكن لديها أحياناً القليل من البطء في استيعاب الأمور.

كما قالت الأنسة ماربل إن لها ابن عم له ابنة أخ كانت أخت زوجها قد عانت من إزعاجات ومشكلات كثيرة بسبب بعض الرسائل المجهولة، وبذلك فبأن موضوع الرسائل كان هو الآخر منيراً جداً بالنسبة للعجوز الرائعة.

قالت تحاطب السيدة كالثروب: ولكن أخبريني يا عزيزتي، ما الذي يقوله أهل القرية... أفصد أهل البدة؟ ما هو رأيهم؟

قالت جوانا: أفنهم ما زالوا يظنون أنها السيدة كلت.

قالت السيدة كالثروب: أوه، كلا. ليس الآن.

سالت الأنسة ماربل عن تكون السيدة كلت هذه، فأجابتها جوانا بأنها ساحرة القرية، ثم قالت: ليس هذا صحيحاً يا سيدة كالثروب؟

نعم الكاهن عبارة طويلة مقتبسة باللغة اللاتينية خُيل إلي أنها عن موضوع القوة الشريرة للساحرات. وقد أصغينا جميعاً لكلامه بصمت واحترام دون أن نفهم كلمة واحدة.

قالت زوجته: إنها امرأة سخيفة جداً. تحب الشباهي والإبهاء بأمور معينة؛ فتخرج لتجمع الأعشاب عندما يكون القمر بدرًا وتحرض على أن يعلم كل أهل القرية بهذا الأمر.

قالت الأنسة ماربل: وأحسب أن الفتيات السخيفات يذهبن ويستشرنها؟

رأيت الكاهن يستعد لصب المزيد من العبارات اللاتينية على مسامعنا فسارعتُ أسأل: ولكن لماذا لا ينسك الناس الآن بارتكابها جريمة القتل؟ لقد توقعوا أن تكون الرسائل من فعلها.

قالت الأنسة ماربل: أوه! ولكن الفتاة قتلت بسميح من خديج كما سمعت (وهي فعلة شنيعة جداً). إن من الطبيعي أن يُبعد هذا

الأسلوب كل الشبهات عن السيدة كلت، إذ كان بإمكانها أن تطلب لها الشر بحيث تمرض الفتاة تدريجياً ثم تموت لأسباب طبيعية.

قال الكاهن: غريب كيف تستمر هذه المعتقدات القديمة!

قالت زوجته: ما يتوجب علينا التعامل معه الآن ليس الخرافات بل الحقائق.

قلت: وهي حقائق كريهة جداً.

قالت الأنسة ماربل: كلامك صحيح يا سيد بيرتن... أرحو أن تعذري إن كان كلامي شخصياً؛ ولكنك غريب هنا، ولديك معرفة بالعالم وبحوائط الحياة المختلفة. ويبدو لي أن من المفترض أن تستطيع أنت إيجاد حل لهذه المعضلة البغيضة.

انبتست فقلت: إن أفعل حل توصلتُ إليه كان حلماً، وفي حلمي كانت كل الحقائق منسجمة تحت مكانها الصحيح وتعطي نتائج رائعة. وعندما استيقظت وجدت - مع الأسف - أن كل شيء كان هراء!

- هذا مثير جداً، أرحو أن أخبرني كيف كان ذلك الهراء!

- لقد بدأ الأمر كله بالعبارة السخيفة: "لا دخان بلا نار". كان الناس يرددون العبارة إلى حل مثير للاشمئزاز، ثم ما لبثت أن امتزجت لدي مع مصطلحات حربية: سوائر دخانية، قضاصة ورق، رسائل هاتفية... ولكن كلا، كان ذلك في حلم آخر.

- وماذا كان ذلك الحلم؟

كانت السيدة العجوز متلهفة على هذا الموضوع بحيث شعرت بأنها كانت بالتأكيد قارئة سرية لكتاب "تفسير الأحلام" الذي كان مرافقاً دائماً لمريتي العجوز.

قلت: رأيت فيه فقط أن السي هولاند (وهي مربية الأطفال في بيت سيمفنتن) تزوج من الدكتور غريغث، وكان مضيفنا الكاهن يتلو الخطبة باللاتينية... ثم نهضت السيدة كالثروب فاعترضت على الزواج وقالت إنه ينبغي وقف ذلك!

ثم أضفت ميسماً: ولكن ذلك الجزء الأخير كان حقيقياً؛ فقد نهضت من غغوتي فوجدتني تغني بجانبتي وتقولين هذا الكلام.

قالت السيدة كالثروب: وكنت على حق تماماً.

سررتُ إذ لاحظتُ أنها قالت ذلك بهدوء ودون انفعال.

سألت الأنسة ماربل وهي تغطب حاجبيها: ولكن أين جاءت الرسالة الهانفية التي ذكرتُها؟

- أوه، أخشى أنني أتصرف بغباء. فذلك لم تكن في الحلم، بل كانت قبله تماماً. جئت البيت ودخلت الصلاة فلاحظت أن جوانا كتبت رسالة صغيرة أرادت إبلاغها لأحدهم إذا ما اتصل هاتفياً...

مالت الأنسة ماربل إلى الأمام، وقالت وقد احمرَّت وجنتاها: هل ستعطيني فضولية جداً ودفعة جداً إذا سألتك عن فحوى تلك الرسالة؟ ثم قالت وهي تنظر إلى جوانا: أرحو المعذرة يا عزيزتي.

ولكن جوانا كانت مستمتعة جداً، فطمأنت السيدة العجوز

قائلة: أوه، لا مانع لدي. أنا - شخصياً - لا أذكر منها شيئاً، ولكن ربما استطاع جيري تذكرها. لا بد أنها كانت مسألة تافهة جداً.

كررتُ بحدية كلمات الرسالة بأفضل ما أمكنتي تذكره، وقد حفزني وسرَّني ما أبدته العجوز من اهتمام بالغ. كنت أخشى أن تحبب كلمات الرسالة أملها، ولكن ربما عطر لها خاطر توهمت معه وجود علاقة غرامية ما خلف تلك الرسالة، إذ أنها أومات برأسها وانسجمت ويدت مسرورة، وقالت: فهمت. لقد ظننتُ أنها ستكون شيئاً على هذا النحو.

قالت السيدة كالثروب بحدة: أي نحو يا جين؟

- أي أن تحوي كلاماً عادياً جداً.

نظرتُ إليّ متأملاً لبعض الوقت ثم قالت على نحو غير متوقع: بوسعي أن أرى أنك شاب ذكي جداً... ولكنك غير واثق من نفسك بما فيه الكفاية. ينبغي أن تثق بنفسك!

صاحت جوانا احتجاجاً: بالله عليك لا تشجعية على مثل هذا الشعور؛ يكفيه ما لديه من عجب بنفسه.

قلت: اسكني يا جوانا، إن الأنسة ماربل تفهمني.

استأنفت الأنسة ماربل حياكتها بالصنارة، ثم قالت بتأمل حزين: أنعلم، إن ارتكاب جريمة قتل ناجحة لا بد أن يشبه كثيراً تنفيذ حيلة من حيل السحر.

- أتعتين أن خفة اليد وسرعنتها تخدم العين؟

- ليس ذلك فقط. عليك أن تجعل الناس ينظرون إلى الشيء غير الصحيح وفي المكان غير الصحيح... شيء من قبيل التوجيه الخاطيء لانتباه الناس.

قلت: حتى هذه اللحظة يبدو أن الجميع قد نظروا إلى المكان الخطأ بحثاً عن محررنا المحتون.

قالت الأنسة ماريل: من شأني -أنا شخصياً- أن أميل للبحث عن شخص عاقل جداً.

قلت متأملاً: نعم، هذا ما قاله ناش. وأذكر أنه شدد على أنه شخص محترم أيضاً.

وافقت الأنسة ماريل قائلة: "نعم. هذا هام جداً". وبدأ أنا جميعاً وافقنا على هذا الرأي. ثم غاصبت السيدة كالتروب قائلاً: يرى المفتش ناش أننا سنشهد المزيد من الرسائل المجهولة. ما رأيك؟ قالت ببطء: أحسب أن ذلك قد يحدث.

قالت الأنسة ماريل: إذا كان الشرطة يفتنون ذلك، فسيكون الأمر دون شك كما يظنون.

توجهت بإصرار إلى السيدة كالتروب قائلاً: أما زلت تشفقين على كاتب تلك الرسائل؟

احمر وجهها وقالت: ولم لا؟

قالت الأنسة ماريل: لا أخفني أوافقك الرأي يا عزيزتي... ليس في هذه القضية.

قلت متحمساً: لقد دفعت تلك الرسائل امرأة إلى الانتحار وتسببت في بؤس وحسرة لا يوصفان!

سألت الأنسة ماريل جوانا: هل تلقيت واحدة يا آنسة بيرتن؟ فهتفت جوانا وقالت: أوه، نعم! وقد ذكرت أموراً مخيفة جداً. قالت الأنسة ماريل: أخشى أن يكون كاتب الرسائل أكثر ميلاً للاققاء من يستمعون بالشباب والجمال.

قلت: هذا ما يجعلني أستغرب من استثناء إلسي هولاند من تلقي أية رسالة.

قالت الأنسة ماريل: انتظر لحظة... أنعني مربية الأطفال لدى عائلة سيمنغتن؟ الفتاة التي حملت بها يا سيد بيرتن؟ - نعم.

قالت جوانا: ربما تلقت واحدة ولكنها لا تريد قول ذلك. قلت: لا، إنني أصدقها، وكذلك ناش.

قالت الأنسة ماريل: يا إلهي هذا منير جداً... هذا أكثر ما سمعته إثارة حتى الآن!

* * *

أخبرتني جوانا -قيماً كنا عائدتين إلى البيت- أنني أخطأت إذ كررت ما قاله ناش بخصوص استلام المزيد من الرسائل. سألتها: لماذا؟

- لأن السيدة كالشروب قد تكون الفاعلة.

- أتصدقين ذلك حقاً؟

- لست متأكدة؛ فهي امرأة غريبة الأطوار.

وعدنا إلى مناقشة الاحتمالات من جديد.

بعد ذلك بليلتين كنت عائداً بالسيارة من إيكرامبتن. كنت قد تناولت العشاء هناك ثم انطلقت عائداً بحيث لم أصل إلى لايمستوك إلا وقد خيم الظلام. وقد أصاب أنوار السيارة عطبٌ ما، فبطأت السرعة وحاولت إطفاء وإشعال الأنوار ثانية، ثم أوقفت السيارة وخرجت منها لرؤية ما يمكن فعله، وبقيت أعيث بها فترة من الوقت إلى أن نجحت أخيراً في إصلاحها.

كان الطريق خالياً تماماً؛ إذ لم يكن أحد يخرج من لايمستوك بعدما يخيم الظلام. كانت أمامي مباشرة أول بيوت البلدة، ومن ضمنها ذلك المبنى الكرهه لجمعية المرأة. كان يلوح من بعيد منتصباً في ضوء النجوم الخافت، ودفعني شيء في داخلي لأن أذهب وألقي نظرة عليه. لا أدري إن كنت قد لمحت بشكل غير مؤكد ما بدا لي شخصاً دخل البوابة خلسة... ولكن كان الأمر كذلك فقد كان ذلك الانطباع واضحاً لدرجة لم ينطبع معها في عقلي الواعي، ولكنني أحسست فجأة بتروع من الفضول الطاغى إزاء هذا المبنى.

كانت البوابة مفتوحة قليلاً، فدفعتها ودخلت، ورأيت أمامي ممراً قصيراً وأربع درجات تؤدي إلى باب المبنى. وقفت هناك لحظة متردداً؛ ما الذي كنت أفعله حقاً؟ لم أكن أعرف، وفجأة

سمعت بقربي صوتاً خفيفاً... بدا أشبه بصوت فستان امرأة. درتُ بسرعة وذهبت إلى زاوية المبنى حيث كان مصدر الصوت.

لم أستطع رؤية أحد، فواصلتُ سيرتي وانعطفت عند زاوية أخرى. أصبحت الآن عند خلفية البيت، وفجأة رأيت نافذة مفتوحة على بعد قدمين مني فقط. زحفت أسفلها وأصغيت. لم أستطع سماع شيء، ولكنني أحسست -بشكلٍ ما- بأنني مفتتح بوجود شخص في الداخل.

لم يكن ظهري قد غداً صالحاً بعد للألعاب الهوائية، ولكنني تمكنت من رفع نفسي والقفز إلى الداخل، وقد أحدثتُ حركتي هذه صوتاً لسوء الحظ. وقفت أمام النافذة مصغيّاً، ثم سرت إلى الأمام ويديا ممدودتان أمامي. وسمعت صوتاً خائفاً جداً أمامي إلى جهة اليمين.

كنت أحمل في جيبتي كشافاً صغيراً فأضائه، وعلى الفور سمعت صوتاً منخفضاً يقول بحدّة: "أطفئ هذا". وأطفئه فوراً، لأنني أدركت في تلك اللحظة القصيرة أنه كان المفتش ناش.

أحسست به بمسكتي من ذراعي ويدفعني من خلال الباب إلى ممر، وهناك -حيث لا توجد نافذة تقضح وجودنا أمام أحد من الخارج- أضاء المفتش كشافاً ونظر إليّ نظرة تعبر عن الحزن أكثر مما تعبر عن الغضب، ثم قال: أكان يجب أن تتدخل في هذه اللحظة بالذات يا سيد بيرن.

اعتذرت له قائلاً: آسف... ولكن اتفاني إحساس داخلي بأنني سأعثر على شيء ما.

- وربما كنت ستعثر على شيء بالفعل. هل رأيت أحداً؟

ترددت ثم قلت ببطء: لست متأكداً. كان لدي إحساس غامض بأنني رأيت شخصاً يتسلل من البوابة الأمامية، لكنني لم أَرُ أحداً رؤية محققة، ثم سمعت صوت خفيف عند جانب البيت.

أوماً نأش برأسه وقال: هذا صحيح؛ جاء شخص خلف البيت قبلك. وقد تردد قليلاً عند النافذة، ثم ذهب بسرعة... فقد سمعك، كما أظن.

اعتذرت له ثانية وسألته: ما هو الموضوع؟

- إني أراهن على الفرضية القائلة إن من يكتب مثل هذه الرسائل لا يستطيع التوقف عن كتابتها. ربما كانت كاتبها على علم بخطورة ما تفعله، ولكنها ستضطر لفعله. إنه أشبه بالإدمان على الشراب أو المخدرات.

أومات برأسي، فمضيت قائلاً: ولذلك فإني أنصوّر بأن كاتبة هذه الرسائل - كاتبة من كانت - ستحوص على أن تبقى الرسائل على نفس النمط قدر الإمكان. لقد انتزعت تلك الصفحات من ذلك الكتاب، ويمكنها الاستمرار في استخدام الحروف والكلمات بعد قصها من تلك الصفحات. ولكن الملاحظات تمثل لها صعوبة، إذ سيتعين عليها أن تطبعها على نفس الآلة الكاتبة. لا تستطيع المحازفة باستخدام طابعة أخرى أو باستخدام خط يدها.

سألته غير مصدق: أتعبد حقاً أنها ستواصل نفس اللعبة؟

- نعم، وأراهنك بأي شيء تريده على أنها واثقة جداً بنفسها.

إن أمثال هذه المرأة يملوهم الغرور! ولذلك فقد تصورت أن الفاعلة ستأني إلى الجمعية بعد أن يحل الظلام حتى تستخدم الآلة الكاتبة.

قلت: الآنسة غيتش.

- ربما.

- ألم تعرف بعد؟

- لا أعرف.

- ولكنك تشك؟

- نعم، ولكن الأفعال شديدة المكر هاسيد بيرتن؛ إنه يعرف جميع أساليب اللعبة.

أستطيع أن أتخيل الشبكة التي نشرها ناش على اتساعها. ليس عندي شك أن كل رسالة يكتبها مشبوه ويضعها في البريد أو يسلمها باليد يتم تفتيشها فوراً. سوف تزل قدمنا الحثاني عاجلاً أم آجلاً، وسوف يزداد إهمالاً.

اعتذرت للمرة الثالثة عن وجودي الحماسي غير المرغوب فيه، فقال ناش بأسلوب فلسفي: حسناً، هذا ما لم يكن بالإمكان تفاديه. حقاً أفضل في المرة القادمة.

خرجت إلى عتمة الليل، فرأيت ظل شخص يقف إلى جانب سيارتي. ولشدة دهشتي أدركت أنها ميجان. قالت: مرحباً، ظننت أن هذه سيارتك. ما الذي كنت تفعله؟

- الأخرى أن أسأل ما الذي تفعلينه أنت.

- خرجت أتمشي. إنني أحب المشي في الليل! لا أحد يوقفك ويتحدث معك يحدث سخيـف. كما أفني أحسب النجوم، ورائحة الأشجار تكون أذكى، وتبدو الأمور اليومية الاعتيادية أكثر سحراً.

- أسلم معك بصحة هذا كله ولكن القفـظ والساحرات فقط هن اللاتي يخرجن في الظلام، وسوف يتساءل أهل البيت عن مكان وجودك.

- كلا، لن يتساءلوا، إنهم لا يتساءلون أبداً عن مكاني.

- كيف تسير أمورك؟

- أفلتها على ما يرام.

- هل تهتم بك الأنسة هولاند وترعاك؟

- إلسي لا بأس بها. لا يسعها إلا أن تكون مغفلة تماماً.

- وصف فقط، ولكنه ربما كان صحيحاً. اركبي حتى أوصلك

إلى البيت.

لم يكن صحيحاً أن أحداً لا يلتفتد ميغان؛ فقد كان سيمينغتن واقفاً على عتبة الباب عندما وصلنا. نظر باتجاهنا وقال: مرحباً، هل ميغان موجودة معك؟

- نعم، لقد أحضرتها إلى البيت.

قال سيمينغتن بحدّة: يجب ألا نخرجي هكذا دون أن نخبرينا يا ميغان؛ لقد قلقت الأنسة هولاند عليك كثيراً.

تمتعت ميغان بكلمات غير مفهومة وهي تعبر أمامه وتدخل البيت. تنهد سيمينغتن وقال: إن البيت البالغة مسؤولية عظيمة عندما لا تكون عندها أم ترعاها، وأحسبها كبرت على المدرسة.

ثم نظر إليّ بشيء من الارتياح وقال: أفلتك أخذتها معك في نزهة بالسيارة؟

رأيت أن من الأفضل ترك السؤال هكذا.

* * *

منتصف طريقي إلى المحطة وأريت ميغان تسير على غير هدى.
توقفتُ وقلت: مرحباً، ماذا تفعلين؟

- خرجت لأتمشي فقط.

- ولكنني أرى أن مشيك ليس بالمشي الرشيق السريع. أنت
تمشين زحفاً كسرطان الماء الحزين.

- ذلك لأنني لا أقصد مكاناً محدداً بذاته.

- إذن يمكنك أن تأتي لتوديعي في المحطة.

فتحت باب السيارة، فقفزت ميغان فيها وسألني: إلى أين أنت
ذاهب؟

- إلى لندن؛ لرؤية طبيبي.

- هل تدهورت حالة ظهرك؟

- لا، لقد عاد طبيعياً الآن، وأتوقع أن يسعد الطبيب كثيراً لذلك.

أومأت ميغان برأسها وقادت السيارة وصولاً إلى المحطة،
وهناك أوقفتها ودخلت المحطة واشترت تذكري من شباك للحجز.
كان على الرصيف عدد قليل جداً من الناس ولم يكن بينهم من
أعرفه. قالت ميغان: هل تمنعني إقراضني بنساً؟ أريد أن أشتري
قطعة من الشوكولاتة من تلك الآلة.

قلت وأنا أسلمها القطعة التقديبة المطلوبة: هاك يا طفلاتي.
أأنت واثقة أنك لا تربدين أيضاً علكة أو أقراص الحلل المرطبة؟

الفصل الحادي عشر

في اليوم التالي جن جنوني، وإذا أتذكر الآن هذا الأمر فلنأتي لا
أجد حقاً إلا هذا التفسير.

كان عليّ القيام بالزيارة الشهيرة للدكتور ماركوس كنت...
ذهبت بالقطار، ولشدة دهشتي اختارت جوانا أن تبقى في البيت،
مع أن من عاداتها دائماً أن تكون متلهفة على المحميء معي حيث
يبقى هناك بضعة أيام. واعتزمت هذه المرة العودة في نفس اليوم في
قطار المساء، ولكنني كنت -مع ذلك- مندحساً من جوانا؛ فقد
اكتفت بالقول بطريقة مبهمة إن لديها الكثير من العمل لتقوم به،
وتساءلت لماذا عساه تقضي ساعات في قطار رديء مزدحم بينما
كان الجو رائعاً في الريف.

كان ذلك بالطبع أمراً لا يمكن إنكاره، ولكنه بدا مخالفاً
لطبيعة جوانا. فالت إني لا تريد السيارة ولذلك يمكنني الذهاب بها
إلى المحطة وتركها هناك لحين عودتي.

نفع محطة لايمستوك -لسبب لا يعرفه أحد سوى شركة
سكك الحديد- على مسافة نصف ميل من لايمستوك نفسها. وفي

قالت دون أن تتبهي لسخرتي: أحب الشوكولاتة أكثر.

ذهبت إلى آلة الشوكولاتة ونظرت إليها وهي ذاهية بشعور من الغيظ المتسامي. كانت تلبس حذاءً بالياً وحوارب خيشنة قبيحة المنظر وبلوزة وتنورة لا شكل لهما. ولا أعرف لماذا أعاطني كل هذا، ولكنه أعاطني فعلاً.

قلت غاضباً عندما عادت: لماذا تلبسين هذه الحوارب المخزية؟

نظرت ميغان إلى حواربها مندهشة وقالت: وما العيب فيها؟
- كل العيب فيها؛ إنها كريهة! ولماذا تلبسين كنزة كأنها رأسٌ ملفوفٌ فاسد؟

- لا بأس بها، فهي عندي منذ سنوات.

- هذا واضح تماماً. ولماذا أنت...

في هذه اللحظة وصل القطار فقطع عليّ محاضرتي الغاضبة. دخلتُ مقصورة خالية في الدرجة الأولى، وأزلت النافذة، وأخرجت رأسي منها لأكمل الحديث.

وقفت ميغان أسفل مني ووجهها إلى أعلى. سألتني عن سبب غضبي، فقلت غير صادق: لست غاضباً، إنما أحسبت بالغيب لأنني أراك كمسولة ولا تهتمين بمظهرك.

- لا يمكن أن أبدو بمظهر حسن على أية حال، فما أهمية ذلك إذن؟

- يا إلهي، أريد أن أراك ثياباً جيدة... بودي أن آخذك إلى لندن وأكسوك من رأسك حتى قدمك.

قالت: لبتك تفعل!

بدأ القطار يتحرك، ونظرت إلى وجه ميغان الكئيب، وعندما اتباني الجنون كما قلت: فتحت الباب وأمسكت بميغان بمنزاع واحدة ورفعتها إلى المقصورة بسرعة!

أطلق الحمال صيحة غاضبة، ولكن كل ما استطاع فعله هو إغلاق الباب مرة أخرى بطريقة بارعة. رفعتُ ميغان عن الأرض، فسألتني وهي تسمح ركنتها: لماذا فعلت ذلك بالله عليك؟

- اسكني. ستأين معي إلى لندن، وعندما أفرغ من أمرك لن تعرفي نفسك! سأريك كيف يمكنك أن تظهري لو حاولت الاهتمام بنفسك! لقد سمعت من رؤيتك تتسكعين بهلايس رنة.

أطلقت ميغان آهة هامة تملؤها النشوة. وجاء محصل التذاكر فاشترت لها تذكرة ذهاب وعودة، وجلستُ في زاويتها تنظر إلى بنوع من الاحترام والرهبة. وعندما ذهب الرجل قالت: أرى أنك ممن يتصرفون من وحي اللحظة، أليس كذلك؟

- نعماً... إنها إحدى الصفات المتوارثة في عائلتنا.

كيف أشرح لميغان ذلك الإحساس المفاجئ الذي اتباني؟ كانت قد بدت أشبه بكلب حزين تركه صاحبه وراءه، وهي الآن تظهر من البهجة المستغربة ما يظهره الكلب إذ قرر صاحبه اصطحابه في نهاية الأمر.

قلت لها: لا أحسبك تعرفين لندن جيداً، أليس كذلك؟

- بل أعرفها. كنت أمر بها دائماً حين كنت أذهب إلى المدرسة. كما ذهبت إلى طيبب أسنان فيها، وإلى إحدى المسرحيات.

- هذه المرة ستكون لندن مختلفة.

وصلنا قبل نصف ساعة من موعدنا مع الطبيب في شارع هارلي، فأخذت سيارة أجرة وذهبتا إلى محل ميروتين للأزياء الذي نتعامل جوانا معه. وصاحبة محل ميروتين امرأة غيرة تقليدية في الخامسة والأربعين من عمرها اسمها ماري غري، وهي امرأة ذكية حلوة المعشر، وقد كنت معجباً بنوعها دائماً.

قلت لميغان: أنت ابنة عمي.

- لماذا؟

- لا تحدادي.

كانت ماري غري تتعامل مع فتاة بدنية وتصرّ على ثوب سهرة أزرق اللون ضيقاً كانت الفتاة قد افتتنت به. اقتربت منها وأخذتها جانباً وقلت: اسمعيني، لقد أحضرت ابنة عم لي. كانت جوانا ستأتي ولكن أمراً منعها فقالت إن بإمكانني ترك الأمر لك. هل ترين كيف يبدو الفتاة الآن؟

قالت ماري غري بانفعال: يا إلهي، إنني أراها بالطبع.

- حسناً، أريد أن تقلبي مظهرها رأساً على عقب ومن جميع النواحي. لك مطلق الصلاحية لتحضيرها بكل ما ترين. جوارب،

أحذية، ملابس داخلية، كل شيء! على فكرة، المحل الذي يصفق شعر جوانا قريب من هنا، أليس كذلك؟

- إنه عند الزاوية... سأندبر هذا الأمر أيضاً.

- أنت امرأة بالف امرأة!

- أوه، سأستمع بهذا الأمر، بغض النظر عن المال، مع أنه أمر لا يمكن الاستهانة به هذه الأيام... إن نصف البهايم من زبوناتي لا يدفعن قوتنهن أبداً. ولكن كما قلت، سوف أستمع بهذا الأمر.

نظرت إلى ميغان نظرة محترفة وسريعة وهي تقف بعيداً عنا وقالت: إن لها شكلاً جميلاً.

- لا بد أن لك عيني أنفذ من الأشعة السينية؛ فأنا لا أرى لها أي شكل.

ضحكت ماري غري وقالت: لا تقلق، دع الأمر كله لي.

- حسناً، سأعود وأخذها في الساعة السادسة تقريباً.

* * *

كان ماركوس كنت مسروراً من صحتي، وقد أخبرني بأنني تجاوزت أفضل توقعاته، ثم قال: لا بد أن لك بنية قبل حتى استعدت صحتك بهذه السرعة. يا له من رائع ذلك التأثير الذي يتركه على المرء هواء الريف وعدم التأخر في السهر أو التعرض لانتعالات... إن هو استطاع الالتزام بذلك.

- أوافقك على أول اثنين. ولكن لا تحسب أن الريف حلوة من الاتعالات؛ فادبنا الكثير منها في منطقنا.

- أي نوع من الاتعالات؟

- جرائم قتل مثلاً.

زَمْ ماركوس كنت شفتيه وصفرَ قائلاً: أهى مأساة حب ريفية؟ صبي مزروع يقتل فثاته؟

- أهدأ، بل قائل محادع مصمم محنون.

- لم أقرأ عن ذلك شيئاً. منى اعتقلوه؟

- لم يعتقلوه، كما أنها أنثى!

- ووه! لست واثقاً أن لايمستوك هي المكان المناسب لك أيها الفتى.

قلت بصلاية: بل هي كذلك، ولن تستطيع إخراجي منها.

- هكذا إذن! أوقد وجدت حسناء هناك؟

قلت وأنا أفكر بالسبي هولاند بشيء من الشعور بالذنب: إطلاقاً، كل ما في الأمر أن سيكولوجية الجريمة تنير اهتمامي.

- أوه، لا بأس. من المؤكد أنها لم تؤذك حتى الآن، ولكن نأكد فقط من أن محرماتك المحتوتة لن تقتلك أنت.

- لا خوف من هذا.

- ما رأيك بالعشاء معي الليلة؟ يمكنك أن تخبرني كل شيء عن جريماتك تلك.

- آسف؛ إنني محجوز.

- موعد مع سيدة؟ نعم، أنت تتقدم بالتاكيد.

قلت وقد أعجبني تخيل ميغان وهي تقوم بذلك الدور: أحسب أن يومك أن تسميها هكذا.

وصلتُ محل مبروتين الساعة السادسة، وهو موعد الإغلاق الرسمي للمحل. جاءت ماري غري لاستقبالي عند أعلى الدرج خارج غرفة العرض، وقالت وقد وضعت أصبعها على شفثيها: مستصاب بالصدمة! ولو صبح أن أقول ذلك عن نفسي لقلت إنني قمت بعمل رائع.

ذهبت إلى غرفة العرض الكبيرة. كانت ميغان تقف وتنتظر إلى نفسها في مرآة طويلة، وأصدتكم القول بأنني لم أكّد أعرفها؛ فقد أدهشني منظرها للحظات! طويلة ونحيفة بملابس أنيقة وحوارب حريرية وحذاء جميل... كانت الحودة والتميز في كل مظهر من مظاهرها، وقد تم تشذيب شعرها وتصفيفه ليناسب رأسها، وكان يلتمع كخبة الكستناء. ولقد كان لهم من الذوق ما جعلهم يتركون وجهها على حاله، بلا مساحيق أو أحمر الشفاه.

نظرت إليّ باحتشام وهي تبتسم ابتسامة خجولة وقالت: إنني أبدو... رائعة بعض الشيء، أليس كذلك؟

- رائعة؟ إن كلمة رائعة لا تكفي لوصفك! تعالي نذهب إلى

العشاء وسوف أندھش إن لم يلفت إليك كل الرجال... ستقهرين كل الفتيات!

لم تكن ميغان بالغة الجمال، ولكنها كانت ذات مظهر أسر وغير عادي؛ كانت ذات شخصية. دخلت المطعم تتقدمني، وأسرع التبادل إلينا يدعونا للجلوس على مائدة مناسبة. وبعدما تناولنا العشاء قالت ميغان: أليس هذا الطعام رائعاً؟ وكل شيء!

ثم تهذبت مسرورة، فقلت: نفس شعوري بالضبط.

كانت أمسية جميلة، وفجأة قالت ميغان بارتياح: ألا يجب أن نعود إلى البيت؟

فتحنت فمي دهشة. نعم، كنت مستغرقاً تماماً بحيث نسيت كل شيء. صحت: "يا إلهي!" فقد أدركت أن آخر قطار قد غادر. قلت: ابقي هنا، أنا ذاهب للاتصال بالهاتف.

اتصلت بشركة لويلين لتأجير السيارات وطلبت أن يرسلوا لنا أكبر وأسرع سيارة عندهم، وفي أسرع وقت ممكن. ثم عدت إلى ميغان وقلت لها: لقد غادر آخر القطارات لهذا اليوم، ولذلك سنعود إلى البيت بالسيارة.

- أحقاً؟ يا لها من متعة!

رايت كم كانت طفلة لطيفة... يسرّها كل شيء، لا نحادل، وتقبل كل افتراحاتي دون ضجة أو ندم. وصلت السيارة، وكانت كبيرة وسريعة، ومع ذلك لم نصل إلى لايمستوك إلا في وقت متأخر

جداً. قلت وقد شعرت فجأة بوخز الضمير: لا بد أنهم أرسلوا فرق تفتيش للبحث عنك!

لكن ميغان بدت في مزاج هادئ. قالت على نحو غامض: أوه، لا أظن ذلك؛ فأنا غالباً ما أخرج ولا أعود إلى البيت على الغلاء.

- نعم يا عزيزتي، ولكنك غيبت طوال النهار وتحلّفت عن العشاء أيضاً.

حالف الحظ ميغان؛ فقد كان البيت مظلماً وساكناً. وبناء على نصيحتهما درنا خلف البيت وألغينا حصي على نافذة غرفة روز.

وأخيراً أطلت روز من النافذة، وبعد الكثير من تعابير الدهشة المكبوتة والانفعال، نزلت لتدخلنا إلى البيت فائلة: ها أنت الآن، وأنا التي قلت إنك نائمة في فراشك. خرج سيدي مع الأنسة هولاند (قامت بحركة ازدراء عند ذكر الأنسة هولاند). تناولوا العشاء ميكراً وذهبا في زهرة بالسيارة، وقد قلت لهما إنني سأهتم بأمر الولدين. ظننت أنني سمعتك تدخلين عندما كنت في غرفة الأطفال لإسكات كولين الذي كان يلعب في الغرفة، ولكنك لم تكترني موجودة عندما نزلت، ولذلك ظننت أنك ذهبت إلى فراشك، وهذا ما قلته عندما جاء سيدي وسأل عنك.

قطعت الحديث لأقول إن من الأفضل لميغان أن تأوي إلى فراشها الآن. قالت ميغان: طابت ليلتك، وأشكرك شكراً لا حدود له... كان هذا أروع يوم في حياتي.

عدتُ بالسيارة إلى البيت وأنا ما زلتُ أضحك بالسعادة، ودفعتُ للسائق إكرامية كبيرة وعرضتُ عليه أن ينام عندنا إن شاء، لكنه فضل أن يعود إلى لندن في الليل.

كان باب الصالة قد افتتح أثناء حديثنا، وعندما انطلق بسيارته أطلتُ جوانا وقالت: إذن فقد عدتُ أخيراً؟

دخلتُ وأغلقتُ الباب خلفي وقلت: هل فلقنتِ علي؟

ذهبتُ جوانا إلى غرفة الاستقبال وتبعتهَا. كان إبريق القهوة موضوعاً على الطاولة فصبتُ جوانا فنجانين من القهوة لي ولها ثم قالت: فلقنتِ عليك؟ كلا بالطبع. ففُتنتُ أنك قررتِ البقاء في المدينة وقضاء سهرة حافلة.

- لقد قضيتُ سهرة حافلة... من نوع ما.

ابتسمتُ ثم بدأتُ أضحك. سألتني جوانا عن سبب ضحكتي فأخبرتها بما جرى، فقالت: ولكن بما جيري... لا بد أنك كنت مجنوناً، محتوناً تماماً!

- أظنتني كنتُ كذلك.

- ولكنك يا طفلي العزيز لا تستطيع فعل أشياء كهذه... ليس في مثل هذا المكان! سينتشر الخبر في كل أنحاء لايمستوك غداً.

- أظنه سينتشر بالفعل، ولكن ميغان محرومة طفلة في نهاية الأمر.

- ليست طفلة! إنها في العشرين. لا يمكنك أن تأخذ فتاة في

العشرين إلى لندن وتشتري لها ملابس دون إحداث فضيحة كبيرة. يا إلهي، ربما اضطررتُ للزواج بالفتاة!

كانت جوانا تخلط الجِدَّ بالهزل. وفي تلك اللحظة وصلتُ إلى اكتشاف هام جداً فقد قلتُ: تياً لذلك كله! أنا لن أمانع في الزواج بها. بل إنني في الحقيقة... سأحب ذلك.

ظهرت على وجه جوانا ملامح غريبة جداً. نهضتُ وقالت بشيء من الواقعية وهي تتجه نحو الباب: نعم، لقد عرفتُ ذلك منذ بعض الوقت...

تركنتي وفجاني بيدي واقفاً مشدوهاً باكتشافني الجديد.

* * *

ولكنها تمكنت من جعل تلك الملابس تبدو مختلفة. أمر رائع ما يفعله بالفتاة علمها بحقيقة جاذبيتها! وأدركت فجأة أن ميغان قد نضجت.

أظن أنني كنت عصبي المزاج قليلاً دون ريب، وإلا لما افتتحت معها الحديث بمحية قاتلاً: "مرحباً أينها القطة؟"، إذ لا تكاد هذه العبارة تكونه تحية مُحب في مثل تلك الظروف.

ولكن هذا أنها أعجبت ميغان. فقد ابتسمت وقالت: مرحباً!

- أرجو ألا تكوني قد تعرضت لمشاحرة بخصوص الأمس؟

قالت ميغان بيقظة: أوه، كلا.

ثم طرقت عينها وقالت بشكل غامض: نعم، أظن أنني خضت شجاراً. أقصد أنهم قالوا أشياء كثيرة وبدا أنهم رأوا الأمر غريباً جداً، ولكنك تعرف طبيعة الناس والضجة التي يفتعلونها من لا شيء.

ارتحت عندما وجدت أن الاستياء والصدمة لم يؤثرأ أبداً على ميغان. قلت لها: جئت هذا الصباح لأن عندي اقتراحاً أريد طرحه. أنت تعلمين أنني أحبك كثيراً، وأعتقد أنك تحبينني...

قالت ميغان بحماسة شديدة: كثيراً.

- كما أننا نتسجم مع بعضنا جيداً، ولذلك أرى أنها ستكون فكرة جيدة لو تزوجنا.

- أوه.

بدت عليها الدهشة... الدهشة فقط. لم تجفل من قلبي، ولم نقب بالصدمة؛ مجرد دهشة معتدلة. سألت بأسلوب من يريد استيضاح الأمر استيضاحاً تاماً: أعني أنك تريد الزواج بي حقاً؟

الفصل الثاني عشر

لا أعرف ماذا ينبغي لرجل يعزم الزواج أن تكون أحاسيسه.

في الروايات يكون حلقه جافاً ويشعر أن ياقته تضيق على رقبته كثيراً ويكون في حالة عصبية يرثي لها، ولكني لم أشعر بذلك على الإطلاق. فبعد أن توصلتُ إلى فكرة جيدة عزمتُ أمري على تنفيذها وتسويتها في أسرع وقت ممكن، ولم أر أي سبب خاص يدعوا للارتباك.

ذهبت إلى بيت سيمينغتن في نحو الساعة الحادية عشرة. قرعت الجرس وعندما جاءت روز سألت عن الآتسة ميغان، وكانت النظرة العارفة التي نظرت بها روز إليّ هي أول ما جعلني أشعر بشيء من الخجل. وأدخلتني إلى غرفة الصباح الصغيرة، وفيما كنت أنتظر هناك تمنيت ألا يكونوا قد ضايقوا ميغان.

وعندما انفتح الباب والفتحة لأنظر ارتحت على الفور. لم تبدُ ميغان متحفظة أو متضايقة على الإطلاق؛ كان رأسها ما يزال كما هو ككستناء لامعة، وكانت تحلها تلك الكبرياء واحترام الذات الذي اكتسبته بالأمس. كانت في ملابسها القديمة مرة أخرى،

قلت وأنا أعني ما أقول: أريد ذلك أكثر من أي شيء آخر.

- تقصد... أنك تحبني؟

- إنني أحبك.

كانت عينها ثابتتين وهادتين. قالت: أعتقد أنك ألطف إنسان في العالم... ولكنني لا أحبك.

- سأحملك على أن تحبيني.

- لن يقع ذلك؛ فأنا لا أريد أن أحمل.

سكتت ثم قالت بحدية: لست من النوع الذي يصلح زوجة لك؛ إنني أتفن الكراهية أكثر مما أتفن الحب.

قالت ذلك بعنف وتركيز غريين. قلت: الكراهية لا تدوم، أما الحب فيلوم.

- هل هذه حقيقة؟

- هذا ما أعتقد.

مرة أخرى ساد الصمت، وأخيراً قلت: ردك إذن هو "لا"؟

- نعم، إنه لا.

- وأنت لا تنصحيني بالإبقاء على الأمل؟

- وما فائدة هذا؟

وافقتها قائلاً: لاشيء إطلاقاً... مجرد تسويق؛ لأنني سأستمر

في الأمل سواء نصحتني بذلك أم لا.

* * *

حسناً، هذا ما كان. غادرت البيت وأنا أشعر بشيء من الانشداد، ولكنني كنت واعياً لنظرات روز التي لاحقتني بكثير من الاهتمام.

كان لدى روز الكثير مما تقوله لي قبل أن أستطيع الإفلات. قالت إنها لم تعد تشعر بأن الأمور علسي ما كانت عليه منذ ذلك اليوم المرعب؛ وإنها ما كانت لتبقى لولا الأطفال وشعورها بالأسف على السيد سيمينغتن المسكين، وإنها لن تبقى إلا إذا جيء بخادمة أخرى بسرعة، ومن غير المحتمل أن تأتي خادمة إلى بيت وقعت فيه جريمة قتل! وقالت إن الأنسة هولاند كانت في غاية اللطف عندما قالت إنها ستقوم بتدبير المنزل حتى قدوم خادمة بديلة. كانت لطيفة جداً وخدمته... نعم، ولكنها تتصور أنها ستكون سيدة البيت في يوم من الأيام! إن السيد سيمينغتن المسكين لا يرى شيئاً علسي الإطلاق... ولكن المرء يعرف كيف تكون حالة الأرملة؛ مخلوق بالنسبة لمسكين وضعته الظروف فريسة لكيد امرأة. وإن من المؤكد أن قشل إلسي هولاند في الحلل محل السيدة سيمينغتن - إذا ما حصل - لن يكون سيئاً فلة المحاولة من طرفها.

وافقتها على كل شيء بطريقة آلية وأنا متشوق للهروب منها؛ ولكنني لم أستطع ذلك لأن روز كانت ممسكة بقبعتي وهي ماضية في صب مناكفتها. وتساءلت إن كان فيما قالته أي نوع من الحقيقة. هل تأقت إلسي هولاند لأن تصبح الزوجة الجديدة لميمينغتن؟ أم أنها فتاة طيبة القلب تبذل ما بوسعها للعناية بأسرة حلت بها مصيبة؟

ربما كانت النتيجة واحدة في كلتا الحالتين. ولم لا؟ إن طفلي سيمتحن الصغيرين يحتاجان إلى أم، وإلسي كانت امرأة محترمة... إلى جانب كونها جميلة إلى حد يخرج عن حدود الاحترام، وهي صفة قد تعجب الرجل... حتى وإن كان رجلاً محترماً كسيمنتن!

أعرف أنني كنت أفكر بهذا كله لأحاول تجنب التفكير بامر ميغان. ربما قلت إنني ذهبت لميغان طالباً منها الزواج بي بعقيلة فيها الكثير من الرضى عن الذات والثقة بالنفس، وإنني أستحق ما حصل... ولكن الأمر لم يكن كذلك في الحقيقة. كان ذلك لأنني أحسست بثقة كبيرة وبشكل مؤكد بأن ميغان كانت لي أنا... وأنها كانت شأناً من شؤوني، وأن غنايتي بها وإسعاده وتجنّبها الأذى هر طريقة الحياة الطبيعية الوحيدة أمامي، وأنني توقعت منها أن تشعر هي أيضاً أننا لبعضنا البعض. لكنني لم أكن لأمتسلم... كلا! إن ميغان هي فتاتي، وسوف أحصل عليها.

بعد لحظات من التفكير ذهبت إلى مكتب سيمينتن. قد لا نلغيت ميغان إلى الانتقادات الموجهة لسلوكها، ولكنني أحيت تقويم الأمور. وقيل لي إن السيد سيمينتن غير مشغول فدخلت عليه، وقد فهمت من زمة شفبه والتصلب الإضافي في سلوكه أنني لا أحظى بالكثير من الترحيب في تلك اللحظة. قلت: صباح الخير. أحشى ألا تكون هذه زيارة عمل، بل زيارة شخصية. سأطرح الموضوع بكل وضوح... أظنك أدركت -سيلا ريب- أنني أحب ميغان، وقد طُلبت منها الزواج بي ولكنها رفضت، إلا أنني لا أعتبر ذلك الرفض نهائياً.

رأيت ملامح سيمينتن تغير، وأدركت ما بدور في ذهنه

بسهولة؛ فقد كانت ميغان عنصر نشاز في بيته. أحسست -وإنما- بأنه رجل مُنصف ولطيف، وما كان ليفكر أبداً في عدم إيواء ابنة زوجته المتوفاة أو الامتناع عن تقديم السكن لها، ولكن زواجها بي سيكون مصدر راحة له بالتأكيد.

تراجعت صرامة ملامحه، واتسم لي ابتسامة باهتة حذرة وقال: تعلم يا بيرتن أنني -بصراحة- لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر. أعرف أنك كنت توليها الكثير من عنايتك، ولكننا كنا دائماً نعتبرها طفلة.

قلتُ باقتضاب: ولكنها ليست طفلة.

- نعم، ليس من ناحية العمر.

قلت وما زال بي شيء من الغيظ: إنها تستطيع التصرف وفق عمرها الصحيح في أي وقت يُسمح لها فيه بذلك. أعرف أنها لم تبلغ الحادية والعشرين (الذي يُعتبر رسمياً سن النضوج والاستقلالية)، ولكنها ستبلغ هذا العمر بعد شهر أو اثنين. سأعطيك كل المعلومات التي تزيدها عني: أنا في وضع مالي جيد، وقد كانت حياتي شريفة تماماً، وسأهتم بميغان وأفعل كل ما أستطيعه لجعلها سعيدة.

- تماماً... تماماً. ومع ذلك فإن الأمر يرجع لميغان نفسها.

- ستنتقم مع مرور الوقت، ولكنني أحيت فقط أن أصارحك بهذا الأمر.

قال إنه يفكر هذا الموقف، ثم افترقنا ودياً.

* * *

صادت إميلي بارتن في الخارج، وكانت تحمل سلة مشتريات يدها. قالت: صباح الخير يا سيد بيرتن. سمعت أنك ذهبت إلى لندن بالأمس.

نعم، لقد سمعت ذلك دون شك! رأيت أن الرقة يادية في عينيها، ولكنهما كانتا مليتين بالفصول. قلت: ذهبت لرؤية طبيبي.

ابتسمت الأنسة إميلي وتمتعت قائلة: سمعت أن ميفان كاد يغوتها القطار، وقد قفزت إليه وهو يتحرك.

- بمساعدتي أنا؟ أنا الذي سحبتها إليه.

- كم كنت محظوظاً في ذلك، وإلا لوقع حادث.

غريب كيف يمكن لعجوز رقيقة فضولية أن تجعل الرجل يشعر أنه مغفل! وأنفذني ظهور السيدة كالثروب من مزيج من المعاناة، وكانت معها ضيفتها العجوز. قالت السيدة كالثروب: صباح الخير. سمعت أنك اشتريت لبيان بعض الملابس اللاتقة؟ إنه تصرف عاقل منك؛ فالتفكير بشيء عملي كهذا يتطلب رجلاً بكل معنى الكلمة. كنت قلقاً على هذه الفتاة منذ وقت طويل. الفتيات العاقلات معرضات أن يتحولن إلى مغفلات، أليس كذلك؟

وبهذه العبارة الملفنة للنظر دخلت السيدة كالثروب إلى محل السمك بسرعة. أما الأنسة ماريل التي بقيت واقفة إلى جانبي فقد طرقت بعينيها وقالت: إن السيدة كالثروب امرأة رائعة؛ تكاد تكون على حق دائماً.

- الأمر الذي يجعلها مخيفة بعض الشيء!

- إن للصدق مثل هذا التأثير.

خرجت السيدة كالثروب من محل السمك مرة أخرى وجاءت إلينا. أشارت إلى سرطان كبير أحمر كانت تحمله وقالت: أرايت شيئاً أبعد شيئاً بالسيد باي من هذا؟ انظر كم هو مفعم بالقوة والذكورة، أليس كذلك؟

* * *

شعرت ببعض الحرج من مقابلة جوانا، ولكن عندما وصلت إلى البيت عرفت أن قلقي لم يكن له داع؛ فقد خرجت ولم نعد لتناول الغداء. وقد أحزن ذلك بارتريدج كثيراً فقالت بمرارة وهي تضع قطعين من اللحم في طبق: لقد أكدت الأنسة بيرتن أنها ستعود لتناول الغداء.

أكلت قطعتي اللحم في محاولة للتعبير عن غياب جوانا، ولكنني تساءلت في نفسي أين يمكن أن تكون أختي الآن. لقد اعتادت أن تكون غامضة جداً في تصرفاتها مؤخراً!

كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف عندما سمعت صوت سيارة تقف في الخارج، وما لبثت جوانا أن دخلت غرفة الاستقبال. وتوقعت أن أرى غريفيث معها لكنها كانت وحيدة. كان وجهها منتعماً بالحمرة وبدت متزعجة، ونصورت أن شيئاً قد حدث.

سألتها: ما الأمر؟

فتحت جوانا فمها لتتكلم لكنها أغلقته ثانية وتنهدت وألقت

بنفسها على كرسي وأخذت تحديق أمامها، ثم قالت: لقد قضيتُ اليوم أسوأ الأيام.

- ماذا حدث؟

- عملتُ شيئاً لا يصدق؛ كان رهيباً.

- وما هو؟

- خرجت في نزهة سراً على الأقدام في نزهة عادية. صعدت التلة وذهبت إلى السبخة. مشيت أميالاً... فقد اعجبني أن أمشي. ثم نزلت وادياً، وكانت هناك مزرعة... في منطقة منزلة تماماً. شعرت بالعطش ونسائلت إن كان عندهم حليب فعمشيت إليهم ودخلت ساحة المزرعة، ثم فتح الباب وخرج منه أوبن.

- ويعد؟

- ظننتُ أن القادمة هي مبرضة المقاطعة. كانت هناك امرأة تضع مولوداً، وكان أوبن يتوقع مجيء المبرضة، وكان قد أرسل يلغها بأن تحضر معها طبيباً آخر. كانت... كانت الأمور تجري بشكل سيء.

- وماذا حدث؟

- عندما رأيته قال لي: "هيا، تعالي... وجودك أفضل من لا شيء...". قلت له إنني لا أستطيع، فسألني عما أعنيه. قلت له إنني لم أقم بعمل كهذا في حياتي، وإنني لا أعرف أي شيء، فقال إن ذلك لا يهم أبداً، ثم غدا فجأة فظيعاً صاح بي قائلاً: أملت امرأة؟

أظن أن باستطاعتك أن تفعلي أي شيء لمساعدة امرأة أخرى؟ ثم أكمل حديثه بعنف قائلاً: أنت كنت تتحدثين وكأنك مهتمة بالطب وقلت إنك تتمنين أن تصبحي مبرضة... أظنه كان مجرد كلام جميل متعق ولم تقصدي الأمر حقيقة. لكن هذا عمل حقيقي، ويجب أن نتصرفي كأمراة مسؤولة وليس كحمقاء عديمة الفائدة!

لقد قمت بأعمال لا تصدق يا جيري... أمسكت بالأدوات وغلبتها بالماء وناولته إياها. إنني متعبة بحيث لا أكاد أستطيع الوقوف على قدمي. كان ذلك فظيعاً، لكنه أنقذها... وأنقذ الحيتين.

غطت جوانا وجهها يديها. تأملتها بسرور بالغ واحترمت أوبن غريفيته في فرارة نفسي؛ لقد جعل جوانا تواجه الواقع بشكل حقيقي لأول مرة. وأخيراً قلتُ لها: توجد رسالة لك في الصالة. أظنها من بول.

قالت: إيه؟ وسكنت دقيقة ثم أضافت: لم أكن أعرف يا جيري ما يُضطر الأطباء لعمله والشجاعة التي ينبغي أن يتحلوا بها!

خرجتُ إلى الصالة وأحضرت لجوانا رسالتها. فتحتها ونظرت إلى محتواها فظرات غامضة وتركتها تسقط من يدها، ثم قالت: لقد كان... رائعاً حقاً. الطريقة التي حارب بها، الطريقة التي قاوم بها الهزيمة! صحيح أنه تحدث معي بقلقة... لكنه كان رائعاً.

لاحظتُ بشيء من السرور رسالة بول المهمة؛ من الواضح أن جوانا قد شغيت من بول!

* * *

ألقى إليّ رسالة عبر الطاولة، وكانت -هذه المرة- مطبوعة كلها. وإذا ما قورنت بالرسائل الأخرى فإن هذه الرسالة كانت معتدلة اللهجة:

لا فائدة من الاعتقاد أن بإمكانك احتلال مكان امرأة ميتة. البلدة كلها تسخر منك. اخرجي الآن، فسريراً سيكون الوقت قد فات. هذا تحذير؛ تذكرني ما حدث لتلك الفتاة. اخرجي وابقي خارجاً".

الفصل الثالث عشر

الأمر لا تأتي أبداً عندما تنتظرها.

كنت مشغولاً جداً بأموري الشخصية وأمور جوانا ففوجئت تماماً في صباح اليوم التالي عندما سمعت ناش يكلمني عبر الهاتف: لقد أمسكتنا بها يا سيد بيرن!

جفلت تماماً بحيث كدت أسقط السماعة. قلت: تقصد الـ...

قاطعتني: هل يمكن لأحد أن يسرق السمع على حديثنا الآن؟

- كلا، لا أظن ذلك... ولكن، ربما...

بدا لي أن باب المطبخ قد افتتح قليلاً، وسمعت يقول على الطرف الآخر من الخط: هلا جئت إلى مركز الشرطة؟

- سأفعل، الآن مباشرة.

وسرعان ما كنت في مركز الشرطة. كان ناش في إحدى الغرف الداخلية والابتسامه تملأ وجهه ومع الرقيب باركنز. وما أن رأيته حتى قال: كانت مطاردة طويلة، لكننا وصلنا في النهاية.

ثم تنتهي الرسالة ببعض العبارات المعتدلة في بدايتها.

قال ناش: وصلت هذه الرسالة للآنسة هولاند هذا الصباح.

قال الرقيب باركنز: كنت أرى غرابية في عدم استلامها أية رسالة من قبل.

سألت: من التي كتبها؟

تلاشي شيء من الحذل عن وجه ناش. بدا مرهقاً مهموماً وقال بحزن: إنني أسف لهذا الأمر، لأنه سيضر رجلاً محترماً بشدة، ولكن لا حيلة لنا. ربما وأودته الشكوك بذلك أصلاً.

كررت سؤاله: من التي كتبها؟

- الآنسة إيجي غريفيث.

* * *

ذهب ناش وباركنز إلى بيت غريفيث عصر ذلك اليوم ومعهما

ولكنها كانت تتعلق بكتابة الرسائل وليس بحريمة القتل.

رفعت إيمي غريفيث رأسها عالياً وضجّت بالضحك، ثم صاحبت قائلة: يا له من كلام فارغ سخيف! أيمكن أن أكتب مثل هذا الكلام البذيء، لا بد أنك حنتت؛ أنا لم أكتب كلمة واحدة مما نقوله.

كان ناش قد أخرج الرسالة الموجهة لإلسي هولاند وقال: هل تذكرين أنك كتبت هذه يا آنسة غريفيث؟

إن كانت قد ترددت فإن ذلك لم يستغرق منها إلا جزءاً من الثانية. قالت: أنكر ذلك بالطبع؛ أنا لم أرَ هذه الرسالة أبداً من قبل.

قال ناش يهذو: لا بد أن أخبرك يا آنسة غريفيث أن أحدهم لاحقك وأنت تطعين هذه الرسالة على الآلة الكاتبة في جمعية المرأة بين الساعة الحادية عشرة والحادية عشرة والنصف مساءً، في الليلة قبل الماضية. وبالأمر دخلت مكتب البريد وببذلك حزمة من الرسائل...

- لم أضع هذه الرسالة في البريد أبداً.

- صحيح، أنت لم تضعها؛ لأنك - بينما كنت تنظرين الحصول على طوابع - أسقطتها على الأرض بطريقة لا تثير الشكوك، بحيث يأتي شخص ما ويأخذها من الأرض دون ارتياب ثم يضعها في صندوق البريد.

- لم أفعل...

انفتح الباب ودخل سيمبغتن. قال بجدّة: ما الذي يجري؟ إن

إذن اعتقال، وذهبت معهما دعوة من ناش الذي قال لي: إن الطبيب يحبك كثيراً؛ فليس له أصدقاء كثيرون في هذه البلدة. وما لم يكن هذا الأمر مؤلماً لك يا سيد بيرتن فإني أرى أن باستطاعتك مساعدته على تحمل الصدمة.

قلت إنني سأذهب معهما. لم أستسغ هذه المهمة، ولكنني ظننت أنني قد أكون مفيداً. قرعنا الجرس وسألنا عن الآنسة غريفيث، فتم إيدخالنا إلى غرفة الاستقبال. كانت إلسي هولاند وميغان وسيمبغتن هناك يشربون الشاي.

تصرف ناش بحذر بالغ. سأل إيمي عن إمكانية الحديث معها على انفراد لبعض الوقت؛ فنهضت وجاءت باتحاضها. وأغلقتني رأيت نافذة دعر باهتة في عينيها، ولكن تلك النظرة - لو كانت صحيحة - قد تلاشت بسرعة. كانت طيبة تماماً ومبتهجة.

- تريدني؟ أرحو ألا تكون المشكلة بسبب أضواء ميارثي مرة أخرى؟

سارت أمامنا خارج غرفة الاستقبال ثم عبر الصالة إلى مكتب صغير، وفيما أنا أغلق باب غرفة الاستقبال ورائتي لمحت سيمبغتن يلتفت برأسه بجدّة وقد كاد ينهض عن كرسيه. وحسبت أن ممارسته القانونية قد جعلته يألف قضايا الشرطة، فقلعه مبرّ شيئاً ما في سلوك ناش... وكان هذا كل ما رأيته قبل أن أغلق الباب وأتبع الآخرين.

كان ناش يؤدي مهمته بدقة، وكان هادئاً تماماً. نهبها لحقوقها، ثم طلب منها أن تصحبه. كان معه إذن باعتقالها، وقرأ عليها التهمة... ولقد نسيت الآن العبارة القانونية التي قالها بالضبط،

كان في الأمر شيء غير طبيعي يا إيمي فيجب أن يكون لديك من
بمثلك قاتونيا. إن أردتي أن...

انهارت عندها. غطت وجهها يديها وتلمست طريقها إلى
كرسي، ثم قالت: اذهب يا دك، اذهب. ليس أنت... ليس أنت!

- أنت بحاجة لمحام يا عزيزتي.

- ليس أنت. إيتني... إيتني لا أستطيع تحمل هذا. لا أريدك أن
تعرف... كل هذا.

ربما فهم عندها ما تعنيه، فقد قال بهدوء: سأحضر لك
المحامي مايلدي من إكزامبتن، هل هذا ينفع؟

أومات برأسها موافقة وهي تتحجب، وخرج سيمتغن من
الغرفة. وعند مدخل الباب اصطدم بأوين غريفيث الذي قال بغضب:
ما هذا؟ أختي...

قال ناش: أنا أسف يا دكتور غريفيث، أسف جداً... ولكن
ليس أمامنا بديل.

- أتظن أنها... أنها مسؤولة عن تلك الرسائل؟

قال ناش: أحشى ألا يكون في ذلك شك يا سيدي.

ثم التفت نحو إيمي وقال: يجب أن نأتي معنا الآن يا آنسة
غريفيث... ستحصلين على كل المساعدة لرؤية أحد المحامين.

صاح أوين: إيمي؟

اندفعت من أمامه دون أن تنظر إليه قائلة: لا تتحدث معي. لا
تقل شيئاً، ولا تنظر إليّ بالله عليك!

مخرجوا من الغرفة، فيما وقف أوين كرجل مسحور. انتظرت
قليلاً ثم تقدمت نحوه وقلت: إن كان من شيء يمكنني فعله يا سيد
غريفيث فقل لي.

قال كرجل يعيش في حلم: إيمي؟ لا أصدق!

قلت متعللاً: قد يكون في الأمر خطأ.

قال ببطء: ما كانت لتصرف هكذا لو كان في الأمر خطأ. ما
كنت لأصدق هذا أبداً... لا يمكنني تصديق هذا الأمر.

رمى نفسه على كرسي، وحاولت أن أساعد بتقديم عصير
متعش. شرب ما قدمته له، وبدأ أن ذلك أقاده فقد قال: لم أستطع
فهم الأمر في البداية، ولكنني بحير الآن. أشكرك يا بيرزن، ولكن لا
يوجد ما يمكنك فعله... ليس بوسع أحد فعل شيء.

انفتح الباب ودخلت جوانا وهي شديدة الشحوب. جاءت إلى
أوين ونظرت إليّ وقالت: أخرج باجيري... هذا عملي أنا.

وفيما أنا أخرج عبر الباب رأيتها تحثر على ركبتيها بجاذبه.

* * *

لا أستطيع أن أسرد عليكم بشكل متماسك أحداث الساعات
الأربع والعشرين التي تلت ذلك، إذ تبرز العديد من الأحداث التي لا
يربطها رابط.

أذكر محبي جونا إلى البيت وهي شديدة الشحوب والذهول، وكيف أنني حاولت رسم الابتسامة على شفتيها قائلاً: لقد سبق لي أن وصفت إيمي غريفيث بأنها تنصرف مع أخيها كالملاك الحارس، فمن هو الملاك الحارس الآن؟

وأذكر كيف ابتسمت بطريقة محزنة وقالت: "يقول إنه لا يريدني يا جيرى؛ إنه شديد الغرور والصلابة"، فقلت لها: وقتاتي أيضاً لا تريدني...

جلستنا هناك لبعض الوقت، وقالت جونا أخيراً: لا تلغى عائلتي بيرتن وواجباً في الوقت الحالي!

قلت: لا تهتمي يا عزيزتي، فما زلنا نعيش لبعضنا البعض. فردت جونا: إن هذا لا يشكل لي عزاء يا جيرى في الوقت الحاضر...

جاء أولين لزيارتنا في اليوم التالي وانطلق في حديث مسهب مادحاً جونا قائلاً إنها رائعة، وتحدثت عن الطريقة التي جاءت بها إليه وكيف أعريت عن استعدادها للزواج به... فوراً إن شاء. ولكنه ما كان يسمح بذلك؛ لأنها فتاة أطيّب وأرق. من أن يرتبط اسمها بتلك القذارات التي لن تلبث بالانتشار على الألسنة بمجرد وصول خبر أخته إلى الصحف. وكنت أحب جونا كثيراً وأعرف أنها من النوع الذي يحب الوشوف مع الناس في الأزمات، وقلت لأولين بشيء من الانزعاج ألا يكون على هذه الدرجة السخيفة من المثالية.

ذهبت إلى الشارع العام فوجدت أن ألسن الجميع تشرنر دون انقطاع. كانت إيميلي يارتن تقول إنها لم تثق أبداً بإيمي غريفيث، وكانت زوجة البقال تقول بحماسة إنها كانت ترى دائماً أن للأنسة غريفيث نظرة غريبة في عينيها...

وعلمتُ من ناش أن الشرطة قد أكملوا التحقيق في القضية، وقد كشف البحث في البيت عن وجود الصفحات المقصوفة من كتاب إيميلي يارتن وقد أخفيت - من بين كل الأماكن - في الخزانة أسفل الدرج، ملفوفة بورق جدران قديم.

قال ناش معجباً: وهو متحياً جيداً أنت لا تعلم متى يمكن لخدام متطفل أن يعث في مكتب أو درج مغلق... أما خزائن المستهلكات هذه، المليئة بكرات النسخ القديمة وورق الجدران القديم فلا تفتح أبداً إلا عندما يريدون حشر مزيد من الأغراض داخلها.

- يبدو أن تلك السيدة ولماً بهذا المخبر بالذات.

- نعم، نادراً ما تجد الكثير من التنوع في العقل الإجرامي... وبالمناسية، فقد وجدنا حقيقة يمكن السير على هديها فيما يتعلق بالقناة القليلة؛ فقد قُدمت يد هاون كبيرة ثقيلة من صيدلة الطيب، وأراهن على أنها هي الأداة التي ضربت بها الفتاة.

اعترضتُ قائلاً: ولكنها أداة يصعب أن يحملها المرء معه.

- ليس بالنسبة للأنسة غريفيث. كانت مستذهب إلى لقاء الكشافة عصر ذلك اليوم، ولكنها كانت ذاهبة أيضاً لإبصال الزهور

والخضروات إلى معرض الصليب الأحمر في طريقها، ولذلك كانت تحمل معها سلة كبيرة جداً.

- ألم تجد السيخ؟

- كلا، ولن أحده. ربما كانت تلك الشيطانة المسكينة محتونة، ولكن الحنوت لم يبلغ بها حداً يجعلها تحتفظ معه بسخ ملطخ بالدماء لتسهل علينا إثبات الحصر عليها، وهي لا تحتاج إلا لغسل السيخ وإعادةه إلى درج المطبخ.

وافقته قائلاً: أظن أن المرأة لا يستطيع الحصول على كل شيء.

كان بيت الكاهن آخر بيت يسمع بالخبر، وقد حزنّت الأنسة العجوز ماربل للخبر كثيراً. تحدثت معي في هذا الموضوع باهتمام شديد قائلة: ليس صحيحاً يا سيد برون، أنا واثقة أنه ليس صحيحاً.

- أعنى أنه صحيح تماماً. لقد نصبوا لها كميناً ورأوها تطيع تلك الرسالة بالفعل.

- نعم، نعم... ربما رأوها. نعم، يمكنني فهم هذا الأمر.

- وقد وجدت الصفحات المطبوعة التي أخذت منها حروف الرسالة حيث كانت قد أخفئتها في بيتها.

حدثت بي الأنسة ماربل، ثم قالت بصوت خافت جداً: هذا فظيخ... عمل شرير حقاً.

جاءت السيدة كاثروب بسرعة وانضمت إلينا قائلة: ما الأمر يا جين؟

كانت الأنسة ماربل تتمتع بأنسة: يا إلهي، يا إلهي... ما الذي يمكن للمرأة أن يفعله؟

- ما الذي أزعجك يا جين؟

قالت الأنسة ماربل: لا بد من وجود شيء. ولكنني كبيرة في السن كثيراً وجاهلة جداً، وأعشى أن أكون غبية جداً أيضاً.

أحسست بشيء من الارتباك، وفرحت عندما جاءت السيدة كاثروب وأخذت صديقتها. ومع ذلك فقد قدر لي أن أرى الأنسة ماربل مرة أخرى عصر ذلك اليوم عندما كنت عائداً إلى البيت. كانت تقف قرب الجسر الصغير عند طرف القرية قريباً من بيت السيدة كليلت، وكانت تتحدث مع ميقان.

أردت رؤية ميقان، بل كنت أريد رؤيتها طوال ذلك اليوم؛ ولذلك سارعت خطوي، ولكن عندما وصلت إليهما دارت ميقان وذهبت في الاتجاه الآخر. وقد أغضبني ذلك، وكان من شأني أن أتبعها لولا أن الأنسة ماربل اعترضت طريقي قائلة: كنت أود الحديث معك. لا تذهب وراء ميقان الآن؛ فلن يكون ذلك تصرفاً حكيماً.

وقد أوشكت على الرد عليها بحدة لولا أن جردتني من سلاحني بقولها: هذه الفتاة شجاعة جداً... شجاعة إلى أبعد حد!

ورغم ذلك أردتُ اللحاق بميقان، ولكن الأنسة ماربل قالت: لا تحاول رؤيتها الآن. إنني أعرف ما أتحدث عنه؛ يجب عليها أن تحتفظ بشجاعتها.

كان في تأكيد السيدة العجوز شيء، أصابني بالمشعشعة،

وكانها كانت تعرف شيئاً لا أعرفه. كنت خائفاً ولا أعرف سبب خوفي. ولم أذهب إلى البيت، وإنما عدت إلى الشارع العام وسرت فيه حيلة وذهاباً دون هدف. لا أعرف ماذا كنت أنتظر أو بساذا كنت أفكر...

أمسكني ذلك العجوز الممل الثقيل الكولونيل أبلشون. سألتني عن أحتي الحميلة كعادته ثم أكمل قائلاً: ما كل هذا الكلام عن أخت غريفيث وعن جنونها المطلق؟ يقولون إنها هي التي كانت تقف خلف تلك الرسائل المجهولة التي كانت مصدر إزعاج للجميع؟ لم أصدق هذا الكلام في البداية، ولكنهم يقولون إنه صحيح تماماً.

قلت له إنه كلام صحيح.

- حسناً، يجب أن أعترف بأن شرطتنا جيدون إجمالاً. أعطهم الوقت الكافي فقط، هذا كل ما هنالك. غريبة مسألة الرسائل المجهولة هذه... إن أولئك العجائز المخاوف هن دائماً الموثقات بهذا الأمر، مع أن الآنسة غريفيث لم تكن سيئة المظهر، رغم طول أستانها قليلاً... ولكن لا توجد أية فتاة جميلة في هذه المنطقة، ما عدا تلك الفتاة المريية عند سيمنتغن؛ إنها جديدة بأن يُنظر إليها، كما أنها فتاة لطيفة تعرب عن الامتنان لأية خدمة صغيرة يؤديها لها المرء. التقيت بها عندما كانت في نزوة مع الطفلين قبل مدة قصيرة، وكانا يلهوان ويلعبان على العشب بينما كانت تحبك الصوف بعنازتها... وقد انزعجت كثيراً لأن الصوف نقد، فقلت لها: "هل تحبين أن أوصلك إلى لايمستوك؟ سأوقف هناك لأخذ عصاي

العسكرية ولن أتأخر أكثر من عشر دقائق، ثم أعيذك مرة أخرى". كانت مترددة قليلاً في ترك الولدين. قلت لها: "لن يكون عليهما بأس. مثلاً يريد أن يؤذيها؟ لا تخافي فلن تتركهما طولاً!" وهكذا أخذتها معي في السيارة وأنزلتها عند محل الصوف ثم عدت وأخذتها مرة أخرى وانتهى الأمر. كانت في غاية الامتنان وشكرتني بسخاء... فتاة لطيفة.

نحجت أخيراً في الهروب منه .

بعد ذلك رأيت الآنسة ماربل للمرة الثالثة، وكانت خارجة من مركز الشرطة.

* * *

من أين تأتي مخاوف المرء؟ أين تتشكل هذه المخاوف، وأين تكون مختبئة قبل أن تخرج للعلن؟

مجرد عبارة واحدة قصيرة، سُمعت وسُجلت ولم تُنح جانباً أبداً: "أرجوك أن تأخذني بعيداً... إن البقاء هنا والشعور بكل هذا الشر أمر قتلح...".

لماذا قالت ميغان هذا، ولماذا عساها تشعر بالشر؟ لم يكن في وفاة السيدة سيمنتغن ما يجعل ميغان تشعر بالشر.

لماذا شعرت الفتاة بالشر؟ لماذا؟ لماذا؟ أممكن أن يكون ذلك لأنها أحست بالمسؤولية بأي شكل؟

ميغان؟ مستحيل! لا يمكن أن تكون لميغان أية علاقة بتلك

الرسائل... تلك الرسائل القذرة الفاحشة. ولكن: كان أوبن غريفيث قد عرف بحالة مماثلة في الشمال... طالبة مدرسة!

ما الذي قاله المغتش غريفيث؟ شيء عن عقل مراهق... سيدات عجائز على طاولة العمليات الجراحية يهدين بكلمات لا يكدن يعرفنها... صبية صغار يكتبون أشياء على الجدران.

كلا، كلا... ليس ميغان.

أن تكون الوراثة؟ الجرق السيء؟ وراثة لاواعية لشيء شاذ؟ أيكون سوء حظ لا يد لها فيه... لمة لحقت بها من جيل مضى؟ لماذا قالت: "لست من النوع الذي يصلح زوجة لك، إنني أتقن الكراهية أكثر مما أتقن الحب."

أوه، ميغان.. طفلتي الصغيرة. عسى ألا يكون ذلك! كل شيء إلا ذلك. وتلك العانس العجوز تلاحتك، إنها تشك. تقول إنك شجاعة. شجاعة للقيام بماذا؟

كانت نوبة جنون عابرة مرت، ولكنني أردت رؤية ميغان... كنت بحاجة ماسة لرؤيتها. تركت البيت الساعة التاسعة والنصف من تلك الليلة وذهبت إلى البلدة، ومن هناك إلى بيت سيمينغتن. وعندما عطلت في بالي فكرة جديدة تماماً... امرأة لم يفكر بها أحد لحظة واحدة (أم أن ناثن فكر بها؟)... كان ذلك مستبعداً جداً غير محتمل إطلاقاً، وكان من شأني -حتى هذا اليوم- أن أعثره مستحيلاً أيضاً. ولكن الأمر لم يكن كذلك، كلا، لم يكن مستحيلاً.

ضاعفت سرعتي، فقد أصبح من الحيوي الآن أن أرى ميغان على الفور. عبرت بوابة منزل سيمينغتن وصعدت إلى البيت. كانت ليلة مظلمة ملبدة بالغيوم، وبدأ قليل من المطر في السقوط، وكانت الرؤية سيئة.

رأيت خطأ من الضوء من إحدى النوافذ. أهي الغرفة الصغيرة التي كنا فيها في الصباح؟ ترددت قليلاً، ثم انعطفت -بدل النهاب إلى الباب الأمامي- وزحفت بهدوء إلى أن صعدت إلى النافذة متأبطاً غصناً ضخماً، وبقيت هناك خائفاً رأسياً.

كان الضوء يخرج من فتحة الستارة التي لم تكن مغلقة جيداً. كان من السهل النظر منها ورؤية ما بداخل الغرفة، وقد كان المنظر في الداخل عائلياً هادئاً: سيمينغتن يجلس على كرسي كبير، وإلسي هولاند متكبة على رنق قميص أحد الأولاد.

كنت أستطيع سماع الحديث إضافة إلى الرؤية لأن النافذة كانت مفتوحة من أعلى. كانت إلسي هولاند تقول: ولكنني أظن فعلاً يا سيد سيمينغتن أن الولدين قد كبرا بما فيه الكفاية ويمكنهما الذهاب إلى مدرسة داخلية. وهذا لا يعني أنني لن أكره غيابهما عني، بل سأكره ذلك فعلاً؛ فأنا أحبهما كثيراً.

قال سيمينغتن: أظنك مصيبة بخصوص برايان يا آنسة هولاند. لقد قررت إرساله ليبدأ الفصل القادم في مدرسة وينهايز... مدرستي الابتدائية القديمة. ولكن كولين ما يزال صغيراً، وأفضل أن ينتظر سنة أخرى.

- إنني أفهم ما تحبه بالطبع، كما أن كولين ربما كان صغيراً

حدثت منزلي هادئ... ومشهد منزلي هادئ...

ثم فُتح الباب ودخلت ميغان. وقتت عند مدخل الباب منتصبة القامة، ولا حظت فوراً أن بها شيئاً من التوتر. كان حلد وجهها مشدوداً وعيناها لامتعتين حازمتين. لم يبد عليها هذه الليلة حياة أو تردد أو طفولية. قالت مخاطبة سيمغتن باسمه المجرد (وفجأة فكرت بأنني لم أسمعها تناديه أبداً. هل كانت تخاطبه بلقظ أيي أم باسمه أم بماذا؟)، قالت: أود الحديث معك من فضلك، علي الفرداد.

بدا سيمغتن مندهشاً وقطب جبينه، وتصورت أنه لم يكن مسروراً، لكن ميغان أصرت علي كلامها بعزم لم يكن من عادتها. التفتت إلى إلسي هولاند. وقالت: هل تمنعين يا إلسي؟

فقرت إلسي هولاند من مفعدها وقالت: "بالطبع لا". بدت جفلة مضطربة قليلاً وذهبت إلى الباب، ودخلت ميغان حتى تقصع لها طريق الخروج. ولحظة فقط وقتت إلسي عند مدخل الباب حامدة تنظر وراءها. كانت شفتاهما مزومتين وقد وقتت حامدة دون حركة وإحدى يديها ممدودة بينما أمسكت الأخرى بالقميص الذي كانت تعمل فيه، ثم عرجت وأغلقت الباب.

قال سيمغتن بشيء من الغضب: ما الأمر يا ميغان؟ ماذا تريدين؟

كانت ميغان قد عطلت باتجاه المكتب ووقفت هناك تحدق في سيمغتن، وقد ذهلت من جديد للتصميم العازم في وجهها،

ولشيء آخر... للصلاة كانت جديدة علي. وأخيراً فتحت شفتيها وقالت شيئاً أحفظني حتى الصميم: أريد بعض المال!

لم يحسن هذا الطلب مزاج سيمغتن. قال بحدة: ألم يكن بإمكانك الانتظار حتى صباح الغد؟ ماذا جرى؟ أتري أن مصروفك لا يكفي؟

قالت ميغان: أريد مبلغاً كبيراً من المال.

اعتدل سيمغتن في جلسته وقال بفثور: سبيلين السن القانونية بعد بضعة أشهر، وعنددها سيجيل لك الوصي العام الأموال التي تركتها لك جدتك.

قالت ميغان: أنت لا تفهميني... أريد مالاً منك.

ثم أكملت تتحدث بسرعة أكبر: لم يكلمني أحد كثيراً عن والدي؛ لا يريدون لي أن أعرف عنه شيئاً، ولكني أعرف أنه دخل السجن، وأعرف السبب... كان ذلك بسبب الابتزاز!

سكنت قليلاً ثم قالت: حسناً، وأنا ابنته، وربما أشبهه. على أية حال فإنني أطلب منك مالاً لأنك... إن لم تفعل... وسكنت مرة أخرى ثم أكملت بكل بطء وهذوء: إن لم تفعل... فسوف أكشف ما رأيك تفعله بتلك الكيسولة في غرفة والدتي ذلك اليوم.

ساد شيء من الصمت، ثم قال سيمغتن بصوت يخلو من أية عاطفة: لا أعرف ما تقصده.

- بل أفنك تعرف.

حسناً لقد أصغيت بالفعل، لم أحب ذلك... ولكنني أذعنت،
على أنني أصورت على البقاء في المكان، وأقسمت له أن أطيع
الأوامر طاعة تامة.

وهكذا دخلت مع ناش وباركنز إلى البيت من الباب الخلفي
الذي ترك غير مفلّ عمداً، وانتظرنا عند بسطة الدرج وراء الستارة
المحمّلة التي تغطي فتحة النافذة إلى أن دقت ساعة الحائط معلنة
الساعة الثانية. عندئذ فتح سيمغتن باب غرفته وغرّ بسطة الدرج
ودخل غرفة ميغان.

لم أتحرك من مكاني لأنني كنت أعرف أن الرقيب باركنز
كان في الداخل مختبئاً وراء الباب المفتوح، وكنت أعرف أن
باركنز رجل جيد ويعرف عمله، وكنت أعرف أنني لا أستطيع الثقة
بقدرتي على المحافظة على هدوئي لو كنت مكانه.

وفيما أنا أنتظر هناك وفليبي يخفق بشدة، رأيت سيمغتن
يخرج من الغرفة حاملاً ميغان بين ذراعيه وينزل بها إلى الطابق
السفلي، ويتعاضد - أنا وناش - تاركين بيننا وبينه مسافة معقولة.
حملها إلى المطبخ، وكان قد أكمل وضعها بشكل مريح بحيث
يكون رأسها في قرن الغاز وفتح صمام الغاز عندما دخلت مع ناش
المطبخ وأضأنا المصباح.

وكانت تلك نهاية ريتشارد سيمغتن... وقع منهراً وأنا أبعد
ميغان وأغلق صمام الغاز. لم يحاول حتى المقاومة؛ فقد عرف أنه
قد خسر اللعبة.

* * *

ثم اتسعت، ولم تكن إستماسة لطيفة. ونهض سيمغتن، ذهب
إلى طاولة المكتب فأخرج منها دفتر الشيكات وكتب شيكاً وقعه
بحرص شديد ثم عاد فقدمه لها وقال: أنت فتاة بالغة الآن وأفهم
أنك قد تشعرين بالحاجة لشراء شيء خاص كالملابس وغيرها. لا
أعرف ما تتحدثين عنه... لم أنتبه، ولكن هالك هذا الشيك.

نظرت ميغان إلى الشيك وقالت: شكراً، هذا يكفي لما أريده.

دارت وخرجت من الغرفة، وحدث سيمغتن بها وهي خارجة
وبالباب المغلق، ثم التفت. وعندما رأيت وجهه تقدمت إلى الأمام
بحركة سريعة لم أتمالكها، ولكن تم وقف حركتي تلك بطريقة
غريبة جداً. فالغصن الكبير الذي لاحظته قرب الحائط لم يعد
غصناً!

أحاطت بي ذراعاً المقتش ناش وهمس في أذني: اهدأ يا
بيرتن، اهدأ بالله عليك.

ثم تراجع إلى الوراء بحذر شديد وهو يمسك بي حتى
أصبحه. وعند جانب البيت انتصب وأففاً ومسح جبينه وقال: لا مفر
من نطفلك بالطبع!

قلت بالاحاح: تلك الفتاة ليست في مأمن؛ هل رأيت وجهه؟
يجب أن نخرجها من هنا.

قبض ناش على ذراعي بقوة وقال: اسمعني الآن يا سيد بيرتن،
يجب أن تصغي.

* * *

في الطابق العلوي جلست بجانب سرير ميغان أنتظر أن تستعيد وعيها وأنا أنسب ناش بين حين وآخر. أتيتُ قائلاً: كيف تعرف أنها ستكون علي ما برام؟ كانت مجازفة كبيرة من جانك.

كان ناش يحاول تهدئتي بشئ الطرف، فقد قال: مجرد قليل من النوم في حليها الذي تضعه بجانب سريرها دائماً، لا شيء أكثر من ذلك، وهو تصرف متوقع. إنه لم يستطع المجازفة بتسميمها؛ فقد انتهت القضية -بالنسبة له- باعتقال الأنسة غريفيث، ولن يتحمل وقوع جريمة غامضة أخرى. لا عتف ولا سموم، ولكن إذا ما اعتمدت في نفس فتاة كتيبة مسألة انتحار والذئبا لفترة طويلة، ثم ذهبت في النهاية ووضعت رأسها داخل قرن الغزال، فإن الناس سيقولون إنها لم تكن فتاة طبيعية تماماً وإن صدمة وفاء والذئبا قد قضت عليها.

قلت وأنا أقرب ميغان: مضى وقت طويل ولم تُق.

- أما سمعت ما قاله الدكتور غريفيث؟ قلبها وتبضها طبيعياً تماماً... ستنام وتستيقظ بطريقة طبيعية. هو قال إنه يعطي هذه المادة للكثير من مرضاه.

تحركت ميغان قليلاً. تمتعت بشيء، وغادر المفتش ناش الغرفة دون تطفل. وسرعان ما فتحت ميغان عينيها وقالت: جيري!

- مرحباً يا حبيبتي.

- هل قمتُ بالأمر جيداً؟

- وكان الابتزاز مهنتك مذ كنت في المهدي!

أغلقت ميغان عينيها ثانية، ثم تمتعت: الليلة الماضية... كنت أكتب لك رسالة... غشية أن... أن يحدث لي سوء. ولكنني شعرت بنعاس لم أستطع معه إكمالها. إنها هناك.

ذهبت إلى طاولة المكتب. وجدت رسالة ميغان غير المكتملة في دفتر ملاحظات صغير مهترئ، وكانت تبدأ بشكل رسمي على النحو التالي:

عزيزي جيري،

كنت أقرأ ما كان مقرراً علينا في المدرسة من أعمال شكسبير، وتلك القصيدة التي مطلعها: "أنت لأفكاري كما الطعام للحياة، أو كالأمطار في عذب موسمي للأرض".

وقد أدركت أنني أحبك في نهاية الأمر، لأن هذا ما أشعر به فعلاً!

* * *

.. لكنك كذلك فعلاً.

قالت الأنسة ماريل يهدوء: إن المرء يسيى الكثير من الطيابع البشرية وهو مقيم طوال العام في القرية.

ثم وضعت النسيج الذي كانت تحيكه وألقت عغطية لطيفة عن جرائم القتل وكأنها شعرت بأن ذلك ما هو مُتَظَرَّ منها: أهم شيء في هذه القضايا هو إبقاء الذهن منفتحاً تماماً على كل الاحتمالات. معظم الجرائم بسيطة لحدِّ السخافة، وهذه الجريمة كذلك. جريمة معقولة تماماً وواضحة... ومفهومة تماماً... بطريقة كريهة بالطبع.

- كريهة جداً!

- لقد كانت الحقيقة واضحة جداً في الواقع، وقد عرفتُها أنت يا سيد بيرتن.

- الحقيقة أنني لم أعرفها.

- لكنك عرفتُها فعلاً، وقد أشرت إلى الأمر كله وأوحيت لسي به. لقد أدركت تماماً علاقة الأشياء ببعضها البعض، ولكنك كنت تفكر إلى الثقة الكافية بالنفس لفهم ما كانت تعنيه أحاسيسك تلك. فقد كانت هناك أولاً تلك العبارة المملة: "لا دخان بلا نار"، كانت تغيظك، ولكنك تقدمت بطريقة صحيحة لتسميها بالاسم الذي يناسبها: سائر دخاني! أي تضليل في الاتجاه... حيث ينظر الجميع إلى الشيء غير الصحيح... أي إلى الرسائل المحجولة، ولكن النقطه الهامة هي أنه لم تكن في الأمر أية رسائل محجولة!

- ولكن يا عزيزتي الأنسة ماريل، تؤكد لك أن الرسائل

الفصل الرابع عشر

قالت السيدة كالثروب: وهكذا ترى أنني كنت على حق في استدعاء خبير.

نظرت إليها بإمعان. كنّا جميعاً في بيت الكاهن، وكان المطر يتساقط خارج البيت بغزارة، وكانت النار مُتَقَدَّة في الموقد بشكل يبعث على الارتياح.

قلت مندهشاً: ولكن، هل استدعيت أحداً حقاً؟ من يكون هذا؟ وماذا فعلاً؟

قالت: "لم يكن رجلاً"، ثم أشارت إلى الأنسة ماريل بيدها. كانت الأنسة ماريل قد انتهت من حيلك الصوف وشغلت نفسها الآن بصنارة وبكرة قطن.

قالت السيدة كالثروب: تلك هي خبيرتي... جين ماريل. انظر إليها جيداً. إن هذه المرأة تعرف عن الأنواع المختلفة للشر البشري أكثر من أي شخص آخر أعرفه.

تمتعت الأنسة ماريل: لا أظن من المناسب أن تصفيني هكذا يا عزيزتي.

المجهولة كانت موجودة فعلاً... لقد تلقيت واحدة منها.

- أوه، نعم... ولكنها لم تكن حقيقية إطلاقاً. العزيرة مود توصلت -دون وعي منها- إلى هذه الحقيقة. حتى في بلدة لايمستوك المسالمة توجد الكثير من الفضائح، وأؤكد لك بأن من شأن أبة امرأة تعيش في هذه البلدة أن تعرف تلك الفضائح وتستخدمها. أما الرجل فلا يهتم بالقليل والقال بنفس الطريقة... وخصوصاً إن كان رجلاً منطقياً بعيداً عن تلك الاهتمامات مثل السيد سيمنتن. لقد كان من شأن كاتبة حقيقية لهذه الرسائل أن تجعل رسائلها أدق تصويماً.

وهكذا ترى أنك ستتهدي إلى الطريق لو تركت الدخان جانباً وبحثت إلى النار. ما عليك إلا أن تعود إلى الحقائق الفعلية لما حدث. وإذا وضعت الرسائل جانباً، فإن شيئاً واحداً قد حدث، وهو وفاة السيدة سيمنتن.

وفي هذه الحالة، من الطبيعي أن يفكر المرء بالذي يريد وفاة السيدة سيمنتن. وبالطبع فإن الشخص الأول الذي يفكر فيه المرء في مثل هذه الحالة هو الزوج، ويسأل المرء نفسه إن كان يوجد أي مسبب أو أي دافع... امرأة أخرى مثلاً؟

وكان أول ما سمعته هنا هو وجود مربية أطفال جذابة جداً في البيت. أليس هذا واضحاً؟ السيد سيمنتن، الرجل الحاف المبكوت غير العاطفي، مرتبط بامرأة نكدة عصبية المزاج، ثم فجأة تأتي هذه الشابة المثالفة.

أخشى أن الرجال يصبحون محابين تماماً عندما يقعون في

الحب في سن معينة... كما أن السيد سيمنتن -حسب استنتاجي- لم يكن رجلاً طيباً أبداً؛ لم يكن لطيفاً أو ودوداً أو متعاطفاً بل كانت صفاته سالبة إجمالاً... ولذلك لم يكن يمتلك حقاً القوة لمقاومة جنونه. وفي ظرف كهذا لن يحل مشكلته إلا وفاة زوجته. لقد أراد الزواج بهذه الفتاة، وهي ذات سمعة محترمة، وكذلك هو. وهو -أيضاً- محب لأطفاله ولا يريد التحلي عنهم. كان يريد كل شيء: بيتاً وأطفالاً وسمعة والسي، والثمن الذي كان عليه أن يدفعه للوصول إلى ذلك هو القتل.

وإنني لأراه اختار طريقة ذكية جداً؛ فقد كان يعرف جيداً من خلال خبرته في القضايا الجنائية أن الشرطة يشتبهون بالزواج على الفور إن ماتت زوجته على نحو غير متوقع... بالإضافة إلى احتمال تشريح الحقة في حالة التسمم؛ ولذلك فقد رتب الجريمة بحيث تبدو مجرد نتيجة عرضية لأمر آخر باختراعه كاتبة غير موجودة لرسائل مجهولة. والشيء الذكي في هذه الخطة أن من المؤكد أن يشبه الشرطة بامرأة، وقد كانوا على حق تماماً بطريقة ما. كانت الرسائل جميعها نسوية بالفعل، وقد نسخها بكل ذكاء من تلك التي انتشرت في قضية العام الماضي ومن قضية أخبره عنها الدكتور غريفيث. لا أقصد أنه كان مغفلاً بحيث قلّد نفس الأسلوب حرفياً، ولكنه أخذ عبارات وكلمات منها وخلطها مع بعضها، وكانت النتيجة أن الرسائل كانت تمثل ذهنية امرأة... امرأة ذات شخصية مكتوبة شبه محتونة.

كان يعرف جميع الأساليب التي يستخدمها الشرطة بالتحري عن خط اليد والآلات الكاتبة، وغير ذلك. وكان يعد لحريته منذ

زمن بعيد، ولذا فقد طبع جميع المغلفات قبل أن يهدي آتته الكاتبة لحمية المرأة، ولعله قطع الصفحات من كتابه في منزل ليتل فيروز قبل وقت طويل عندما كان ينتظر في غرفة الاستقبال ذات يوم. إن الناس لا يفتحون كتب المواعظ كثيراً!

وأخيراً، وبعد أن نشر تماماً نتاجات فلمه المسموم الزائف وشغل القرية بها، بدأ عمله الحقيقي. وقد اختار لذلك عصر يوم جميل عندما تكون المربية والأولاد وابنة زوجته في الخارج وعندما يكون الخدم في يوم عطلتهم الأسبوعية، ولم يكن بإمكانه التنبؤ بأن خادمته أغنيس ستشاجر مع صديقها وتعود إلى المنزل.

سألت جوانا: ولكن ما الذي راقه؟ هل تعرفين هذا؟

- لا أعرفه، ولكن يمكنني التخمين فقط. وتخميني هو أنها لم تر أي شيء.

- أي أن ذلك كان وهمًا؟

- لا، لا يا عزيزتي. أفصد أنها وقفت عند نافذة غرفة الخزين طيلة العصر تنتظر مجيء صديقها... وهي لم تر شيئاً بالمعنى الحرفي للكلمة. أي أن أحداً لم يأت إلى البيت أبداً، لا ساعي البريد ولا أي شخص آخر.

وقد كان من شأنها -وهي بطيئة الفهم- أن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تدرك أن ذلك كان أمراً غريباً جداً... لأن السيدة سيمغتن قد تلقت ظاهرياً رسالة مجهولة عصر ذلك اليوم.

سألها متحيراً: ألم تلقي رسالة؟

- كلا، بالطبع! إن هذه الحريمة بسيطة جداً كما قلت. الذي حدث أن زوجها وضع لها السيانيد في كبسولة الدواء التي كانت تستشرها بعد ظهر ذلك اليوم بعد تناول الغذاء كما هي العادة. كل ما كان على سيمغتن عمله -بعد ذلك- هو العودة إلى البيت قبل عودة إلسي هولاند أو في نفس الوقت معها، ومناداة زوجته دون أن يسمع منها إجابة، فيصعد إلى غرفتها ويضع قطرة من السيانيد في كأس الماء الذي اعتادت أن تشربه مع قرص الدواء، ثم يلقي بالرسالة المكشورة التي أعدها أمام الموقد، ويضع بجانب يدها قصاصة الورق التي كُتب عليها: "لا يمكنني المضي".

التفتت الآنسة ماربل إلي وقالت: كنت محقاً تماماً فيما يخص هذه النقطة أيضاً يا سيد بيرتن؛ إذ أن "قصاصة الورق" كانت غير طبيعية أبداً. إن الناس لا يكتبون رسائل انتحار على قصاصة ورق صغيرة مقطوعة، بل هم يستخدمون ورقة كاملة... ويضعونها غالباً في مغلف أيضاً. نعم، كانت قصاصة الورق غير طبيعية، وأنت عرفت ذلك.

قلت: أنت نياغين في إفراتي، فأنا لم أكن أعرف شيئاً.

- ولكنك عرفت، عرفت فعلاً يا سيد بيرتن. وإلا لماذا أشرت فيك على الفور الرسالة التي كتبها لحنك على عجل وتركتها على حامل الهاتف؟

كررتُ ببطء: "لا يمكنني المضي يوم الجمعة"... فهمت: "لا يمكنني المضي"!

ابتسمت لي الآنسة ماربل وقالت: بالضيظ، لقد عثر السيد

تقتلي أحياناً، هو أن أحكام المجرم تنشوه بعد ذلك ويبدو له كل شيء ميالاً فيه. لا شك أنه سمع الفتاة تهافت بارنيردج وتقول إنها كانت قلقة منذ وفاة السيدة سيمتغن وأن في الأمر شيئاً لم تفهمه. لم يكن يستطيع المجازفة... فهذه الحمقاء الغبية ربما رأيت شيئاً أو تعرف شيئاً.

- ألم يكن موجوداً في مكتبه طيلة عصر ذلك اليوم؟

- يُحِبُّ إلي أن أقولها قبل مغادرة البيت. كانت الأنسة هولاند في غرفة الطعام، ولعله اكتفى بالخروج إلى الصالة حيث فتح الباب الأمامي وأغلقه وكأنه قد خرج من البيت، ثم انسل إلى غرفة الملابس الصغيرة عند الباب الأمامي. وعندما بقيت أغنيس وحدها في البيت، ربما قرع جرس الباب وعاد إلى غرفة الملابس بسرعة، ثم جاء من ورائها وضربها على رأسها عندما كانت تفتح الباب، ثم بعد أن حشر الجثة داخل الخزانة، أسرع إلى مكتبه بتأخير قليل جداً خشية أن يلحظه أحد، ولكن ربما لم يلحظ ذلك أحد... فكما تعرفين لم يكن أحد يشك في رجل.

قالت السيدة كالثروب: يا له من وحش بغض!

سألتها: أرى أنك لا تشعرين بالأسف عليه يا سيدة كالثروب؟

- إطلاقاً، لماذا؟

- لا شيء، إنما بسعدني سماع ذلك.

قالت جوانا: ولكن لماذا إيمسي غريفت؟ أعرف أن الشرطة اكتشفوا أن بد الهاتون قد اختفت من صيدلية أوين... والسيخ أيضاً.

سيمتغن على رسالة شبيهة بهذه ورأى ما يمكن أن تطوي عليه من احتمالات ففطع الكلمات التي أُرِدها حتى يستخدمها عندما يحين الوقت... وكانت رسالة صحيحة كتبت بخط يد زوجته.

سألتها: وهل ظهرت أية لمحات ذكية أخرى من طرفي؟

طرفت عينا الأنسة ماربل وهي تنظر إلي وقالت: لقد وضعتني على الطريق الصحيح... أنت جمعت لي تلك الحقائق على نحو متسلسل، وعلى رأسها أهم نقطة قلتها لي من بين كل تلك النقاط، وهي أن إلسي هولاند لم تلتق أية رسالة مجهولة أبداً.

قلت: هل تعرفين أنني فكرت الليلة الماضية بأنها هي كاتبة الرسائل، وأن ذلك هو سبب عدم تلقيها لأي منها؟

- آوه يا عزيزي... أنا لم أفكر بذلك؛ فالشخص الذي يكسب رسائل مجهولة يرسل دائماً رسالة منها إلى نفسه، وأحسب أن ذلك يشكل جزءاً من... من الإثارة. ولكن لا، لقد أشارت هذه الحقيقة اهتمامي لسبب مختلف تماماً. كانت هذه -في الواقع- نقطة الضعف الوحيدة عند السيد سيمتغن؛ لم يستطيع حمل نفسه على كتابة رسالة قذرة إلى الفتاة التي أحب. إنها ملاحظة جانبية مثيرة جداً تلقي الضوء على الطبيعة البشرية... وهي قد تسجل لصالحه بطريقة ما، ولكنها النقطة التي فضحت.

قالت جوانا: وهل هو الذي قُتل أغنيس؟ إن ذلك لم يكن ضرورياً بالتأكيد؟

- ربما كان ضرورياً. إن ما لا تدركينه يا عزيزتي (إذ لم

- لقد كانا صديقين حميمين دائماً، وأحسب أنها رأت بعد وفاة السيدة سيمغتن أنها ربما استطاعت في يوم من الأيام...

تحدثت الآنسة ماربل مفضلة التلميح على التصريح، ثم أضافت: ثم بدأ الكلام ينتشر عن السي هولاند، وأظن أن ذلك قد ضايقها كثيراً. رأت في الفتاة امرأة لعرباً تحطط لإيقاع سيمغتن في أحابيلها وأنها غير جديرة به. وهكذا، أحسبها استسلمت للإغراء: لماذا لا تكتب رسالة إضافية واحدة وترعب الفتاة بحيث تخرجها من المنزل؟ لا بد أن ذلك بدا لها آمناً تماماً، فظننت أنها قامت بجميع الاحتياطات.

قالت جوانا: وبعد ذلك؟ أكملني القصة.

قالت الآنسة ماربل ببساطة: يُحِيل لي أن السيد سيمغتن قد عرف على الفور كاتبة الرسالة عندما أرتبه إياها الآنسة هولاند، ورأى في ذلك فرصة لإنهاء القضية إلى الأبد وتأمين نفسه. لم يكن ذلك تصرفاً لطيفاً... نعم، ولكنه كان حائفاً. فلم يكن الشرطة ليقتنعوا حتى بمسكوكا بكاتبة الرسائل المحجولة. وعندما أخذ الرسالة إلى الشرطة، وعرف أنهم قد رأوا إيمي عملياً وهي تكتبها أحسن بأن فرصة لا تلوح إلا نادراً تلوح له الآن لإنهاء القضية كلها.

وهكذا أخذ العائلة لشرب الشاي هناك عصر ذلك اليوم، وقد كان من السهل عليه -وهو قادم من مكتبه حاملاً حقيقته- أن يحضر فيها الصفحات التي قصها من الكتاب لكي يخفيها تحت الدرج ويحسم القضية. وكان إخفاؤها تحت الدرج لمسة بارعة، فهو يذكر الجميع بالطريقة التي أخفيت فيها جثة أغنيس. ومن الناحية

لا أظن أن من السهل على رجل أن يعيد أنشاء إلى أدراج المطابخ. واحزوري أين كانت موجودة؟ لقد أحسرتني المفتش ناش قبل قليل عندما التقينه وأنا في طريقني إلى هنا أنها كانت في واحد من تلك الصناديق القديمة التي يحفظ بها الوثائق في مكتبه. صندوق وثائق عقارات الراحل السير جاسبر هارينغتون ويست.

قالت السيدة كالثروب: مسكين جاسبر... كان أحد أبناء عمومي، وكان عجزاً مستقيماً. لو علم بذلك لأصيب بنوبة قلبية!

سألتها: ألم يكن من الجنون أن يحتفظ بها؟

قالت السيدة كالثروب: ربما سيكون أكثر جنوناً لو رماها. لم يكن أحد يرتاب سيمغتن أيداً.

قالت جوانا: إنه لم يضرها بيد الهاون. كانت هناك أيضاً كرة حديدية من تلك التي تعلق في الساعات الحدارية، وعليها شعر ودم. ويُظن أنه سرق يد الهاون في اليوم الذي اعتقلت فيه إيمي وأنه أعفى صفحات الكتاب في بيتها. وهذا يعيدني إلى سوالي الأصلي: ماذا عن إيمي غريفيث، لقد شوهدت عملياً وهي تكتب تلك الرسالة.

قالت الآنسة ماربل: بالطبع، فقد كتبت تلك الرسالة فعلاً.

- ولكن لماذا؟

- يا عزيزتي! لا بد أنك أدركت أن الآنسة غريفيث كانت تحب سيمغتن طيلة حياتها.

قالت السيدة كالثروب بطريقة آليّة: المسكينة!

العملية كان ذلك سهلاً جداً بالنسبة له، فعندما لحق بإيمي في الصلاة كانت دقيقة واحدة أو دقيقتان تكفي لهذا العمل.

قلت: ومع ذلك، يبقى شيء واحد لا يمكنني غفرانه لك يا آنسة ماربل... إقناعك ميفان بالمشاركة في هذا الأمر.

الفصل الخامس عشر

ذات صباح في الشارع العام:

خرجت الآنسة إميلي من محل البقالة حاملة حقيبة مشترياتها، خداعها متوردان وعينها متفتحتان: أوه يا عزيزي السيد بيرتن، إنني أشعر حقاً بالإنارة وأنا أفكر في ذهابي في رحلة أخيراً!

- أرجو أن تستمعي بها.

- أنا واثقة من ذلك. لم أكن لأحرز على الذهاب بمقريدي. يبدو أن الأمور قد انتهت إلى هذا الحال بفضل العناية الإلهية. لقد شعرت منذ وقت طويل بضرورة ترك منزل ليل فيرز، وأدركت أن إمكاناتي المالية ضعيفة، ولكنني لم أستطيع تحمل فكرة وجود غرماء فيه. أما وقد اشتريته الآن وقررت العيش فيه مع ميفان فإن الأمر مختلف تماماً. وإيمي بعد محنتها القاسية... لا نعرف ماذا تفعل بنفسها، وأخوها سيتزوج (كم هو جميل أن تقررا - أنت وحوانا - الاستقرار عندنا!)، وقد وافقت إيمي على المحي، معي. إننا نعتزم الرحيل لفترة طويلة.

وضعت الآنسة ماربل صناديقها جانباً، ونظرت إلى من فوق نظارتها بعينين صارمتين وقالت: كان يجب عمل شيء يا عزيزي! لم يكن لدينا أي دليل ضد هذا الرجل الذكي جداً والمفتقر تماماً لأي وازع. كنت بحاجة لشخص يساعدني، شخص ذي شجاعة فائقة وذكاء كبير، وقد وجدت الشخص الذي أردته.

- كان ذلك خطراً كبيراً عليها.

- نعم، كان خطراً، ولكننا لم نخلق يا سيد بيرتن للهروب من الخطر عندما تكون حياة إنسان بريء آخر مهددة. هل فهمتي؟

وقد فهمتها.

* * *

ثم خفضت الأنسة إميلى صوتها وقالت: بل إننا ربما نذهب
فى رحلة حول العالم! وإيمى رائعة وعملية جداً. إنسى أرى فعلاً أن
كل شيء ينتهى نهاية سعيدة.

فكرت للحظة عابرة بالسيدة سيمغتن وأغتبس ودل فى
قبريهما ونسألت إن كانتا متوافقان على كلام إميلى عن النهاية
السعيدة، ثم تذكرت أن صديق أغتبس لم يكن يحبها كثيراً، وأن
السيدة سيمغتن لم تكن لطيفة مع ميغان، فلماذا أهتم كثيراً؟ لا بد
أن تموت جميعاً يوماً ما! ووافقت الأنسة إميلى السعيدة على أن كل
شيء انتهى نهاية سعيدة.

ذهبت إلى الشارع ثم إلى بوابة بيت سيمغتن، وخرجت
ميغان لمقابلتي. لم يكن لقاء رومانسياً لأن كلياً إنكليزياً ضخماً
خرج مع ميغان وكاد يوقعتنى أرضاً بنشاطه سيء التوقيت.

قالت ميغان: أليس رائعاً؟

- ولكنه مبالغ قليلاً فى روعته. أهو لنا؟

- نعم، إنه هدية زفافنا من جوانا. لقد تلقينا هدايا جميلة،
أليس كذلك؟ قطعة الصوف تلك التي لا نعرف لماذا تستعمل من
الأنسة ماربل، وطقم الشاي الجميل ذاك من السيد باي، كما
أرسلت لي إلسي حمالة توست توضع على المائدة...

- يا لها من هدية تملئ صاحبيتها.

- كما أنها حصلت على وظيفة عند طبيب أستان، وهي

سعيدة جداً. و... ماذا كنت أقول؟

- كنت تعدين هدايا الزفاف. لا تنسى أن عليك أن تعيديها
كلها إلى أصحابها إذا غيرت رأيك.

- لن أغير رأيي. ماذا تلقينا غير ذلك؟ أوه، نعم، لقد أرسلت
السيدة كالثروب لنا تحفة على شكل خنفساء مصرية.

- امرأة متفردة.

- ولكنك لا تعرف الهدية الفضلى. لقد أرسلت لي يارتريدج
هدية. إنها مشقة للأطباء، أشنع مشقة رأيها. ولكني أعتقد أنها
نحني الآن دون شك، فهي تقول إنها طرزتها بيديها.

- أظنها طرزتها بعناقيد حصرم وأشواك؟

- كلا، بل بصورة القلب رمزاً للحب.

- يا إلهي، يا إلهي... إن يارتريدج تتطور!

كانت ميغان قد سحبني إلى داخل البيت حيث قالت: شيء
واحد فقط لا أستطيع فهمه؟ قالى جانب الطوف والحبل الموحودين
على الكلب أرسلت جوانا طوقاً وحبالاً إضافيين. لأي شيء تظنها
أرسلتها؟

قلت: هذه مزحة من مزحات جوانا.

* * *